۲

الدَفعُ و الرَفع

الجواب عن الأسئلة والردّ على الشبهات حول النبی الأعظم صلی‌الله‌علیه‌وآله

مرکز مطالعات و پاسخ‌گویی به شبهات
(حوزه‌های علمیه)
پاسخ
ضمیمه فصلنامه پاسخ
pasokhmag.ir

المحتويات

المقدمة

فلسفة النبوّة

الوحي والنبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله

معجزات النبي الأعظم صلى الله عليه وآله

علم النبي الأعظم صلى الله عليه وآله

عصمة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله

خصائص النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله

النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وأصحابه

النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله والخلافة

النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله ومخالِفوه

حروب النبي الأعظم ﷺ

النبي الأعظم ﷺ والدين العالمي

النبي الأعظم ﷺ وخاتمية النبوة

المقدمة

في عصرٍ يقوم فيه المعماريون المعادون للدين بإنتاج ونشر وتوسيع نطاق الشبهات واستهداف المعتقدات الدينية البشرية،مركزين هجومهم على رسالة الأنبياء وسِيرِهم، ومكارمهم الأخلاقية-لا سيما النبي الكريم ﷺ- من الواجب مواجهته عبر الاستعانة بمصادر فكرية ورواية موثوقة لإزالة غبار الشك والريبة عن وجوه هؤلاء الهداة للمجتمع.

ومن هذا المنطلق، يسعى هذا العدد من ملحق مجلة «باسخ» (الدفع والرفع)، مع تركيزه على تقديم إجابات تفصيلية عن الأسئلة والشبهات الموجّهة لـ«النبيّ الأعظم ﷺ»، للإجابة على هذه الشبهات والأسئلة.

وتمثّل «الدفع والرفع» تأمّلًا منهجيًا في الشبهات المتداولة التي تحاول ،إلى جانب عرض إجابات تفصيلية، أن تتخذ موقفًا هجوميًا واستباقيًا تجاه القضايا والموضوعات

التي تمهّد لظهور الشبهة أو تسهم في نشرها داخل الفضاء الفكري للمجتمع. ومن الواجب علينا أن نتقدّم بخالص الشكر والتقدير إلى مجموعتي التاريخ والكلام في هذا المركز، لما بذلتاه من جهود قيّمة في إعداد هذا العمل.

فلسفة النبوّة

١) هل توجد أدلّة عقلية على ضرورة بعثة الأنبياء؟

إنّ الإنسان، كسائر الموجودات يبحث عن الكمال؛ لكن كماله الحقيقي ليس من نوع الكمالات المادّية والطبيعية، بل يتمثّل في تكامل الروح الإنسانية من خلال أفعاله الاختيارية. وطريق الوصول إلى هذا الكمال يتم من خلال الارتباط بالكمال المطلق، أي بالله سبحانه، وفي ظلّ هذا الارتباط يبلغ الإنسان إلى «مقام القرب الإلهي»، من آثاره التمتع بالنِعَم والرضوان الإلهي، ويظهر كماله الأتم في الآخرة. وطريق الوصول إلى هذا المقام العام هو عبادة الله والتقوى، اللذان يشملان جميع شؤون حياة الإنسان.

ويجب هنا أن نسأل: كيف يبلغ الإنسان إلى هذا الهدف السامي؟ هل يسلك الطريق وحده اعتمادًا على ذاته؟ أم يستعين بأمثاله من البشر؟ أم أنّ الحكمة الإلهية تقتضي أن يتولّى الله تعالى بنفسه، عبر إرسال الرسل، تحديد مسار

حركة الإنسان في هذا الطريق المعنوي؟ إنّ العقل يقضي بأنّ الله، وهو خالق الإنسان والعالم بحاجاته المتنوّعة، هو الأجدر بتعيين برنامج هذه الحركة ومسارها.

وقد أقام العلماء في بيان هذه الضرورة براهين عقلية عديدة، ونقتصر هنا مراعاةً للاختصار على الثلاثة منها:

أ) ضرورة بعثة الأنبياء لتحقيق كمال البشر:

إنّ الغاية من خلق الإنسان هي أن يقطع، من خلال أفعاله الاختيارية، مسيرته التكاملية نحو الكمال النهائي؛ وبعبارة أخرى، خُلق الإنسان لكي يتهيّأ، عبر الطاعة وعبادة الله تعالى، لنيل المقامات التي تليق بالإنسان الكامل.

ولا يستطيع الإنسان أن يسير في طريق كماله بحرّية ووعيٍ كاملين ما لم يعرف الهدف والطريق المؤدّي إليه؛ ومن ثمّ فإنّ مقتضى الحكمة الإلهية أن يضع بين يدي البشر الأدوات اللازمة لتحصيل هذه المعرفة. ولو لم يوفّر الله هذه الأدوات، لكان حاله ،والعياذ بالله، كحال مضيفٍ يدعو ضيفًا إلى منزله، ثم لا يبيّن له موضع البيت ولا طريق الوصول إليه. ومثل هذا السلوك منافٍ للحكمة، ونحن نعلم أنّ الله تعالى حكيم ولايقوم عل عمل ينقض الحكمة.

إنّ المعارف العادية والمتعارفة التي يحصل عليها الإنسان عبر الحسّ والعقل، وإن كانت تؤدّي دورًا مهمًا في تلبية حاجات الحياة، إلّا أنّها غير كافية لمعرفة طريق

الكمال والسعادة الحقيقية في أبعادها الدنيوية والأخروية المختلفة. وقد تجلّت قصور المعرفة البشرية بوضوح في إخفاق المذاهب والمدارس الإنسانية. ولو لم توجد وسيلة أخرى لسدّ هذا النقص، لما تحقّق الهدف الإلهي من خلق الإنسان.

النتيجة:

بناءً على ما تقدّم، يتبيّن أنّ مقتضى الحكمة الإلهية هو أن يضع الله تعالى، إلى جانب العقل والحسّ، طريقًا آخر لمعرفة مسار التكامل الشامل للإنسان، وهو طريق الوحي، الذي أُودع عند الأنبياء ليكونوا هداة للبشر في طريق الكمال والسعادة.[1]

قصور المعرفة البشرية

قد يكون من بين مقدمات هذا البرهان ما يثير التشكيك، ولا سيّما المقدّمة الأخيرة (المقدّمة الثالثة)، ولذلك نرى من اللازم التوسّع في بيانها، ليتّضح على نحوٍ كامل قصور المعرفة البشرية عن تشخيص مسار كمال الإنسان الشامل ، وحاجته الملحّة إلى طريق الوحي. فنقول:

إنّ المشرِّع، لكي يتمكّن من معرفة الطريق الصحيح

١ . مصباح اليزدي، راهنماشناسي، فصل الاوّل: ضرورت نبوت، قم: انتشارات مركز مديريت حوزة علمية، الدورة ١، ١٣٦٧ ش؛ آموزش عقايد، ج ٢، الدرس ٢٢، الدورة ٩، انتشارات سازمان تبليغات اسلامى، ١٣٧٢ ش.

للحياة في جميع أبعادها، لا بدّ أن يكون على علمٍ ببداية وجود الإنسان ونهايته، وبجميع الروابط التي تجمعه بسائر الموجودات، وأن يحيط بتأثير هذه الروابط في سعادته أو شقائه، حتى يستطيع أن يضع برنامجًا شاملًا لمليارات البشر، على اختلاف خصائصهم الجسدية والنفسية. غير أنّ الإحاطة بهذه الأمور لا تتيسّر لا لفردٍ واحد ولا لجماعة بعينها، بل إنّ آلاف الجماعات المتخصّصة أيضًا تعجز عن سنّ قوانين دقيقة تكفل، على نحوٍ جامع، المصالح الفردية والاجتماعية، والمادية والمعنوية، والدنيوية والأخروية لجميع البشر.

إنّ مسيرة التحوّلات الحقوقية والقانونية في تاريخ البشرية، وإخفاق المدارس الفكرية المدّعية لهداية الإنسان، كالفرويدية والماركسية وغيرها، يشكّل دليلًا واضحًا على قصور المعرفة البشرية في تقديم طريق السعادة للمجتمع الإنساني، كما يكشف في الوقت نفسه عن قابلية المعارف البشرية للتغيّر والتطوّر. وأوضح شاهد على هذا القصور هو اعتراف روّاد هذه المذاهب أنفسهم، وكثرة الانتقادات الموجهة إليها من جانب المفكّرون، وفشلها العملي في تحقيق ما ادّعته، وانهيار الكتلة الشيوعية في الاتحاد السوفيتي السابق من أبرز نماذجه.

بينما تتدعي هذه المذاهب التخطيط لحياة الإنسان الدنيوية فقط، ونست سعادته الأخروية وكماله المعنوي. وجعلت الإنسان في حضيض حيوان، وحبسته في إطار الدنيا والرغبات الجسدية.

ب) عجز الإنسان عن سنّ القوانين الدقيقة

إنّ المشرّع الكامل، لكي يكون قادرًا على وضع القانون الأكمل والأصلح، لا بدّ أن تتوافر فيه الشروط الآتية:

أن يمتلك معرفةً إنسانية شاملة، بحيث يحيط بجميع أسرار الجسد والنفس، وبالعواطف والغرائز والإدراكات العقلية، وأن يكون عالمًا بالقوانين الحاكمة لعلاقات البشر، حتى يتمكّن من تشريع قوانين منسجمة مع جميع هذه الأبعاد.

أن يكون على علمٍ كامل بالماضي والمستقبل، ليتمكّن من تقويم آثار القوانين الموضوعة في الحاضر على مستقبل حياة الإنسان؛ إذ لا يكفي أن يكون القانون نافعًا في اللحظة الراهنة فحسب.

أن يتمتّع بـ«علمٍ كامل»، يتيح له، من خلال تشريعاته، إخراج جميع الاستعدادات والطاقات الكامنة في الفرد والمجتمع من حيّز القوّة إلى حيّز الفعل.

أن تتّسم القوانين بالواقعية والقدرة على التطبيق، لا أن تكون خيالية أو وهمية، وأن تحظى بضمانات تنفيذ حقيقية لا أن تبقى مجرّد نصوص بلا سند، وأن يكون فهمها ميسورًا لعامة الناس، لا معقّدًا أو بعيدًا عن إدراكهم.

أن يكون المشرّع الحقيقي معصومًا من الخطأ والزلل، متّصفًا بالرحمة تجاه من يشرّع لهم، وفي الوقت نفسه

صاحب إرادةٍ قوية لا يخضع لأيّ قوّة ولا يهاب أحدًا.

أن يكون المشرِّع الجدير بهذا المقام منزّهًا عن أيّ مصلحة شخصية في المجتمع الذي يضع له القوانين؛ إذ إنّ المصالح الذاتية تشدّ فكر المشرِّع إلى جهتها، ولا يمكن إنكار آثارها الواعية وغير الواعية في عمليّة التشريع.

فهل تجتمع هذه الجهات الستّ في كائنٍ غير الذات الإلهية الطاهرة؟ إنّها لا تتحقّ إلّا فيمن خلق الإنسان، والمطّلع على جميع أسرار وجوده، والعالم بحاضره ومستقبله وبنتائج كلّ حكم وتشريع، والمنزّه عن الخطأ والزلل، والغنيّ عن كلّ أحد وكلّ شيء.

وبناءً على ما سبق، يتبيّن أنّ كلّ قانونٍ غير قانون الله لا يخلو من النقص ومآله إلى الفشل، وأنّ جلّ مشكلات الإنسان تنبع من محاولته سنّ القوانين بنفسه، اعتمادًا على علمٍ محدود، وتحت تأثير الدوافع والمصالح الدنيوية. ويُعدّ هذا المعنى أحد الأدلّة العقلية الواضحة على ضرورة بعثة الأنبياء.[1]

ج) تنسيق التكوين والتشريع يقتضي ضرورة بعثة الأنبياء

إنّ التأمّل العميق في عالم الخَلق يكشف بوضوح أنّ خالق الكون قد وفّر لكلّ موجودٍ جميع الوسائل اللازمة

١ . مكارم الشيرازي، ناصر، پيام قرآن، ج٧، ص٤١ – ٤٤، مدرسه امام على بن ابيطالب (عليه السّلام) الدورة ٣، ١٣٧٥ ش.

والنافعة التي تمكّنه من بلوغ كماله اللائق به. ومن هنا يبرز هذا التساؤل الجوهري: كيف يمكن لخالقٍ أمدّ كلّ موجودٍ بأدوات التقدّم والتكامل في نظام التكوين أن يُغفل مسألة بعثة الأنبياء، وهي التي تؤدّي الدور الأهمّ في تكامل الإنسان في أبعاده المادّية والمعنوية، فيحرم المجتمع الإنساني من هذه الموهبة العظمى؟!

وقد أشار أبو علي ابن سينا إلى هذه الحقيقة في كتابه «الشفاء» بعبارات موجزة وتشبيهٍ بليغ، إذ يقول: «إنّ الحاجة إلى بعثة الأنبياء لبقاء النوع الإنساني وتحصيل كمالاته الوجودية أشدّ من الحاجة إلى إنبات شعر الأجفان والحواجب، وإلى تقوّس أخمص القدم الذي يسهّل على الإنسان المشي والوقوف، وأمثال هذه المنافع؛ فكيف يُعقل أن تقتضي العناية الإلهية الأزلية تلك المنافع، ولا تقتضي بعثة الأنبياء، مع أنّها أساس حياة الإنسان؟»[1]

وقد نقل «هشام بن الحكم»، التلميذ المعروف للإمام جعفر الصادق عليه السلام، استدلالًا يشبه هذا المعنى في مناظرته مع «عمرو بن عبيد»، أحد أعلام أهل السنّة.[2]

وإلى جانب هذه الأدلّة، وغيرها من البراهين العقلية

١ . مكارم الشيرازي ، ناصر، پيام قرآن، ج٧، ص ۴۶، منقول من: ابن سينا، حسين، شفاء، الهيات، المقالة١٠، الفصل٢.

٢ . الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، كتاب الحجة، باب الاضطرار الى الحجة، ج١، ح٣.

التي لم يُتعرّض لها هنا مراعاةً للاختصار، تجدر الإشارة إلى أنّ الاستناد إلى آيات القرآن الكريم وروايات أئمّة الدين في هذا الموضوع وسواه لا يندرج دائمًا في إطار التعبّد المحض أو الاحتجاج بالأدلّة النقلية فحسب؛ بل يمكن في كثير من الأحيان استخراج براهين عقلية من مضامين هذه النصوص نفسها. وبعبارة أخرى، فإنّ النظر إلى القرآن بنظرةٍ خارجية غير تعبدية يقود إلى التسليم العقلي بالحاجة إلى النبي. وقد تناول القرآن الكريم من زوايا متعدّدة ضرورة بعثة الأنبياء، وبيّن فلسفتها في قضايا من قبيل تثبيت التوحيد وتكميله، وبعث الأمل بالمعاد، ورفع الاختلاف، وفضّ الخصومات، وإقامة العدل في المجتمع الإنساني، وإتمام الحجّة، وتزكية النفوس، وتعليم الكتاب والحكمة.[1]

والخلاصة أنّ بعثة الأنبياء لهداية البشر وتكميلهم حقيقةٌ يقرّ بها العقل، ويؤكّدها الشرع، وتشهد لها الفطرة السليمة على حدّ سواء.

١ . خسروپناه، عبدالحسين، قلمرو دين، مركز مطالعات و پژوهش‌هاي فرهنكي حوزة علمية، الدورة١، ١٣٨١ش.

المصادر للمزيد من الدراسة:

مصباح يزدي؛ محمد تقي، معرفة الدليل والمرشد.

سبحاني؛ جعفر، الرسالة العالمية للأنبياء.

الخوئي؛ السيد أبو القاسم، معرفة القرآن وإعجازه، ترجمة: محمد صادق نجمي، هاشم هريسي.

إمامي وآشتياني؛ جعفر ومحمد رضا، العقائد الإسلامية (طرح جديد في التعليم).

خسروبناه؛ عبد الحسين، مجال الدين وحدوده.

٢) كيف يمكن إدراك فلسفة النبوّة وبعثة الأنبياء، وفهم تطبيقاتها في المجتمع المعاصر؟

لكي تتّضح الإجابة عن هذا السؤال على نحوٍ كامل، لا بدّ من طرحها وبيانها عبر عدّة محاور:

١-إنّ من أفضل السبل لإدراك فلسفة النبوّة على نحوٍ يجعل لها حضورًا عمليًا في المجتمع الراهن ويُشعر بالحاجة الفعلية إليها، هو الالتفات إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ جميع ظواهر الكون تسير نحو غاية محدّدة. وهذه الحركة، فضلًا عن كونها شاملة وعامّة، فهي مستمرّة ودائمة، وليست أمرًا مرحليًا كان موجودًا في زمنٍ ما ثم توقّف، أو لم تعد الحاجة إليه قائمة في الحاضر. ولتقريب الفكرة إلى الذهن، يحسن التمثيل بحبّة القمح التي توضع تحت التراب في ظروف مناسبة، فتبدأ بالنموّ والارتقاء، وتكتسب في مسار تحوّلها، في كلّ مرحلة، صورةً وحالةً جديدة، وتسلك طريقًا محدّدًا ومنظّمًا إلى أن تتحوّل إلى نبتة كاملة تحمل سنابل القمح. فإذا سقطت حبّة من تلك السنابل على الأرض، فإنّها تعود فتسلك المسار نفسه، وبالصورة ذاتها، إلى أن تبلغ كمالها المنشود. وهذه السنّة قائمة على الدوام، وستبقى جارية إلى الأبد. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[١]، أي إنّه سبحانه هو الذي منح كلّ موجود خلقته الخاصّة، ثمّ هداه إلى مساره.

١ . سورة طه:٥.

والإنسان، بوصفه أحد ظواهر الوجود، ليس مستثنى من قانون الهداية؛ فالهداية التكوينية التي تسري في جميع أنواع الموجودات، حاضرة في الإنسان أيضًا. غير أنّ الإنسان يتميّز بخصوصية لا تتوافر لغيره من الموجودات، وهي العقل والتفكير. وبما أنّ الإنسان يمتلك القدرة على التعقّل والتدبّر، فإنّه يوظّف كلّ وسيلة ممكنة لصالحه، ويسعى إلى تسخير جميع ظواهر الكون، بل وحتى أبناء جنسه، في خدمة منافعه الخاصّة. ومن جهة أخرى، فإنّ الإنسان، بحكم طبيعته الذاتية، يرى كماله وسعادته في الحرّية المطلقة؛ غير أنّ بنيته الوجودية ذات طابع اجتماعي، وله حاجات متعدّدة لا يستطيع بحالٍ من الأحوال أن يلبّيها منفردًا. ولا يمكنه تلبية هذه الحاجات إلّا في إطار الحياة الاجتماعية والتعاون مع أبناء جنسه، الذين يشتركون معه في غريزتي حبّ الذات والتطلّع إلى الحرّية. ومن هنا يضطرّ الإنسان إلى التنازل عن بعض ميوله، ليستفيد، في المقابل، من الآخرين في إشباع حاجاته. وبذلك يتّضح أنّ الإنسان غير قادر على الاستمرار في الحياة من دون العيش الاجتماعي. ولا شكّ أنّ الحياة الاجتماعية بدورها تحتاج إلى قوانين، بحيث يلتزم بها الجميع، فتُصان الحقوق، وتستقيم شؤون الحياة، ويتمكّن كلّ فرد من الوصول إلى كماله وسعادته المنشودة. وهذا الإحساس بالحاجة إلى القانون يُعدّ مطلبًا فطريًا مشتركًا بين جميع البشر على امتداد التاريخ، وسيظلّ كذلك إلى الأبد. ليس

الأمر أن البشر احتاجوا إلى القانون في يوم من الأيام، واليوم أو في المستقبل، فإن هذه الحاجة الفطرية ليست مشكلة بالنسبة لهم؛ لذلك، فإن وجود القانون هو الرغبة والحاجة الطبيعية لجميع البشر في الماضي والحاضر والمستقبل؛ ولكن يبقى أن نرى ما إذا كان العقل البشري والحكمة قادرين على فهم وتلبية جميع احتياجات البشر بطريقة لا تحرم أي فرد أو مجتمع أو جماعة أو أمة أو عرق من حقوقهم الإنسانية والإلهية؟

إنّ العقل، وبشكلٍ يقيني، وبسبب ما يعتريه من نقصٍ وحدودٍ وجودية، عاجزٌ عن إدراك كثيرٍ من القضايا والحاجات الإنسانية، ولا يمكنه أبدًا أن يضع. بمفرده ومن دون الاستعانة بعالم الغيب. قانونًا يضمن سعادة الإنسان الدنيوية والأخروية، ويستوعب جميع حاجاته الوجودية، ويكون قادرًا على تلبية متطلّباته في الحياة الدنيا وتحقيق سعادته الأبدية. ومن ثمّ فإنّ العقل والحكمة يقضيان بأنّ الإنسان محتاجٌ على الدوام إلى قانونٍ يكون مشرّعه عالمًا بجميع أبعاد وجود الإنسان، ومحيطًا بكلّ حاجاته المتنوّعة. ولا بدّ، تبعًا لذلك، أن يظهر في المجتمع البشري من يتّصف بصفاتٍ وكمالاتٍ أسمى من سائر الناس، ليُعرّفهم بذلك القانون، ويجعله في متناول الجميع. وهذا الحكم العقلي حكمٌ عامّ ودائم، لا يختصّ بزمانٍ دون آخر. وبناءً عليه، وبما أنّ الإنسان في الماضي والحاضر والمستقبل محتاجٌ إلى

الهداية والإرشـاد، فـإنّ الحاجة إلى قـانونٍ هـادٍ تُعدّ مطلبًا فطريًا ثابتًا في وجـود الإنسـان. وعلى الأسـاس نفسه الذي كان البشر فيه محتاجين إلى الأنبياء الإلهيين في العصور السابقة، فإنّهم اليوم أيضًا بحاجةٍ إلى القانون الإلهي، لكي تُساق المجتمعات الإنسانية، في ظلّ التطبيق الصحيح له، نحو الكمال والسعادة في الدنيا والآخرة.[1] وانطلاقًا من هذه الحقيقة، يقول الحكيم الكبير أبو علي ابن سينا إنّ حاجة المجتمع الإنساني إلى النبيّ أشدّ من حاجته إلى الرموش والعينين والحاجبين وتقوّس أخمص القدم وما شابه ذلك؛ فالله تعالى، الذي أفاض على الإنسان هذه النعم بدافع لطفه وعنايته، كيف يمكن أن يحرم البشر من وجود من يتوقّف حفظ المجتمع الإنساني وصلاحه على وجوده؟![2]

٢-ومن الأجوبة البليغة والعميقة عن السؤال المتقدّم ما ورد في كلام أمير المؤمنين عليه السلام حول فلسفة بعثة الأنبياء، إذ يقول: «فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويُروهم آيات المقدرة.»[3] أي إنّ الله تعالى بعث في الناس رسله، وأرسل إليهم

١ . العلّامة الطباطبائي؛ السيد محمد حسين، الشيعة في الإسلام، ص ٨٠، طهران: نشر شركة الانتشار، ١٣٤٨هـ.ش.

٢ . أبو علي ابن سينا، الهيات شفاء، ص٤٤١، المقالة١٠، الفصل٢، قم: نشر مكتبة آية الله العظمي مرعشي نجفي، ١٤٠٤ق.

٣ . نهج البلاغة، خطبة١

أنبياءه تباعًا، ليُلزموهم بالوفاء بميثاق الفطرة الذي فطرهم عليه، ويذكّروهم نعمه التي أنسوها، ويقيموا عليهم الحجّة من خلال التبليغ، ويستنهضوا الكنوز الكامنة في عقولهم ويُفجّروها، ويُريوهم آيات القدرة الإلهية المنقوشة في البنية الكلّية للوجود.

ولا شكّ أنّ جميع دوافع بعثة الأنبياء التي أشار إليها الإمام عليه السلام، كما كانت مطروحة في الماضي، فإنّها اليوم أشدّ حضورًا ووضوحًا، وربّما تتجلّى في المستقبل على نحوٍ أكمل ممّا هي عليه الآن. فعلى سبيل المثال، قوله عليه السلام: «ويثيروا لهم دفائن العقول» يدلّ على أنّ من ثمرات الوحي الإلهي كشف الكنوز المكنونة في فكر الإنسان وعقله. وهذه الحقيقة باتت في عصرنا الحاضر أوضح وأكثر قابلية للفهم ممّا كانت عليه في الأزمنة السابقة، وقد تتجلّى في المستقبل بصورةٍ أتمّ وأشمل. وعليه، فإنّ فلسفة النبوّة ليست مقصورة على الماضي فحسب، بل إنّها تُدرَك في الحاضر بوضوحٍ أكبر.

٣-لقد تبيّن ممّا تقدّم أنّ الأدلة نفسها التي أثبتت ضرورة الوحي وفلسفة النبوّة للأمم السابقة، هي بعينها التي تثبت حاجة المجتمع البشري في الحاضر والمستقبل إلى ثمار النبوّة؛ إذ لا يوجد من هذه الجهة أيّ اختلاف جوهري بين إنسان الأمس واليوم والغد. غير أنّ النقطة الأساس تكمن في أنّ دين الإسلام، بوصفه دين خاتم الأنبياء، يمثّل حقيقةً

كفيلة بتلبية حاجة الإنسان إلى الدين إلى يوم القيامة، لأنّه ديـنٌ كامل، وقد تضمّن كلّ ما يحتاج إليه البشر إلى قيام الساعة. ويمكن الإشارة إلى بعض الشواهد على ذلك:

فـمـثـلًا، لـمـا كـانـت حـركـة الإسـلام حـركـةً تـوحـيـديـة، فقد واجهت في عصر نـزول الـقـرآن، وفـي بيئة الجزيرة العربية، أصنامًا من قبيل «اللات» و«العزّى» و«هُبل» و«مناة» وأمثالها؛ غير أنّ رسالتها لم تكن مقتصرة على محاربة تلك الأصنام المعيّنة، لأنّ جوهر دعوتها هو شعار «لا إله إلّا الله ولا معبود إلّا الله». ومن ثمّ فإنّ الإسلام يحمل رسالة المواجهة مع جميع مظاهر الشرك في كلّ الأزمنة والأمكنة، ويدعو البشر كافة إلى التوحيد.

وكذلك الأمـر في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي لا يحقّ لبعض البشر أن يتسلّطوا على بعضهم الآخر أو يجعلوا أنفسهم أصحاب ولاية عليهم، لأنّ الولاية الحقيقية إنّما هي لله تعالى وحده.

وهـذا الخطاب الإسـلامي مـا زال حـيًّا ومتألّقًا في عصرنا الحاضر، كما كان متألّقًا طوال أربعة عشر قرنًا، بل لعلّ صدى هـذه الآية في ظلّ ظروف العالم المعاصر أشـدّ وقعًا وأعمق دلالة. وكما تجلّت فلسفة النبوّة في هذه الآية عند نزولها، فإنّها لا تـزال متجلّية فيها اليوم؛ فحاجة الإنسان إلى هذا الخطاب الإلهي باقية، ورسالة الآية حيّة، وستظلّ كذلك إلى الأبد.

ومثالٌ آخر على ذلك أنّ الدين يدعو الإنسان إلى العبادة والمناجاة، وإلى الأخلاق والطهارة، وإلى العدل والإنصاف، وطلب العلم والمعرفة، وغير ذلك من القيم والمبادئ. ولا ريب أنّ حاجة الإنسان المعاصر إلى هذه الأمور لا تقلّ عمّا كانت عليه في العصور السابقة، بل لعلّها أشدّ وأوضح حضورًا.

إنّ فلسفة النبوّة، والحاجة إلى معطيات الوحي والقانون السماوي، ما زالت اليوم مطروحة بقوّة.[1]

١ . مطهري، مرتضى، خاتميت، ص٧٥، نشر صدرا، ١٣٦٦ش.

المصادر للمزيد من الدراسة:

الجعفري؛ محمد تقي، شرح نهج البلاغة، المجلّد الثاني، ص ١٨٦، الطبعة الأولى، دون مكان: نشر مكتب الثقافة الإسلامية، ١٣٥٧ هـ. ش.

الجوادي الآملي؛ عبد الله، الوحي والنبوّة، ص ١٩، الطبعة الأولى، قم: نشر إسراء، ١٣٨١ هـ. ش.

العلّامة الطباطبائي؛ السيد محمد حسين، الشيعة في الإسلام، ص ٨٠، طهران: نشر شركة الانتشار، ١٣٤٨ هـ. ش.

العلّامة الطباطبائي؛ السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، المجلّد الثاني، ص ١٤٧، بيروت: نشر مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٣ هـ. ق.

السعيدي مهر؛ محمد، تعليم علم الكلام الإسلامي، المجلّد الثاني، الطبعة الأولى، قم: نشر مؤسسة طه، ١٣٧٢ هـ. ش.

المطهري؛ مرتضى، خاتمية النبوّة، دون مكان: نشر صدرا، ١٣٦٦ هـ. ش.

مصباح؛ محمد تقي، أصول العقائد (٢): معرفة الدليل والمرشد.

فيّاض اللاهيجي؛ عبد الرزّاق، جوهر المراد، الباب الثاني، الفصل الأوّل، المقالة الثالثة، ص ٢٥١، طهران: نشر مكتبة الإسلامية، ١٣٧٧ هـ. ق.

الوحي والنبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله

١) كيف يمكن إثبات الوحي بالعقل؟ وإذا لم يكن ذلك ممكنًا، فمن أيّ طريق يمكن إثباته؟

لا شكّ أنّ الإنسان عاجز عن الإحاطة بحقيقة العلاقة النبوية وحقيقة الوحي؛ لأنّها علاقة مجهولة في ذاتها، وتقع خارج حدود الإدراك البشري المألوف. فعالم الوحي بالنسبة إلينا عالمٌ غير مألوف[١]، يتجاوز قدراتنا الإدراكية المعتادة. ومن ثمّ فإنّ الفرضيات التي طرحها بعض الاتجاهات الفردانية في الفكر الغربي حول ماهية الوحي، لا يمكنها أن تقدّم صورةً واضحةً ودقيقة عن هذه الظاهرة، بل إنّها في كثير من الأحيان تنحرف عن جادّة الصواب.[٢] وبما أنّ ظاهرة الوحي

١. مكارم الشيرازي، ناصر، تفسير نمونة، ج٢٠، ص٤٩٦. طهران: نشر دارالكتب الاسلاميه، ١٣٧٩ش.

٢. مكارم الشيرازي، ناصر، تفسير نمونة، ج٢٠، ص٤٩١. طهران: نشر دارالكتب الاسلاميه، ١٣٧٩ش.؛ رشاد، علي اكبر، دانشنامة امام على (عليه السلام)، ج٣، ص٢٨(نبوت و امامت)، طهران: نشر پژوهشكاة فرهنگ و انديشة اسلامي، ١٣٨٠ش.

خارجة عن نطاق الحسّ والتجربة الإنسانية المباشرة، فإنّ الإحاطة الكاملة بها غير متيسّرة؛ غير أنّه، شأنه شأن كثير من الظواهر الأخرى، يمكن التعرّف عليه إلى حدّ ما، من خلال آثاره ونتائجه.[1] ولهذا السبب عرّف الوحي بأنّه «إشارة سريعة»، كما ذكر ذلك الراغب الأصفهاني في مفرداته، سواء أكانت هذه الإشارة على هيئة كلامٍ رمزي، أم صوتٍ مجرّد عن التركيب اللفظي، أم إيماء، أم كتابة. ومن مجموع هذه التعابير يتّضح أنّ عنصرَي الإشارة والسرعة عنصران جوهريان في حقيقة الوحي، ولذلك استُخدم هذا اللفظ للدلالة على ذلك الاتصال الغامض والسريع الذي يربط الأنبياء بعالم الغيب.[2]

وقد كتب أحد الباحثين في هذا الشأن قائلًا: «إنّ الحقيقة هي أنّ ماهية الوحي تظلّ بالنسبة إلينا مجهولة؛ لأنّ هذا النمط من الإدراك والمعرفة يختصّ بالإنسان المصطفى، ولا سبيل للإنسان العادي إليه، ولا يمكنه أن يخوض تجربةً من هذا القبيل... ومع الصورة الإجمالية التي نكوّنها عن الوحي، يتّضح أنّه نوعٌ من الاتصال الخاص بين الإنسان الموجود في عالم الطبيعة وبين ما وراء الطبيعة، اتصالٌ تنتقل عبره حقائق من العوالم العلوية إلى النبيّ، فيغدو على وعيٍ بها.»[3]

١ . مطهري، مرتضى، مجموعة آثار، ج٢، ص١٥٧، نشر صدرا، ١٣٦٩ش.

٢ . مكارم الشيرازي، ناصر، تفسير نمونة، ج٢٠، ص٤٨٩. طهران: نشر دارالكتب الاسلاميه، ١٣٧٩ش.

٣ . سعيدي مهر، محمد، آموزش كلام اسلامي، ج٢، ص٦٢، قم: نشر مؤسسه فرهنكي طه، ١٣٧٨ش.

كيف يمكن إثبات الوحي بالعقل؟ وكيف يمكن، من الناحية العقلية، الإيمان بإمكان تحقّقه؟ وللإجابة عن ذلك، لا بدّ من تناول المسألة ضمن ثلاثة مقامات:

المقام الأوّل: هل الوحي ممكنٌ عقلًا أم لا؟

إنّ أصل إمكان الوحي ووجود نمطٍ من الاتصال الوحياني أمرٌ لا يقبل الإنكار؛ إذ لا يوجد أيّ دليلٍ عقلي ينفي إمكان تحقّق مثل هذا النوع من الارتباط، بل على العكس من ذلك، فإنّنا نلاحظ في عالم الوجود أشكالًا من العلاقات الغامضة التي نعجز عن تفسيرها تفسيرًا كاملًا، وهو ما يدلّ على أنّ وراء نطاق الحواس الإنسانية المعهودة إدراكاتٍ وروابط أخرى تتجاوز ما نألفه ونحيط به علمًا. ولعلّ مثالٍ يقرّب هذه الفكرة إلى الذهن ويوضحها بدرجةٍ أكبر:

فلنفرض أنّنا نعيش في مدينةٍ يسكنها عميان جميعهم عميان خِلقة، وأنّهم لا يمتلكون سوى أربعٍ من الحواس الظاهرة الخمس للإنسان، بينما نكون نحن وحدنا ممن يتمتّعون بالحاسّة الخامسة، أي حاسّة البصر. إنّنا، بحكم هذه الحاسّة، نشاهد بأعيننا أحداثًا كثيرة تجري في تلك المدينة، ونخبر أهلها بما نراه؛ غير أنّهم يقابلون ذلك بدهشةٍ واستغراب، ويتساءلون عن ماهية هذه الحاسّة الخامسة الغامضة التي يمتدّ مجال فاعليتها على هذا النحو الواسع. ومهما حاولنا أن نشرح لهم حقيقة البصر وكيفية عمله، فإنّ حديثنا لا يثمر نتيجة تُذكر، ولا يتكوّن في أذهانهم سوى تصوّرٍ غامضٍ ومبهم. فهم، من جهة، لا يستطيعون إنكار وجود هذه الحاسّة، لأنّهم يلمسون آثارها المختلفة ويشاهدون نتائجها في السلوك والمعرفة؛ ومن جهةٍ أخرى،

يعجزون عن إدراك حقيقتها، لأنّهم لم يذوقوا البصر في حياتهم لحظةً واحدة. وعلى هذا النحو، يمكن القول إنّ هناك نوعًا من الإدراك والاتصال بعالم الغيب وبالذات الإلهية، غير أنّنا. لافتقادنا لهذا النمط من الإدراك. نعجز عن الإحاطة بحقيقته؛ إلا أنّنا نؤمن بوجوده من خلال آثاره ودلائله.[1]

١ . مكارم الشيرازي، ناصر، تفسير نمونة، ج٢٠، ص٤٩٧. طهران: نشر دارالكتب الاسلاميه، ١٣٧٩ش.

المقام الثاني: هل يمكن تقديم تفسيرٍ عقلي لظاهرة الوحي؟

لقد سعى الفلاسفة المسلمون، في إطار بيان الإمكان العقلي للوحي وكيفية إثباته من خلال البرهان العقلي، إلى طرح مجموعة من المقدمات، وأكّدوا. على نحوٍ إجمالي. أنّ الوحي عبارة عن اتصالٍ استثنائي وفائق بين نفس النبيّ وعالم الغيب. فبما أنّ روح النبيّ تتمتّع بقوّةٍ خاصّة واستعدادٍ عالٍ، فإنّ علاقتها واتصالها بـ«العقل الفعّال» يكونان في غاية الشدّة والرسوخ. والعقل الفعّال هو ذلك الموجود الذي عُبّر عنه في النصوص الدينية بملك الوحي، أي جبرائيل عليه السلام. وبسبب هذا الاتصال القوي، يتمكّن النبيّ في كثير من الأحيان من تلقّي المعارف على نحوٍ كلّي ومجرّد من العقل الفعّال. ولمّا كانت القوّة الخيالية لدى الأنبياء قويّةً جدًّا، ومع ذلك خاضعةً للقوّة العاقلة، فإنّها تستطيع أن تُلبس تلك الصور الكلّية التي تتلقّاها من العقل الفعّال صورًا حسّية مناسبة، فيراها النبيّ في أفق ذهنه في هيئةٍ محسوسة. فعلى سبيل المثال، إذا كانت تلك الحقائق الكلّية من قبيل المعاني أو الأحكام، فإنّها تتمثّل له في صورة ألفاظٍ بالغة التناسق، في غاية الفصاحة والبلاغة، تصدر عن لسان شخصٍ بالغ الكمال. وبما أنّ القوّة الخيالية للنبيّ تهيمن هيمنةً كاملة على الحسّ المشترك، فإنّها تمنح هذه الصور طابعًا حسّيًا، فيرى النبيّ ذلك الشخص بعينه، ويسمع

ألفاظه بأذنه.[1] وعلى هذا الأساس، فإنّه من الناحية العقلية أمرٌ ممكن تمامًا أن يوجد أشخاصٌ مصطفَون يُطلق عليهم اسم الأنبياء، تكون لهم القابلية والاستعداد لتلقّي هذا النمط من المعرفة، الذي يُسمّى وحيًا، من عالم الغيب، ولا يترتّب على ذلك أيّ محذورٍ أو استحالةٍ عقلية.[2]

١ . حسن‌زاده الآملي، حسن، نصوص الحكم بر فصوص الحكم (فصوص فارابی)، ص١٩٨، طهران: نشر مركز فرهنكي رجاء، ١٣٦٥ش.

٢ . مطهري، مرتضى، مجموعة آثار، ج٢، ص١٥٦، نشر صدرا، ١٣٦٩ش.

المقام الثالث: هل يوجد طريقٌ عقلي لمعرفة الوحي؟

تتعدّد السبل لإثبات الوحي، ومن أبرزها مشاهدة معجزات الأنبياء؛ إذ إنّ الإنسان، عند معاينة المعجزة، يبلغ درجةً راسخة من اليقين والإيمان بأنّ صاحب المعجزة على ارتباطٍ غامض بعالمٍ يتجاوز عالم الطبيعة والحسّ، وأنّه يتلقّى من هناك معارف وحقائق خاصّة. وبسبب هذا الاتصال الاستثنائي، لا يقتصر الأمر على تلقّيه الوحي والمعارف الإلهية فحسب، بل يمتلك أيضًا القدرة على الإتيان بأفعالٍ يعجز سائر الناس عن الإتيان بمثلها، أو عن تقديم معارف من ذلك المستوى.[1]

ومن مجموع ما تقدّم، يتّضح بجلاء أنّه وإن كان الإنسان العادي غير قادر على الإحاطة الكاملة بحقيقة الوحي وماهيّته، إلّا أنّ هناك طرقًا متعدّدة تمكّنه من الإيمان. على أساسٍ عقلي. بإمكان تحقّق ظاهرةٍ تُسمّى الوحي، وأنّ وجودها لا ينطوي على أيّ محذورٍ عقلي، بل تقوم أدلّة عقلية متعدّدة على ضرورتها وصحّتها. وبهذا يتبيّن أنّ إثبات الوحي عبر الطرق العقلية وما شابهها أمرٌ ممكن وميسور تمامًا. صحيحٌ أنّ العقل لا يستطيع إدراك تفاصيل الوحي وجزئياته ولا البرهنة عليها تفصيلًا، غير أنّه قادر على فهم القضايا الكلّية من قبيل ضرورة الوحي وصدق المعجزة، ومن خلال ذلك يتيسّر إثبات الوحي من الناحية العقلية.

١. جوادي الآملي، عبدالله، وحي و رهبري، ص١٥. ٢١، طهران: نشر الزهرا.

المصادر للمزيد من الدراسة:

الجوادي الآملي؛ عبد الله، الوحي والقيادة (المقالة الخامسة)، ص ٢٨٨–٣٧٣، طهران: نشر الزهراء، دون تاريخ.

مكارم الشيرازي؛ ناصر، تفسير نمونه، المجلّد الثالث عشر، ص ١٧٣؛ المجلّد الرابع، ص ٢١٥؛ المجلّد السادس عشر، ص ٧٥، طهران: نشر دار الكتب الإسلامية، ١٣٧٩ هـ. ش.

العلّامة الطباطبائي؛ السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، المجلّد الثاني، ص ١٦٣؛ المجلّد الخامس عشر، ص ٣٤٧؛ المجلّد الثامن عشر، ص ٦، طهران: نشر دار الكتب الإسلامية، ١٣٧٢ هـ. ش.

سبحاني؛ جعفر، الإلهيّات، المجلّد الثالث، ص ١٢٨، قم: نشر مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام، ١٤١٧ هـ. ق.

٢) هل الوحي تابعٌ للنبيّ ﷺ أم أنّ النبيّ تابعٌ للوحي؟ ولماذا؟

من الضروري أولاً توضيح حقيقة الوحي وطبيعته. وعندما تتضح طبيعته، سيتضح أن النبي كان تابعاً خالصاً في تلقي الوحي وتبليغه، ولم يقل شيئاً عن نفسه، وأن آيات القرآن لم تكن من اختراعه، بل هي كلها من عند الله. قال سبحانه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.[١] ففي هاتين الآيتين يصرّح الله تعالى، خطابًا لمشركي مكّة، بأنّ ما يتلوه النبيّ عليهم من القرآن ليس صادرًا عن رأيه أو كلامه الشخصي، وإنّما هو وحيٌ يوحيه الله إليه.

ولو أنّ النبيّ ﷺ أراد على سبيل الافتراء أن ينسب إلى الله قولًا من عند نفسه، فإنّ القرآن الكريم يبيّن بوضوح العاقبة، إذ يقول تعالى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾.[٢]

وفضلًا عن ذلك، فإنّ الله تعالى يأمر نبيّه في القرآن بأن يتّبع ما يوحى إليه فحسب، من دون أدنى انحراف عنه: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾.[٣] كما يصرّح النبيّ ﷺ بنفسه بهذا المعنى، إذ يقول: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾.[٤] وكلّ ذلك يدلّ دلالةً قاطعة على أنّ النبيّ تابعٌ للوحي، لا أنّ الوحي تابعٌ له.

١. سورة النجم، آيات ٣-٤.
٢. سورة الحاقة، آيات ٤٤-٤٦.
٣. سورة يونس، آية ١٠٩/ سورة الأحزاب، آية ٢.
٤. سورة الأنعام، آية ٥٠/ سورة الأحقاف، آية ٩.

حقيقة الوحي وماهيّته

لقد ذُكرت للوحي في اللغة العربية معانٍ متعدّدة، غير أنّ اللغويين يرون أنّ العنصر المشترك بينها هو معنى «الإبلاغ السريع الخفي».[1] وأمّا في الاصطلاح، فيُعرَّف الوحي بأنّه: «إفهام مجموعة من الحقائق والمعارف من قِبل الله تعالى إلى بشرٍ مصطفَين. هم الأنبياء. لهداية الناس، عبر طريقٍ غير الطرق العامّة والمعروفة للمعرفة، كالحسّ والتجربة والعقل والشهود العرفاني، ليقوموا بعد تلقّي هذه المعارف بتبليغها إلى الناس».[2]

ومع ذلك، فإنّه بسبب عدم معايشتنا لهذا النمط من الظواهر، لا يمكننا أبدًا الوقوف على حقيقة هذا الحدث السرّي، أي الوحي التشريعي الخاصّ بالأنبياء. ذلك أنّنا نتعامل هنا مع ظاهرةٍ تفتقد خاصّية التكرار، ولا يمكن تحت أيّ ظرفٍ من الظروف إخضاعها للمشاهدة المباشرة أو للتجربة والاختبار. ومن الطبيعي، في مثل هذه الحالة، أن نعجز عن الإحاطة بحقيقتها على نحوٍ مباشر. وعليه، فإنّ حدود معرفتنا بظاهرة الوحي التشريعي وبآلية تلقّي الرسالة من عالم الغيب، لا تتجاوز ما نلمسه من آثارها وعلاماتها ونتائجها، ولا سبيل لنا إلى معرفتها إلّا من هذا الطريق وحده.

١. الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات الفاظ القرآن، ص٨٥٨ / الجوهرة، إسماعيل بن حماد، الصحاح، ج٦، ص٢٥١٩ / الفيروز آبادي، القاموسى المحيط، ج٤، ص٣٩٩.

٢. مصباح اليزدي، راهنماشناسي، ص١٠، مركز مديريت حوزة علمية، الدورة ١، ١٣٦٧ ش،

كيفية تلقّي الوحي

يتّفق المتخصّصون في علوم القرآن والمفكّرون المسلمون[1] على أنّ ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه، وكذلك نظمه وبنيته، كلّها من صُنع الوحي الإلهي ومن فعل الله تعالى، وأنّ النبيّ الأكرم ﷺ لم يكن له أيّ دور في إنشائها، ولم يُنقِص منها كلمةً ولم يَزِد. وإنّما كان ﷺ موضع نزول الوحي، ووعاء تلقي القرآن، والمبلّغ الأمين للوحي الإلهي إلى الناس من دون زيادة أو نقصان. وحصيلة هذا الاتصال الغيبي وهذه الرسالة السماوية هي الدين الإلهي والكتاب السماوي اللذان قدّمهما للمجتمع الإنساني.

وقد كان الروح السامية المباركة للنبيّ ﷺ تتلقّى حقيقة الوحي عبر ثلاثة أساليب[2]:

الوحي المباشر: وفي هذا النمط، تتنزّل الحقائق والمعارف الإلهية مباشرةً على قلب النبيّ، من دون واسطة أو حجاب، ويُعدّ هذا اللون من الوحي. على الأرجح. أشدّها وأثقلها تحمّلًا.

الوحي من وراء حجاب: وفي هذه الطريقة، تصل المعارف الإلهية إلى سمع النبيّ عبر صوتٍ يُخلق في شيءٍ معيّن،

١ . خرمشاهي، بهاءالدين، دانشنامة قرآن، ج٢، ذيل كلمة وحى، انتشارات دوستان.

٢ . . إشارة الى آية ٥١ سورة الشورى: وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ

كالشجرة أو نحوها، من غير أن يُرى شخص المتكلّم، وإنّما يكون الأمر كأنّ خطابًا يصدر من وراء ستر.

الوحي بواسطة المَلَك: وفي هذا النمط يبعث الله تعالى مَلَكًا، فيتولّى إبلاغ الحقائق الإلهية إلى سمع النبيّ وقلبه.

النتيجة:

من خلال اتّضاح حقيقة الوحي وكيفية تلقّي النبيّ له، يتبيّن بوضوح أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله ليس إلّا متلقّيًا للوحي وتابعًا لما يُوحى إليه، ولا يضيف إلى تلك المعارف شيئًا من عنده. كما أنّه مكلّف بتبليغ هذه المعارف الإلهية إلى الناس، تحقيقًا لهدايتهم وسعادتهم. وأبرز شاهدٍ على ذلك هو استحالة الإتيان بمثل هذه المعارف، بما تحمله من خصائص وعمق وشمول، اعتمادًا على القدرات والإمكانات البشرية وحدها. وقد أكّد النبيّ صلى الله عليه وآله بنفسه هذا المعنى في آياتٍ متعدّدة، حيث نسب الوحي صراحةً إلى الله تعالى، وعرّف نفسه بأنّه مجرّد مأمور وواسطة في نقل الرسالة الإلهية، لا يملك القدرة على تغيير حقيقتها أو التصرّف فيها، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾[1]، أي قل: ليس لي أن أغيّره من عند نفسي، وإنّما أتّبع ما يُوحى إليّ فحسب.

١ . سورة يونس، آية ١٥.

المصادر للمزيد من الدراسة:

راجع: سعيدي روشن؛ محمد باقر، تحليل الوحي، دون مكان: منشورات مؤسّسة الفكر الثقافية، دون تاريخ.

٣) هل تُعدّ جميع أقوال النبيّ ﷺ وحيًا استنادًا إلى الآيات (٣-٥) من سورة النجم؟ وهل كان كلامه العادي أيضًا وحيًا؟

لا بدّ أوّلًا من الوقوف على معنى «الوحي». فالوحي في اللغة يعني تفهيم أمرٍ ما إلى المخاطَب على نحوٍ خفيّ وسرّي، وبطريقةٍ رمزية، بحيث لا يدرك حقيقة هذا التفهيم إلّا المتكلّم والمخاطَب وحدهما. ولهذا يطلق العرب على الكلام الرمزي لفظ «الإيحاء». وفي مواضع عديدة من القرآن الكريم استُخدم لفظ «الوحي» بهذا المعنى اللغوي. فمن ذلك ما ورد في سورة الأنعام حيث يقول تعالى إنّ ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾[١]، أي يُلقون إليهم الأفكار خفيةً من دون أن يشعر غيرهم بذلك. وكذلك استُعمل هذا اللفظ في شأن الحيوانات، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾[٢]، حيث يُراد به. على الأرجح. الغريزة التي أودعها الله في النحل، ولمّا كان في ذلك تفهيمٌ وتعليم، عُبّر عنه بالوحي. ومثل هذا الاستعمال نجده أيضًا في الحديث عن الأرض[٣]، وكذلك في شأن غير الأنبياء من البشر، كأمّ موسى عليه السلام في قوله تعالى:

١. سورة الأنعام، آية ١٢١.
٢. سورة النحل، آية ٦٨.
٣. سورة الزلزلة، آية ٤.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾[1]، وفي شأن الحواريّين.[2] ولا شكّ أنّ المراد في جميع هذه الموارد هو المعنى اللغوي للوحي، أي مجرّد التفهيم والإلقاء الخفي.

غير أنّ للوحي معنىً آخر اصطلاحيًا يُستعمل في علم الكلام، وهو: «إفهامٌ خاصّ من جانب الله سبحانه لعبدٍ مصطفًى كلّفه بمهمّة هداية الناس». وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾[3]. وعند الرجوع إلى الآيات محلّ البحث، ينبغي التدقيق في أيٍّ من هذين المعنيين هو المقصود. فالآية التي تسبق قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾[4] تتحدّث عن نفي الضلال والانحراف عن النبيّ صلى الله عليه وآله، إذ يقول سبحانه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾[5]، أي إنّ صاحبكم، محمدًا صلى الله عليه وآله، لم يضلّ الطريق ولم ينحرف عن الحقّ، بل هو ثابت على الصراط المستقيم.

ولتأكيد هذه الحقيقة، ولا سيّما في مواجهة ما كان يردّده المشركون من اتّهامه بالجنون أو الشعر أو الكهانة، يبيّن الله تعالى أنّ ما يتعلّق بأمر الدين وهداية الناس ليس صادرًا عن هوى النفس أو الرأي الشخصي، فيقول: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ

١. سورة القصص، آية ١٥.
٢. سورة المائدة، آية ١١١.
٣. سورة الشوري، آية ٥١. مصباح يزدي، محمد تقي، اصول عقايد (٢). راهنما شناسي، ص١٨.٢٦، ط١، قم: مركز مديريت حوزة علمية قم: طافست، ١٣٨٠ش.
٤. سورة النجم، آية ٣.
٥. سوره نجم، آيه ٢.

﴿الْهَوَىٰ﴾[1]، لأنّ منبع الضلال كلّه هو اتّباع الهوى، كما يصرّح القرآن: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.[2]

ثمّ يوضّح المقصود على نحوٍ قاطع بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، أي إنّ هذا الذي يتلوه عليكم. وهو القرآن. ليس إلّا وحيًا من عند الله سبحانه أُنزِل عليه.[3] فالنبيّ صلى الله عليه وآله لا يتكلّم في هذا المقام من تلقاء نفسه، وليس القرآن نتاج فكره أو صنعه، بل هو كلام الله تعالى المنزل عليه.[4] وبذلك يتّضح أنّ المراد من الوحي في هذه الآيات هو الوحي التشريعي المرتبط بالقرآن وبشؤون الهداية والدين، لا أنّ كلّ كلامٍ عادي يصدر عن النبيّ صلى الله عليه وآله في شؤون حياته اليومية يُعدّ وحيًا بالمعنى الاصطلاحي الخاص.

ويؤيّد هذا المعنى أيضًا ما جاء في الآية اللاحقة، إذ يقول تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾[5]، أي إنّ «شديد القُوى» هو الذي علّمه. وقد ورد في التفاسير أنّ المقصود بـ«شديد القُوى» هو جبرئيل[6] عليه السلام، أي إنّ الذي جاء بالقرآن وعلّمه للنبيّ صلى الله عليه وآله هو جبرئيل. وبهذا يتّضح أنّ هذه الآيات من سورة النجم ناظرةٌ إلى القرآن الكريم تحديدًا، وأنّها نزلت في مقام الردّ على المشركين،

١. سورة النجم، آية ٢.
٢. سورة ص، آية ٢٧.
٣. سورة النجم، آية ٤.
٤. مكارم شيرازي، ناصر، تفسير نمونة، ج٢٢، ص ٤٨٨ ـ ٤٩٠، ط ٢٨، طهران: انتشارات دار الكتب الاسلامية، ١٣٨٦ ش.
٥. سورة النجم، آية ٣.
٦. سورة النجم، آية ٢

لتصرّح بوضوح أنّ ما جاء به النبيّ صلى الله عليه وآله إنّما هو تعليم إلهي بواسطة جبرئيل، وأنّ الكلام منحصر في القرآن لا غير.

وعلى هذا الأساس، يمكن تصنيف أقوال النبيّ صلى الله عليه وآله إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: الأقوال التي يكون لفظها ومعناها كلَيهما من عند الله سبحانه وتعالى، وهذا هو حال القرآن الكريم.

الثاني: الأقوال التي يكون معناها من عند الله تعالى، أمّا ألفاظها وعباراتها فهي من إنشاء رسول الله صلى الله عليه وآله، ويشمل هذا القسم الأحاديث القدسية، وكذلك الأحاديث المتعلّقة بأحكام الدين الإسلامي.

الثالث: الأقوال العادية واليومية للنبيّ صلى الله عليه وآله، كتحيّاته، وتعاملاته العاطفية مع أهله وأولاده، وأحاديثه الاعتيادية مع الناس في شؤون الحياة اليومية.

وبناءً على هذا البيان، ووفقًا لسياق الآيات وتفسيرها، يتّضح أنّ الآيات محلّ البحث لا تتكفّل إلّا ببيان القسم الأوّل، أي إنّ هذا القرآن الذي جاء به النبيّ صلى الله عليه وآله صادرٌ من عند الله تعالى وحده، وليس من عند نفسه. صحيحٌ أنّ القسم الثاني من أقواله يُطلق عليه أيضًا «وحي»، ولكن بالمعنى اللغوي الذي تقدّم شرحه، أي من حيث إنّه يتضمّن تفهيمًا وتعليمًا إلهيًا، لا بالمعنى الاصطلاحي الخاصّ للوحي التشريعي. ومن هذه الجهة يمكن القول إنّ تلك المعاني أيضًا من عند الله.

أمّا القسم الثالث من أقواله ﷺ، وهو محلّ السؤال، فليس وحيًا، وهو صادرٌ عنه بوصفه إنسانًا يعيش حياةً طبيعية بين الناس، وهذه الآيات لا تهدف أصلًا إلى بيان شمول الوحي لهذا النوع من الكلام. إذ لا يعقل أن تكون الأحاديث اليومية، أو عبارات التحية، أو شؤون المعاشرة الاعتيادية، قد نزل بها جبرئيل على نحو الوحي.

والمتيقَّن أنّ الوحي كان يتحقّق في حالاتٍ وأزمنةٍ خاصّة، في حين أنّ النبيّ ﷺ كان على الدوام في تواصلٍ مباشر مع الناس، يتحدّث إليهم ويعيش بينهم. ومع ذلك، يبقى أمرٌ ثابت لا ريب فيه، وهو أنّه بحكم عصمته ﷺ، لم يصدر عنه قولٌ. ولو في أدقّ شؤون حياته. بدافع الشهوة أو الغضب، بل كان كلّ ما يصدر عنه محلّ رضى الله سبحانه وتعالى. ومن هذه الجهة، فإنّ جميع أقواله وأفعاله، حتّى الشخصية والخاصّة منها، منسجمة مع الهداية الإلهية ومؤيَّدة بروح الوحي، وإن لم تكن وحيًا تشريعيًا بالمعنى الاصطلاحي الدقيق.

المصادر للمزيد من الدراسة:

معرفت؛ محمد هادي، علوم قرآنية.

مصباح يـزدي؛ محمد تقي، أصـول العقائد (٢): معرفة الدليل والمرشد.

التفاسير الـواردة ذيل الآية الشريفة، مثل تفسير نمونه والميزان في تفسير القرآن.

٤) هل يُحتمل أن يكون النبيّ الأكرم ﷺ لم يُبلّغ قولَ الله كاملًا إلى الناس؟

إنّ القرآن الكريم، منذ لحظة صدوره من عند الله تعالى إلى حين إبلاغه إلى الناس، يمرّ بمراحل متعدّدة. ووفقًا للنصوص القرآنية، فإنّ الوحي الإلهي محفوظ في جميع هذه المراحل من أيّ تدخّل أو تصرّف، ولا يطرأ عليه أيّ تغيير أو تحريف. ويمكن بيان هذه المراحل على النحو الآتي:

مرحلة الإرسال الإلهي: ينزل القرآن من عند الله تعالى بواسطة جبرئيل الأمين، وقد وُكِّلت ملائكة آخرون بحفظه وصيانته، كي لا يقع فيه أيّ تصرّف. يقول الله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾[1]، أي إنّ الله، العالم بالغيب، لا يطلع أحدًا على غيبه إلّا من ارتضاه من رسله، فيُحيط وحيه بالحفظ والحراسة من أمامه ومن خلفه. وبإذن الله تعالى، ينزل الروح الأمين بالقرآن على قلب النبيّ ﷺ، كما في قوله سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.[2]

مرحلة تلقّي النبيّ للوحي: يتلقّى النبيّ ﷺ القرآن كما أُنزل عليه من عند الله، من دون أيّ زيادة أو نقصان، وهو في هذه المرحلة معصومٌ من كلّ خطأ أو تصرّف. قال تعالى:

١. سورة الجن، آيات ٢٦ و ٢٧.
٢. سورة الشعراء، آيات ١٩٣ و ١٩٤.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[1]، أي إنّ إلقاء القرآن إليه يتمّ مباشرةً من لدن الإله الحكيم العليم.

مرحلة الحفظ وعدم النسيان: في هذه المرحلة يحفظ النبيّ صلى الله عليه وآله ما تلقّاه من الوحي حفظًا تامًّا، فلا يعتريه نسيان ولا سهو. يقول الله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾.[2] وهذا الاستثناء لا يدلّ على إمكان النسيان، بل يؤكّد أنّه لا يمكن لأيّ عامل أن يُنسي النبيّ شيئًا من الوحي، إلّا لو تعلّقت بذلك مشيئة الله، وقد تفضّل الله عليه بالعصمة، فلا يقع منه نسيان في تبليغ الرسالة.

مرحلة البيان والتعليم للناس: في هذه المرحلة، يقوم النبيّ صلى الله عليه وآله بإنشاء الخطاب وتعليم الناس ما أُوحي إليه، وهو مصون من الزلل، سواء كان زللًا لسانيًا أو سهوًا أو نسيانًا، ولا يقع في كلامه أيّ نقص أو زيادة. قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.[3] وتمنح هذه الآية حصانةً عامّة لمجموع أقوال النبيّ صلى الله عليه وآله، سواء أكانت قرآنًا أم بيانًا دينيًا في إطار السنّة. وبذلك لا يكون النبيّ صلى الله عليه وآله معصومًا في تبليغ القرآن فحسب، بل هو معصوم أيضًا في بيان الدين من خلال الحديث. ومن ثمّ، فإنّ عصمة النبيّ صلى الله عليه وآله تقتضي بالضرورة أنّ الوحي الإلهي قد وصل إلى

١. سورة النمل، آية ٦.
٢. سورة الأعلى، آيات ٦ و٧.
٣. سورة النجم، آيات ٣ – ٤. جوادي الآملي، عبدالله، تفسير موضوعي قرآن مجيد، ج٩، ص٢٩، ط١، قم: نشر الأسراء، ١٣٧٤ ش.

الناس سالمًا من أيّ خدش أو تحريف، وأنّ كلّ ما قام به في مجال التبليغ والتعليم كان مؤيَّدًا بالوحي الإلهي، ومطابقًا لإرادة الله تعالى، من غير زيادة ولا نقصان.

المصادر للمزيد من الدراسة:

الطباطبائي؛ محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، المجلّد الثاني، ص ٢٠٠، ترجمة: السيد محمد باقر موسوي همداني، قم: مكتب النشر الإسلامي، دون تاريخ.

سبحاني؛ جعفر، المنشور الخالد، المجلّد العاشر، ص ١٤٩، قم: مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام، سنة ١٣٧٠ هـ. ش.

مكارم الشيرازي؛ ناصر، رسالة القرآن، المجلّد السابع، ص ١٧٥، الطبعة الثانية، قم: مطبوعات هدف، ١٣٧٤ هـ. ش.

٥) كيف كان النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله يدرك أنّ الموجود الغيبي المُلهِم له، أو المتكلّم بالقرآن، هو الله خالق العالم؟

يُعَدّ السؤال عن كيفية تشخيص الأنبياء لكون ما يتلقّونه وحيًا إلهيًا من أهمّ الأسئلة في مبحث الوحي. وللإجابة عنه، وبالنظر إلى ما ورد في السؤال من مساواةٍ بين الوحي والإلهام، لا بدّ أوّلًا من توضيح حقيقة كلٍّ من الوحي والإلهام، وبيان الفارق الجوهري بينهما.

تعريف الوحي

قُدّمت للوحي في الاصطلاح الإسلامي تعريفات متعدّدة، غير أنّ الإحاطة بحقيقته على نحوٍ تامّ لا تتيسّر إلّا لمن شملتهم هذه العناية الإلهية، أي الأنبياء أنفسهم. ومع ذلك، فإنّ مجموع الآيات القرآنية، وما ورد في كلمات الأنبياء والأئمّة عليهم السلام، يدلّ بوضوح على أنّ الوحي هو تفهيمٌ خاصّ لمعرفةٍ ومعارف من قِبل الله تعالى إلى أنبيائه، ليقوموا بتبليغها للناس وهدايتهم على أساسها.[1]

تعريف الإلهام

أمّا الإلهام، فإنّ مفهومه يبقى. هو الآخر. غير واضح تمامًا لمن لم يختبره، بسبب عدم المعايشة المباشرة له. وقد شبّه بعض الباحثين في علوم القرآن الإلهامَ بالإحساس

١ . معرفت، محمد هادي، التمهيد في علوم القرآن، ج١، ص ٥١، قم: موسسة النشر الاسلامي / سبحاني، جعفر، الالهيات، ج٣، ص ١٢٨، قم: المركز العالمي للدراسات الاسلامي.

بالجوع، إذ يدركه الإنسان في باطنه إدراكًا يقينيًا، من دون أن يكون على معرفةٍ بمصدره أو بكيفية نشأته، ومع ذلك يدفعه هذا الإحساس إلى سلوكٍ معيّن.[1] وبناءً على ذلك، يمكن القول إنّ الإلهام نوعٌ من الإفاضة الإلهية على قلب الإنسان، غير أنّ مصدره لا يكون واضحًا ومحدّدًا عند المتلقّي.

الفرق بين الوحي والإلهام

في ضوء التعريفين المتقدّمين، يتّضح أنّ الوحي والإلهام، وإن اشتركا في كونهما نوعًا من الإفاضة غير الحسّية، إلّا أنّ بينهما فروقًا جوهرية. فالوحي من الخصائص الحصرية للنبوة، في حين أنّ الإلهام قد يقع لبعض الأشخاص المميّزين من غير الأنبياء أيضًا. كما أنّ مصدر الوحي يكون معلومًا وواضحًا لدى النبيّ على الدوام، إذ يدرك بوضوح أنّ الله تعالى هو الذي يوحي إليه، أمّا الإلهام فلا يكون مصدره بهذه الدرجة من الجلاء.[2]

ولهذا السبب، فإنّ متلقّي الإلهام. إذا لم يكن معصومًا. لا يملك يقينًا كاملًا بمصدر ما يُلقى في قلبه، ولا يعلم على وجه الدقّة من أين جاءه هذا الإلهام ولا بأيّ كيفية، بخلاف النبيّ، الذي يتلقّى الوحي في إطار علمٍ وشعورٍ واضحين بصدوره من الله تعالى.

١ . رشيد رضا، سيد محمد، الوحي المحمدي، ص ٨، انتشارات الزهراء.
٢ . شيرازي، صدر الدين محمد، مبدأ و معاد، ص ٦٠٨، انجمن فلسفه ايران، ١٣٥٤ش.

وبعد هذا البيان للمباحث المتقدّمة، يمكن الإجابة عن السؤال المطروح على النحو الآتي:

إنّ الأنبياء، من خلال المجاهدة الروحية والعناية الإلهية الخاصّة، ربّوا نفوسهم تربيةً سامية، بحيث تحقّق بينهم وبين المعارف والحقائق الإلهية نوعٌ من التلاقي والاتصال، فأصبحوا يدركونها بعين القلب، ويشاهدونها مشاهدةً باطنية. وهم يتلقّون إلهيّة المعارف التي تُلقى إليهم إدراكًا حضوريًا وشهوديًا، والعلم الحضوري والشهودي بطبيعته لا يحتمل الخطأ ولا يتطرّق إليه الوهم. ولهذا فإنّ ارتباط المعارف الوحيانية بمصدرها الإلهي يكون عند الأنبياء في غاية الوضوح والجلاء، إلى درجة أنّهم لا يشكّون أبدًا في وحيانية ما يتلقّونه، ولا يعتريهم أدنى تردّد في كونه صادرًا عن الله تعالى.

كما يستفاد من الآيات والروايات أنّ تلقّي الوحي يتمّ على نحوٍ لا يترك مجالًا للشكّ أو الارتياب لدى الأنبياء في إلهيّته. فعلى سبيل المثال، سُئل الإمام الصادق عليه السلام: «كيف يعلم الأنبياء أنّهم أنبياء؟» فقال: «كُشِفَ عنهم الغِطاء»[1]، أي إنّ الحجب تُرفع من أمام بصائرهم. وسُئل عليه السلام أيضًا: «كيف لم يخف رسول الله صلى الله عليه وآله أن يكون ما ينزل عليه بوصفه وحيًا إلهيًا من إلقاءات الشيطان؟» فأجاب: «إنّ الله إذا اتّخذ عبدًا رسولًا

١ . المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج١١، ص٥٦.

أنزل عليه السكينة والوقار، فيأتيه من قبل الله عزّ وجلّ ما يكون عنده كأنّه يراه بعينه»[1]، أي إنّ الله تعالى يمنحه طمأنينةً وسكونًا يرفعان عنه كلّ اضطراب، فيغدو ما ينزل عليه من عند الله في منتهى الوضوح، كالمشاهدة العيانية.

وفضلًا عن ذلك، فإنّ ما يتلقّاه الأنبياء من معارف لا يتعارض مع الفطرة الإنسانية السليمة، بل يكون سببًا لهداية الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة، وهو بحدّ ذاته شاهدٌ واضح على أنّ هذه المعارف إلهية المصدر، وأنّ الله تعالى قد كلّف الأنبياء بتبليغها لهداية عموم البشر.

وبناءً على ما تقدّم، يتّضح أنّ الأنبياء يدركون المعارف الوحيانية وارتباطها بمصدرها الإلهي إدراكًا شهوديًا حضوريًا، بوجدانهم الباطني وبصيرة قلوبهم، ولا يساورهم أيّ شكّ. ولو بمقدار ذرة في إلهيّة ما يتلقّونه من وحي.

المصادر للمزيد من الدراسة:

سعيدي روشن؛ محمد باقر، تحليل الوحي من منظور الإسلام والمسيحية، دون مكان: مؤسّسة الفكر الثقافية.

كريمي؛ مصطفى، دراسة الوحي (وحي‌شناسي)، مؤسّسة الإمام الخميني التعليمية والبحثية قدس سره.

١. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج١٨، ص٢٦٢.

٦) هل كان النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله شخصيّةً عبقريةً فذّة، وكان القرآن ثمرة عبقريّته؟

إنّ الجواب عن هذا السؤال يمرّ بمرحلتين:

١: النبوّة وتمييزها عن العبقريّة

يحاول بعضهم تفسير النبوّة ونزول الوحي تفسيرًا ينسجم. في نظرهم. مع المبادئ العلمية المعاصرة التي يتركّز اهتمامها في الغالب على عالم المادّة، فيذهبون إلى القول بأنّ «النبوّة نوعٌ من العبقريّة، وأنّ ثمرة هذه العبقريّة هي الوحي». ويعتقد أصحاب هذا الرأي أنّ في البشر أفرادًا يمتلكون فطرةً سليمةً وعقلًا منيرًا، يقودانهم إلى تشخيص ما فيه صلاح المجتمع وسعادة الإنسان، فيضعون. لأجل تنظيم شؤون المجتمع وعمارة الدنيا. قوانين خاصّة يُطلق عليها اسم «الشرائع»، وأنّ الشخص الذي يتمتّع بهذا الاستعداد والتميّز يُسمّى نبيًّا، أمّا الوحي فليس سوى نتاج الفكر الصالح المنبثق من عقل هذا الشخص وعبقريّته.[١]

غير أنّ الجواب عن هذا التصوّر هو أنّ قبوله يؤدّي عمليًا إلى إفراغ الإيمان بالغيب من مضمونه، فلا يبقى منه سوى الإيمان بوجود الله تعالى، أمّا سائر ما جاء به الأنبياء فيُردّ إلى أفكارهم الشخصية، ويُصبح. من حيث المبدأ. عرضةً للخطأ والصواب.[٢]

١ . سبحاني، جعفر، الالهيات، شيخ حسن محمد مكي، ج٣، ص١٣١ الي ١٣٢، ط ٣، مركز جهاني دراسات اسلامي، ١٤١٢ ق.

٢ . سبحاني، جعفر، الالهيات، شيخ حسن محمد مكي، ج٣، ص ١٣٣، ط ٣، مركز جهاني دراسات اسلامي، ١٤١٢ ق.

وثانيًا، إنّ علماء النفس، في تحليلهم لظاهرة العبقريّة، يذكرون عوامل محدّدة لظهورها وتبلورها، من قبيل الحبّ الشديد، والعزلة، ونمط التربية والتعليم الأوّلي في مرحلة الطفولة.[1] في حين أنّ هذه العوامل لم تكن متوفّرة في حياة كثيرٍ ممّن ادّعوا النبوّة، الأمر الذي يمنع من تصنيفهم في إطار العبقريّات بالمعنى النفسي المتعارف.

وثالثًا، إنّ التاريخ يشهد بوجود فئتين من الشخصيّات التي سعت إلى قيادة المجتمعات نحو السعادة والكمال. فالفئة الأولى كانت تُرجع جميع تعاليمها إلى عالم الغيب، ولا ترى لنفسها شأنًا إلّا كونها واسطةً في تبليغ أوامر الله، ورسولًا وسفيرًا عنه. أمّا الفئة الثانية فكانت تُنسب تعاليمها كلّها إلى الفكر الإنساني والعقل البشري، وتسعى إلى تدعيمها بالأدلّة العقلية والتاريخية والاجتماعية. ومن الواضح أنّه لا يمكن مساواة هاتين الفئتين، إذ لو كانت تعاليمهما صادرةً عن منبعٍ واحد هو الذهن البشري، لما اختلفت دعاواهما هذا الاختلاف الجذري، ولما امتنع أحدهما عن ادّعاء ما ادّعته الأخرى.[2]

ورابعًا، إنّ إحدى هاتين الفئتين. وهي فئة الأنبياء. كانت تسعى إلى إثبات صدق دعواها على مستوى شامل وعام،

١ . سبحاني، جعفر، الالهيات، شيخ حسن محمد مكي، ج٣، ص١٣٥، ط ٣، مركز جهاني دراسات اسلامي، ١٤١٢ق.

٢ . سبحاني، جعفر، الالهيات، شيخ حسن محمد مكي، ج٣، ص ١٣٤ الي ١٣٥، ط ٣، مركز جهاني دراسات اسلامي، ١٤١٢ق.

ولذلك كانت تستند إلى المعجزة بوصفها دليلًا على صحّة الرسالة. أمّا الفئة الأخرى فكانت تحاول إقناع المخاطَبين عبر إقامة أدلّة مستقلّة على كلّ واحدة من أفكارها وتعاليمها. ومن الواضح أنّ هذين المسلكين متغايران في الجوهر، ولا يمكن الجمع بينهما أو اعتبارهما وجهين لظاهرة واحدة.

وعليه، يتّضح أنّ الفارق بين النبيّ والعبقريّ فارقٌ عميق وأساسي. وقد أُحصيت في بعض المؤلّفات[1] عشرات الخصائص التي تميّز النبيّ عن العبقريّ، وقد بلغت. كما نُقل. أكثر من ثمانين سمة. وكما قال الشهيد الدكتور باك‌نژاد رحمه الله: «إنّي على يقينٍ أنّ أحدًا لا يستطيع إنكار جميع هذه الخصائص، ويكفي الإقرار بواحدةٍ منها لإثبات أنّ النبيّ لا يمكن اختزاله في مجرّد عبقريّ.»[2].

٢. ولأجل التحقّق ممّا إذا كان القرآن وحيًا إلهيًا حقًّا أم مجرّد نتاجٍ ذهنيّ لإنسانٍ عبقري، ثمّة طريقان:

الطريق الأوّل: أن نبحث في شخصيّة النبيّ محمد صلى الله عليه وآله نفسها، هل كان نبيًّا حقًّا أم إنسانًا عبقريًا فحسب؟ فإذا ثبت أنّه لم يكن عبقريًا بالمعنى المتعارف، ولم يتلقَّ تعليمًا بشريًا، بل كان نبيًّا مرسَلًا، فإنّ هذا. مضافًا إلى مقدّمةٍ أخرى، وهي لزوم عصمة الأنبياء. يفضي إلى إثبات أنّ القرآن، كما

١ . پاک نژاد، سید رضا، اولین دانشکاه و آخرین پیامبر، ج١١، ص ۴ الي ۴۴، انتشارات اسلامية، ١٣٥٠ش.

٢ . پاک نژاد، سید رضا، اولین دانشکاه و آخرین پیامبر، ج۴، ص٨٢، انتشارات اسلامية، ١٣٥٠ش.

ادّعى النبيّ ﷺ، وحيٌ إلهيّ خالص، بل إنّ نظم ألفاظه وتركيب عباراته أيضًا من عند الله تعالى. ويؤيّد ذلك أنّ النبيّ ﷺ كان ينقل عن الله تعالى معاني أخرى في غير القرآن، تُعرف بالأحاديث القدسية، ومع أنّها منسوبة إلى الله من حيث المعنى، فإنّها لا تتمتّع بذلك النسق البياني الخاصّ، ولا بذلك التركيب الفريد والعذوبة المميّزة التي يتّصف بها القرآن الكريم.

الطريق الثاني: الرجوع إلى مضامين القرآن نفسه. ففي القرآن آيات عديدة تُقيم الدليل على حقّانيّته وإلهيّته، ونشير هنا إلى نماذج منها:

لقد دعا القرآن المشركين مرارًا إلى التحدّي والمبارزة:

أ) قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]، أي إن كنتم تشكّون في حقّانيّة القرآن، فاجمعوا من استطعتم، وائتوا بسورةٍ واحدة تماثله. ثمّ يبيّن القرآن أنّ عجزهم عن ذلك ليس عجزًا عارضًا، بل هو عجزٌ ذاتيّ نابع من عدم القدرة.[2]

ب) وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[3]،

---

١ . سورة البقرة، آية ٢٣.
٢ . سورة البقرة، آية ٢٤.
٣ . سورة هود، آية ١٣.

فهم يدّعون أنّ القرآن افتراء، فيتحدّاهم الله أن يأتوا بعشر سورٍ مثله[1]، ولو كانت مفتراة. ثمّ يصرّح بعد ذلك بأنّ عجزهم عن الاستجابة لهذا التحدّي دليلٌ على أنّ ما أُنزل إنّما أُنزل بعلم الله، وأنّه لا إله غيره.[2]

ج) وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[3]، أي إنّهم يزعمون أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله نسب هذه الكلمات إلى الله من عند نفسه، والحقيقة أنّهم لا يؤمنون، فليأتوا. إن كانوا صادقين. بكلامٍ يماثل القرآن.

د) وقال عزّ وجلّ أيضًا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[4]، ومضمون هذه الآية. كسابقاتها. هو التحدّي بالإتيان بسورةٍ واحدة تماثل القرآن الكريم.

ومن مجموع هذه الآيات يتبيّن أنّ القرآن لا يكتفي بادّعاء الإلهيّة، بل يجعل من ذاته ميدانًا للتحدّي المفتوح، ويقرن دعواه بعجزٍ دائم ومطلق عن الإتيان بمثله، وهو ما يشكّل برهانًا داخليًا على أنّه ليس نتاج عبقريّة بشرية، بل وحيٌ صادر عن الله تعالى.

١. سورة هود، آية ١٤.
٢. سورة الطور، آية ٣٣.
٣. سورة يونس، آية ٣٨.
٤. سورة النساء، آية ٨٢.

لقد مضت أربعة عشر قرنًا والقرآن الكريم يتحدّى البشر ويدعوهم إلى المعارضة، ومع ذلك لم يتمكّن أحد، إلى يومنا هذا، من الاستجابة لهذا التحدّي. فلو كان هذا الكتاب نتاج فكر إنسانٍ عبقري، لكان السؤال المطروح أوّلًا: لماذا عجز الناس عن الإتيان بمثله طوال هذه المدّة الطويلة، على الرغم من ظهور عباقرة كثيرين في مختلف العصور؟

وثانيًا: أيّ عبقري يمكن العثور عليه يملك من الجرأة واليقين ما يجعله يصرّح، بهذه الصراحة والاطمئنان، بأنّ أحدًا لن يكون قادرًا على الإتيان بكلامٍ يماثل كلامه؟

وهناك آية أخرى في القرآن الكريم تشكّل شاهدًا بيّنًا على حقّانيّته، وهي قوله تعالى:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

تتضمّن هذه الآية استدلالًا عقليًا واضحًا على صدق القرآن، ومفاده أنّ هذا الكتاب لو كان من صنع إنسان، ولم يكن منسوبًا إلى الله تعالى، لكان حريًّا أن يشتمل على اختلافات وتناقضات كثيرة؛ إذ لا يخلو أيّ إنسان مهما بلغ من العبقرية. من الوقوع في التناقض. فإذا كان القرآن نتاج الذهن البشري، لكان مليئًا بالاختلاف والتعارض، والحال أنّه خالٍ من ذلك كلّه، ممّا يكشف بوضوح عن كونه صادرًا من عند الله تعالى.

وفي ختام هذا البحث، نورد قضيّةً معبّرة نُقلت عن أبي

علي ابن سينا، العبقري الإسلامي الكبير، وأحد تلامذته. فقد رُوي أنّ ابن سينا كان في ليلةٍ شتوية باردة مع أحد طلابه في غرفة واحدة، فقال له التلميذ: لماذا لا تدّعي النبوّة؟ فلو ادّعيتها لآمن بك كثير من الناس. فلم يُجبه ابن سينا آنذاك. ولمّا اقترب وقت أذان الفجر، أيقظ تلميذه وطلب منه أن يخرج ليأتي بقليلٍ من الماء، فاعتذر التلميذ ببرودة الجوّ وامتنع عن الخروج. وفي تلك اللحظة ارتفع صوت الأذان من المئذنة، فالتفت ابن سينا إلى تلميذه وقال له: هل سمعت صوت الأذان؟ أنا أستاذك، وأنت تعرف قدري ومكانتي، ومع ذلك لم تُطعني واحتججت ببرودة الطقس، في حين أنّ هذا المؤذّن لم يرَ نبيّه قط، ومع ذلك لم يمنعه البرد من الصعود إلى المئذنة لأداء مهمّته.

وتكشف هذه القصّة بوضوح عن الفارق الجوهري بين العبقرية البشرية، مهما بلغت، وبين مقام النبوّة والرسالة، وعن أنّ القرآن لا يمكن أن يكون ثمرة نبوغٍ إنساني، بل هو وحيٌ إلهيّ صادر عن الله تعالى.

المصادر للمزيد من الدراسة:

باك‌نجاد؛ السيد رضا، أوّل جامعة وآخر نبيّ، المجلّد الحادي عشر، ص ۴-۴۴، طهران: منشورات الإسلاميّة، ۱۳۵۰ هـ. ش.

المصدر نفسه، أوّل جامعة وآخر نبيّ، المجلّد الرابع، ص ۸۲-۱۰۰.

سبحاني؛ جعفر، الله والأنبياء، ص ۸۳-۱۰۷، قم: منشورات التوحيد، ۱۳۵۹ هـ. ش.

أظهري؛ علي، علم نفس الفنان، ص ۶۱-۷۶ (تعريف العبقريّة)، طهران: نشر المؤلّف، ۱۳۷۴ هـ. ش.

قرائتي؛ محسن، النبوّة، ص ۹۱-۱۰۲، دون مكان: منشورات جماعة المدرّسين، ۱۳۶۰ هـ. ش.

الموسوي الخرّم‌آبادي؛ السيد مصطفى، بُشرى فجر النصر، ص ۴۸-۵۶، دون مكان: مكتبة جعفري، ۱۳۴۷ هـ. ش.

٧) مع أنّ مقام النبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله أسمى من جميع الجهات، فلماذا لم يخاطبه الله تعالى عند نزول الوحي خطابًا مباشرًا كما خاطب موسى عليه السلام، بل أوكل تبليغ الوحي في الغالب إلى جبرئيل؟

تُعدّ ظاهرة «الوحي» من المباحث المحوريّة في علوم القرآن، وتنبع أهميّتها من كون القرآن الكريم. وهو كلام الله تعالى وكتاب هداية البشر. قد نزل من خلال الوحي. ومن هنا يحسن بنا أن نبدأ ببيان معنى «الوحي»، ثم ننتقل إلى كيفية نزوله على النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

يقول العلّامة الطباطبائي رحمه الله في تعريف الوحي: «الوحي نوعٌ من التكليم السماوي (غير المادّي)، لا يُدرَك عن طريق الحسّ ولا بواسطة التفكّر العقلي، بل يتمّ عبر نمطٍ آخر من الإدراك والشعور، يظهر أحيانًا. بحسب الموهبة الإلهية. في بعض الأشخاص، فيتلقّون من خلاله التعاليم الغيبية، أي الخفيّة عن الحسّ والعقل. والقيام بهذه المهمّة هو الذي يُسمّى نبوّة».[1]

ويتحقّق الوحي على ثلاثة أنحاء:

في عالم الرؤيا والمنام؛

من دون وساطة مَلَك، مباشرةً من الله تعالى؛

وبوساطة جبرئيل عليه السلام.

١ . العلامة طباطبائي، سيد محمّدحسين، قرآن در اسلام، ص ٨٥، ط ٨، قم: دفتر انتشارات اسلامي، ١٣٧٥.

وقد نزل الوحي على النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بالصورتين الأخيرتين، أي تارةً من غير واسطة، وتارةً بوساطة جبرئيل. وفيما يلي بيان هذه الأقسام بإيجاز:

الرؤيا الصادقة: روى عليّ بن إبراهيم القمّي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان في السابعة والثلاثين من عمره حين رأى في منامه شخصًا يتوجّه إليه ويقول: «يا رسول الله». وقد كتم النبيّ صلى الله عليه وآله هذه الواقعة مدّةً من الزمن. وكان أحيانًا، وهو يرعى أغنام أبي طالب في الشعاب والوديان، يرى شخصًا يناديه بلقب رسول الله. فسأله النبيّ: «من أنت؟» فأجابه: «أنا جبرئيل، وقد بعثني الله إليك ليصطفيك للرسالة».

ويشكّل هذا النمط من الرؤيا الصادقة إحدى المراحل التمهيدية لتلقّي الوحي، وهو لا ينافي علوّ مقام النبيّ صلى الله عليه وآله، بل ينسجم مع السنن الإلهية في إعداد النبيّ لتحمّل أعباء الرسالة العظمى.[1]

قال الإمام الباقر عليه السلام في هذا الشأن: «النبيّ هو الذي يُعرَف بنبوّته عن طريق الرؤيا، كرؤيا إبراهيم عليه السلام، ورؤيا محمد صلى الله عليه وآله، إذ رأى في المنام مقدمات نبوّته قبل نزول الوحي، ثم نزل عليه جبرئيل برسالة الله».[2]

والمقصود من «قبل الوحي» في هذا الحديث أنّ الرسالة

١ . المجلسي، محمدباقر، بحارالانوار، ج١٨، ص١٨٤ و١٩٤.

٢ . الكليني، محمد بن يعقوب، اصول كافي، ج١، ص ١٧٦ / المجلسي، محمدباقر، بحارالانوار، ج١٨، ص٢٦٦.

التي كان النبيّ صلى الله عليه وآله مكلَّفًا بتبليغها إلى الناس لم تكن قد أُوحيَت إليه بعد. وهذا البيان يُعدّ تفسيرًا لمعنى «النبيّ» قبل أن يكون «رسولًا»، إذ إنّ النبيّ هو بشرٌ يُوحى إليه، ويكون على صلةٍ روحية بالعالم العلوي، وتنفتح له آفاق الملكوت، من دون أن يكون مأمورًا بعدُ بتبليغ الرسالة. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله كذلك قبل بعثته.

وعلى أيّ حال، تُعدّ الرؤيا الصادقة أحد مسالك نزول الوحي على الأنبياء، وقد كان يُلقى إلى النبيّ صلى الله عليه وآله في المنام كثيرٌ من المعارف. وفي هذا السياق يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «رؤيا الأنبياء وحي».[1]

غير أنّه ينبغي التنبيه إلى أنّه وإن كانت الرؤيا إحدى طرق الوحي إلى النبيّ صلى الله عليه وآله، فإنّ القرآن الكريم لم ينزل بهذه الطريقة، بل نزل عبر طريقين آخرين، هما: الوحي المباشر، أو الوحي بواسطة المَلَك.

نزول الوحي بواسطة جبرئيل عليه السلام: إنّ المَلَك الذي كان ينزل بالوحي على النبيّ صلى الله عليه وآله ويبلّغه إيّاه هو جبرئيل عليه السلام. فقد كان يُلقي كلام الله إلى النبيّ عن طريق السمع، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله أحيانًا يراه، وأحيانًا لا يراه، غير أنّ جبرئيل كان يُنزِل الوحي على قلبه مباشرة، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.[2] وقد صرّح القرآن الكريم في آياتٍ متعدّدة بأنّ نزول القرآن كان بواسطة جبرئيل.

١. الطوسي، الأمالي، ص٢١٥/ المجلسي، محمدباقر، بحارالانوار، ج١١، ص٦٤.
٢. سورة الشعراء، آية ١٩٤–١٩٣.

الوحي المباشر من دون واسطة: كان بعض الوحي يتمّ بصورة مباشرة ومن دون وساطة مَلَك. وقد روى أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه عند نزول الوحي كان يعاني شدّةً عظيمة، فتعترِيه حالةٌ خاصّة تشبه الإغماء؛ أي إنّه، كما يفقد المغمى عليه الإحساس بما حوله، كان النبيّ صلى الله عليه وآله أثناء نزول الوحي لا يلتفت إلى شيءٍ من حوله، ولا يجيب أحدًا. وكان رأسه ينخفض، ويتغيّر لون وجهه، ويتصبّب العرق من جبينه. وكان الحاضرون يتأثّرون بهذه الحالة، فتُطرِق رؤوسهم هيبةً للمشهد. وقد أشار الله تعالى إلى ثِقَل هذا الوحي بقوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.[1]

وقد نُقل في كتاب التوحيد للشيخ الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن تلك الحالة من الإغماء أو المدهوشيّة التي كانت تعتري النبيّ صلى الله عليه وآله عند نزول الوحي، فقال: «كان ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد، وكان الله يتجلّى له مباشرة».[2]

غير أنّ هذه الحالة لم تكن تلازم النبيّ صلى الله عليه وآله في كلّ موارد الوحي المباشر؛ إذ يمكن الإشارة. على سبيل المثال. إلى حوار الله تعالى مع النبيّ صلى الله عليه وآله في ليلة المعراج، حيث لم تُنقل مثل هذه الحالة عنه. وعليه، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يتلقّى الوحي

١. سورة المزمل، آية ٥.
٢. طاهري، حبيب‌الله، درس‌هايي از علوم قرآن، ج١، ص٢٥١-٢٥٨، ط١، طهران: ١٣٧٧ش.

على أنحاءٍ متعدّدة، وكان الوحي المباشر في بعض موارده لا يسبّب له ضغطًا روحيًا أو حالةً من الشدّة، وربّما يعود ذلك إلى اختلاف ماهيّة الوحي وكيفيّته، وإن كان مباشرًا من غير واسطة.[1]

وقد عبّر القرآن الكريم عن ثِقَل بعض أنواع الوحي بقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾. غير أنّ بعض الوحي. مع كونه مباشرًا. لم يكن يلازمه ذلك الثقل والضغط الروحي، وهو ما يدلّ على تنوّع مراتب الوحي واختلاف آثاره بحسب مضمونه وكيفيّة نزوله.

ويجدر التنبيه هنا إلى أنّ الخطاب الإلهي لموسى عليه السلام لم يكن خطابًا مباشرًا من غير واسطة، بل كان من خلال الشجرة، أي إنّ الله تعالى خلق الكلام في الشجرة فسمعه موسى عليه السلام. أمّا بالنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد كان الوحي ينزل عليه مباشرةً من غير توسّط مخلوق في بعض الموارد، وهو ما يُعدّ شاهدًا واضحًا على علوّ مقامه وسموّ منزلته عند الله تبارك وتعالى.

١ . مكارم شيرازي، ناصر، پيام قرآن، ج٧، ص ٣٢٦، قم: مطبوعاتي هدف، ط١، ١٣٧١ش.

المصادر للمزيد من الدراسة:

الطاهري؛ حبيب الله، دروس في علوم القرآن، المجلّد الأوّل، ص ٢٥١-٢٥٨.

مكارم الشيرازي؛ ناصر، رسالة القرآن، المجلّد السابع، ص ٣٢٦.

العلّامة الطباطبائي؛ القرآن في الإسلام، ص ٨٥.

٨) لماذا لم يقدّم رسول الله صلى الله عليه وآله القرآن كاملاً ومجموعًا على المجتمع الإسلامي بشكل مكتمل بحيث لا تحدث اختلافات لاحقة؟

بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، تفرّق المسلمون إلى مذاهب مختلفة، وكانوا يختلفون في مسائل عقيدية ودينية وحكومية. وقد تمسّك كلّ مذهب بآيات من القرآن الكريم لإثبات حقّانيته، لكن لماذا جاء القرآن بطريقة يمكن لكلّ هذه المذاهب أن تفسّر منها وتستدلّ عليها؟ ولماذا لم يكن القرآن في بعض المواضع واضحًا جدًا وصريحًا، مما يسهل على جميع المسلمين التمييز بين الحق والباطل؟ هذه الأسئلة قد طرحت العديد من الإجابات والآراء، وقد تناول العديد من العلماء والباحثين هذه المسائل. فيما يلي بعض الأجوبة التي جمعناها لهذا الموضوع:

التوجيه إلى أهل البيت عليهم السلام وتفسير القرآن:

في بعض الأحيان، يُكتب النصّ المشتمل على مواضيع علمية أو يحتوي على رموزٍ ليست مفهومة لجميع القرّاء، بل هي موجهة لفئة خاصة يمكنها فهم هذه الرموز والكشف عن معانيها. من خلال هذه الرموز، يُراد توجيه القرّاء إلى تلك الفئة التي تتمتع بفهم عميق وسعي لاكتساب فضائل أخلاقية عبر مصاحبتهم.[1] قد يكون الهدف من عدم وضوح

١ . ميرمحمّدي، سيد ابوالفضل، تاريخ و علوم قرآني، ص ٢٨ و ٧٥، قم: دفتر انتشارات اسلامي.

بعض آيات القرآن الكريم بشكل كامل في زمن النبيّ ﷺ هو توجيه الناس بعد وفاته إلى أهل البيت عليهم السلام كـ"الثقل الأصغر"، بحيث يُستعان بهم في تفسير المعاني العميقة والإرشاد الحقيقي. إذ لو كانت جميع آيات القرآن واضحة وفهمها سهلًا للجميع، لما شعر الناس بالحاجة إلى التوجّه إلى أهل البيت وطلب العلم منهم. بذلك، تبقى هذه الفئة العظيمة مرجعًا دينيًا وتفسيريًا للمجتمع بعد رحيل النبيّ ﷺ.[1]

القرآن محكم، لكن تعدّد التفاسير أدّى إلى اختلافات:

القرآن الكريم في جوهره محكم، أي أنه يتبع مسارًا واحدًا ويؤيّد فرقة واحدة فقط، وهي الفرقة التي تسير على الطريق الصحيح وفق تعاليم الله ورسوله. ومع ذلك، نرى أن الفرق المختلفة تستدلّ بالآيات القرآنية وتستفيد منها لتدعيم مواقفها. هذا يحدث بسبب أن القرآن نزل باللغة العربية، وهو يحتوي على استعارات وتشبيهات وألفاظ متشابهة، مما جعل من الممكن أن يُفهم بأكثر من طريقة. إضافة إلى ذلك، تناول القرآن موضوعات مجردة كانت جديدة على قوم عرب الجزيرة الذين لم يتعرّفوا من قبل على تلك المفاهيم المجردة. لذلك، استخدم القرآن أسلوبًا ماديًا مع تمثيلات وصور محسوسة لتبسيط المفاهيم العميقة، وهذا يمكن أن يكون قد أدى إلى تعدّد التفاسير والتأويلات، مما أوجد اختلافات في الفهم.

١ . جوادي الآملي، عبدالله، تفسير موضوعي قرآن كريم، قرآن در قرآن، ص٤١٨ قم: مركز نشر الأسراء.

وفي زمن النبيّ صلى الله عليه وآله، كانت أساليب الخطاب وفهم العرب لهذه الأساليب أكثر انسجامًا مع المعنى الحقيقي للكلمات[1]، ولكن مع مرور الزمن وتباعد الناس عن فترة نزول القرآن، بدأت تزداد الأسئلة والشبهات التي أدت إلى تباين التفاسير. ومع مرور الوقت، ما كان يُعتبر محكمًا في البداية بدأ يُفهم بأكثر من طريقة، ما أدى إلى وقوع بعض الاختلافات بين التفاسير.

إذن، يعود اختلاف الآراء والتفسير إلى خصائص اللغة العربية الغنية بالاستعارات والرموز، وكذلك إلى تحوّل السياقات الثقافية واللغوية عبر الزمن، مما جعل البعض يخطئ في الفهم أو يقدّم تفسيرات مختلفة. لكن هذا لا يعتبر عيبًا في القرآن الكريم، بل هو نتيجة طبيعية للاستخدام اللغوي المعقد والفهم البشري المحدود.[2]

الإختيار المتساوي بين الخير والشر، هو من الخصائص التي منحها الله تعالى للإنسان.

إنّ قدرة الإنسان على الاختيار بين الطريقين الصحيح والخاطئ تُعتبر من النعم العظيمة التي منحها الله له. ففضيلة اختيار طريق الطاعة والعبودية لله تبرز عندما يكون

١ . طباطبايي، سيد محمّد حسين، تفسير الميزان، ج٢، ذيل آية ٧ سورة آل عمران.

٢ . جوادي الآملي، عبدالله، تفسير موضوعي قرآن كريم، قرآن در قرآن، ص٤١٨ قم: مركز نشر الأسراء.

الإنسان قادرًا على اختيار الطريق المعاكس، أي الطريق الذي يؤدي إلى الشر. يُظهر القرآن الكريم هذه الفضيلة بطريقة لا يسهل فهمها للجميع، إذ يتطلب فهمه والاستفادة منه النظر في الروايات والتأمل العقلي.

من هنا، فإنّ الشخص الذي يجد طريق الهداية (الصراط المستقيم) ويسلكه بجهده واختياره، يكون له فضل أكبر من الشخص الذي كانت الحقائق أمامه واضحة ومباشرة. وكذلك، من يعرف حكمة الله تعالى ولكنه يُحرف الآيات عن معناها الصحيح بدافع الأغراض السيئة ويختار الطريق الخطأ، فإنه يستحق العقاب.

لذلك، فإنّ القرآن الكريم، من خلال عدم تقديم جميع الإجابات بوضوح، سمح باستمرار الاختيار بين طريق الخير والشر. هذا الأمر أتاح للمنافقين والذين يُخفون نواياهم أن يكشفوا عن حقيقتهم، لأنهم استخدموا الآيات المتشابهة لتبرير مواقفهم. في حالة إذا كان القرآن قد بيّن الطريق الوحيد بوضوح كامل، لكان المنافقون سيأخذون به قسرًا، وبالتالي لم يكن بإمكانهم إظهار نفاقهم.[1]

عدم وضوح كل شيء في القرآن ليبقى مختلف المذاهب

١ . احمدي، حبيب الله، پژوهشي در علوم قرآن، ص ١٥٣، قم: دفتر انتشارات اسلامي، ١٣٧٦.

الإسلامية متوجهة إليه

لو كان القرآن الكريم قد بيّن جميع المسائل بوضوح كامل وأوضح الطريق المستقيم للجميع، لكان ذلك يعكس تأييدًا لطائفة واحدة فقط من الطوائف الإسلامية، مثل الشيعة على سبيل المثال. عندئذٍ، كان قادة الطوائف الأخرى الذين يختلفون مع هذا المذهب قد يرفضون القرآن الكريم ويقاطعونه، وقد يمنعون أتباعهم من الرجوع إليه.[1]

ومع ذلك، نلاحظ أن جميع الطوائف الإسلامية اليوم تتجه إلى القرآن الكريم، وتحاول أن تجد دليلًا من خلاله لدعم مواقفها. هذا التوجه نحو القرآن الكريم يسهم في هداية البعض منهم، كما أن القراءة والتدبر في القرآن يعينهم على توضيح مواقفهم.

الفائدة من عدم بيان كل شيء في القرآن بشكل واضح

لو كان القرآن قد بيّن جميع المسائل الدينية بشكل كامل، لما نشأت العديد من العلوم المتعلقة بالكلام، الفلسفة، التفسير، والعلوم القرآنية. الأسلوب المجمل والمجازي في القرآن أتاح ظهور نظريات متعددة في هذه المواضيع، مما ساعد على تحليها ومناقشتها بشكل أوسع. ومن ثم، فإن الطريق الصحيح الذي يتم التوصل إليه من

١ . السيوطي، كتاب الاتقان، ج٢، ص ٢٢، طهران: دارالكتب الاسلاميه، بيروت، ١٤٢١ق.

خلال هذه الأنشطة الفكرية يصبح أكثر قوة وأصالة، لأنه ناتج عن جهد فكري، وبالتالي يكون أكثر قيمة.[1]

عرض النبيّ ﷺ القرآن الكامل والمجمع عليه على الأمة الإسلامية. إذا كانت هناك خلافات أو تشابهات، فإن ذلك يعود إلى الإنسان، وليس إلى القرآن نفسه. القرآن الكريم هو كتاب محكم، لا يوجد فيه اختلاف، وهذه الخلافات هي خارجة عن محتوى القرآن، وليست من داخله.

المصادر للمزيد من الدراسة:

معرفت؛ محمد هادي، علوم القرآن.

جوادي آملي؛ عبدالله، القرآن في القرآن.

١ . احمدي، حبيب الله، پژوهشي در علوم قرآن، ص ١٥٣، قم: دفتر انتشارات اسلامي، ١٣٧٦.

معجزات النبي الأعظم صلى الله عليه وآله

١) كيف يمكن إثبات أن مدعي النبوة فقط هو من يستطيع إظهار المعجزة؟

من الممكن أن يكون هناك شخص قد تمكّن من إظهار أمر خارق للطبيعة من خلال التمرين والمجاهدة أو بطرق أخرى، فكيف يُمكن التمييز بين الأنبياء الصادقين والمدّعين الكذبة؟

أولًا، من الضروري أن نعلم أنه ليس كل من أتى بعمل خارق للطبيعة يعتبر قد أتى بمعجزة؛ بل إنّ المعجزة، بناءً على التعريفات والخصائص التي قدّمها العلماء والمتكلمون، يمكن بسهولة تمييزها عن الأمور الأخرى الخارقة للطبيعة التي قد يكون البعض قد أتى بها من خلال الاجتهاد والممارسة.

قدّم العلماء تعريفات متعددة للمعجزة مع وجود اختلافات بسيطة في التفاصيل. لتعريف المعجزة بشكل

كامل، يمكن القول: "المعجزة هي أمر خارق للعادة يحدث بـإرادة الله تعالى على يـد الـنـبـيّ، ويصاحبها ادعـاء النبوة والتحدّي، وهي متوافقة مع دعوى النبي، ولا يمكن تعلمها أو تعليمها، كما أن الآخرين عاجزون عن الإتيان بمثلها."[1]

التركيز على هذه الشروط والقيود المذكورة في التعريف يميز المعجزة عن أمور مثل الكرامات والسحر والشعوذة وغيرها من الأمـور الخارقة للطبيعة. على سبيل المثال، خاصيتان مهمّتان هما: "عدم إمكانية تعلمها أو تعليمها" و"عدم قابلية المعارضة". هذه الخصائص تميز المعجزة عن السحر والشعوذة وألعاب الخفة والأعـمال التي يقوم بها المتصوفون وغيرهم، حيث إن هـذه الأمـور يمكن تعلمها وتدريبها من قبل آخريـن، ويمكن للأشخاص الأقـوى أن يعارضوها أو يكشفوها.

أما المعجزة، فهي أمر فوق بشري، ولا يمكن لأي شخص آخر أن يقاومها أو يأتي بمثلها. لـذا، وفقًا لما ذكرناه، يمكن للإنسان أن يـؤدي أمـورًا خارقة للطبيعة مثل الكرامات أو التنبؤ بالمستقبل عبر زيادة قوته الروحية، سواء من خلال رياضة مشروعة أو غير مشروعة، لكن هذه الأعمال لا تُعد معجزات. فهي لا تـنـدرج تحت تعريف المعجزة ولا تحمل بعض الشروط التي حددناها.

١ . سعيدي مهر، محمد، آموزش كلام اسلامي، ج٢، ص ٣٨–٣٩، ط ٢، قم: نشر طه، ١٣٨١ ش.

وأيضًا، بناءً على الأدلة القادمة، لا يسمح الله أبدًا للمدّعين الكذبة بالمعجزات، بل يفضحهم بكل الطرق الممكنة، كما حدث مع مسيلمة الكذاب، الذي ادعى المعجزة والنبوة زورًا، حيث حاول أن يملأ بلسانه بئرًا قليل الماء، لكنه لم يستطع ذلك، بل جفّ البئر بشكل كامل إلى الأبد.

ولكن يجب أن نلاحظ أنه لحل الشبهة المطروحة، فإنّ هذه المعلومات وحدها لا تكفي، ولا يزال هناك تساؤل قائم وهو: كيف يتم إثبات صدق شخص يدّعي النبوة من عند الله؟ بمعنى آخر، هل من الممكن أن يدّعي شخص مُغرَض ومُتَنَبِّئ كاذب النبوة ويقدّم أعمالًا خارقة للطبيعة لإثبات صحة ادعائه؟

في الإجابة على هذا التساؤل حول العلاقة المنطقية بين المعجزة وصدق ادعاء النبوة، اقترح العلماء بعض الطرق التي يمكن من خلالها إثبات أنه لا يمكن لأي شخص آخر غير الأنبياء أن يأتي بمعجزة، ومن بين هذه الطرق:

من خلال ذكر بعض المقدمات، يمكن إثبات أن المعجزات لا يمكن أن تأتي إلا من الأنبياء:

أ) الله حكيم، ومن الممتنع أن يكون هناك نقض للغرض من الحكيم.

ب) غرض الله من خلق البشر هو هدايتهم ووصولهم إلى السعادة.

ج) ظهور المعجزة من شخص ما يؤدي إلى أن يتبعه عدد كبير من الناس؛ ولذلك، إذا كان المدّعون الكذبة للنبوة قادرين على إظهار المعجزات، فسوف ينحرف عدد كبير من الناس عن الطريق الصحيح، ولن يحصلوا على السعادة الحقيقية.

د) إذا منح الله للمدّعين الكاذبين للنبوة القدرة على إظهار المعجزات، فإن ذلك سيؤدي بالتأكيد إلى ضلال و شقاء عدد من الناس؛ وهذا يتناقض مع الغرض الإلهي من خلقهم، ولا يتوافق مع حكمة الله ورأفته. كيف يمكن أن يسمح الله الحكيم لمثل هؤلاء الكذّابين أن يضلّوا الناس ويجرّوهم إلى أهوائهم الفاسدة من خلال المعجزات؟[1]

لذلك، وقوع المعجزة يعدّ دليلاً قاطعًا ومنطقيًا على أن الشخص الذي يظهرها هو نبي، لأنه إذا كان مدّعيًا كاذبًا للنبوة، فلن يكون قادرًا على إظهار المعجزة.

قد يتساءل البعض عن كيفية توافق ظهور بعض مدعي النبوة الكاذبين مع حكمة الله، فيجب القول: أولًا، صحيح أن بعض المدّعين الكذبة قد قاموا بأعمال غريبة وخارقة للطبيعة، لكن بناءً على التعريف والخصائص التي قدّمناها للمعجزة، فإن هذه الأعمال ليست من نوع

١ . جوادي الآملي، عبدالله، قرآن در قرآن، (تفسير موضوعي قرآن ج١)، ص ٩٩ – ١٠٠، ط ٦، قم: نشر الأسراء، ١٣٨٦ش / سعيدي‌مهر؛ محمد، آموزش كلام اسلامي، ج٢، ص٤٤ – ٤٥.

المعجزات. ثانيًا، المقصود من أن الله لا يسمح للأنبياء الكذبة باستخدام المعجزات لإضلال الناس ليس أن الله يتدخل مباشرة لوقف المعجزات التي يدّعونها، ولكن من خلال وسائل وأسباب أخرى مثل حضور النبي المعصوم، يُمنع هؤلاء المدّعون من التأثير على الناس. كما في حادثة العجل الذي صنعه السامري حيث قام النبي موسى عليه السلام بتدميره.

بالطبع، في ما يتعلق بالمدّعين الكذبة بعد النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله، هناك حكم عام ونصي صريح بأن رسول الله صلى الله عليه وآله هو آخر الأنبياء، ومن يدّعي النبوة بعده فهو كاذب.

لأن باب الوحي والرسالة مغلق حتى يوم القيامة بعد النبي صلى الله عليه وآله. لذلك، كل من يدّعي النبوة أو الرسالة بعده، فإنّه سيُفضَح في التاريخ قريبًا، وإن استطاع أن يضلّ بعض الناس بسبب جهلهم وقلة معرفتهم.

٢. بعض العلماء الكبار مثل العلامة الطباطبائي[١]، والأستاذ الشهيد مطهري، وآية الله الجوادي الآملي يرون أن دلالة المعجزة على صدق مدعي النبوة تتجاوز ما قاله المتكلمون سابقًا.

التوضيح هنا أن نفس النبي صلى الله عليه وآله والمقام الرفيع

١ . العلامة طباطبائي، سيد محمد حسين، الميزان، ج١، ص٨٦ – ٨٧، بيروت: مؤسسة الاعلمي، ١٣٩٣ق.

الـروحـي لـه يـلـعـب دورًا أسـاسـيًـا فـي إظـهـار الـمـعـجـزة. إن القوة الروحية والقداسة والطهارة النفسية للنبي، مع إذن الله تعالى، هي التي تساهم في تحقيق المعجزة، ولا يمكن لشخص آخر لا يملك هذه القوة الروحية ولا أذن له من الله أن يأتي بمعجزة.

إن صاحب المعجزة يستعين بالأسباب الخفية التي تعمل وراءها. ومرادنا من الأسباب الخفية ليس معرفة بعض الأسباب الطبيعية المخفية والغير معروفة، بل المقصود بالأسباب الخفية هي الأسباب الغيبية؛ ومن هنا، فإنه من المستحيل في المستقبل أن يتعرف البشر على هذه الأسباب الخفية من خلال التقدم العلمي، وبالتالي، فإنّ المعجزة لا يمكن أن تصدر من غير أولياء الله. لا يمكن لأي شخص عبقري أن يكتشف أو يبتكر أو، على سبيل المثال، باستخدام المعادلات الدقيقة في الرياضيات والفيزياء أن يحصل على أسباب خفية معجزية؛ لأن هذه الأمور الغيبية لا يمكن الوصول إليها عن طريق الفكر أو العلم المكتسب. الطريقة الوحيدة للوصول إليها هي الطهارة الروحية التي تتحقق من خلال تهذيب النفس وفقًا للطريق المشروع، وهذا مختصّ بأولياء الله.[1]

من جهة أخرى، يجب أن لا نغفل عن هذا المبدأ، وهو أنه لا

١ . جوادي الآملي، عبدالله، قرآن در قرآن، (تفسير موضوعي قرآن ج١)، ص ١٠٠–١٠١.

يمكن لأي نبي أن يأتي بمعجزة أو آية بشكل مستقل. بل كل ذلك يتم بإذن الله تعالى. كما يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1].

لذلك، أولاً، المعجزات تأتي فقط من الأنبياء، ولهم دور حقيقي في المعجزة، ونسبة المعجزة إليهم هي نسبة حقيقية، لأنها فعلهم بالفعل. ثانيًا، رغم أن المعجزة هي فعل الأنبياء، إلا أنهم لا يملكون الاستقلال في هذا الفعل، بل يجب أن يتم ذلك بإذن الله.[2]

سواء استنادًا إلى الاستدلال الأول أو من خلال المقاربة الثانية، يتضح أن المعجزة هي حكر على الأنبياء (عليهم السلام) فقط. فلا يُعطى الله هذا القوة والقدرة لمن لا يستحق النبوة ولا يليق به قبولها، بل لا يسمح لهم أبدًا أن يضلوا الناس بمعجزات كاذبة.

المصادر للمزيد من الدراسة:

جوادي آملی؛ عبدالله، القرآن في القرآن، مركز نشر إسرا.

رباني گلپايگاني؛ علي، عقائد استدلالية، المجلد ٢، منشورات نصائح.

١. سورة الغافر، آية ٧٨.

٢. جوادي الآملي، عبدالله، قرآن در قرآن، (تفسير موضوعي قرآن ج١)، ص١٠٣.

٢) إذا كانت علامة المعجزة هي الفريدة وعدم القدرة على المماثلة، فهل يجب أن تعتبر العديد من روائع الأدب العالمي معجزات أيضًا؟

من خلال التدقيق في تعريف المعجزة أو المعايير المذكورة للتمييز بين المعجزة وغيرها من الأمور الخارقة للطبيعة، يمكننا الوصول إلى إجابة واضحة.

باختصار، أهم خصائص وشروط ما يسمى بالمعجزة هي كالتالي:

المعجزة هي عمل خارق للعادة يتعارض مع الأسباب والنتائج الطبيعية في العالم، لكن هذا التعارض مع النظام الطبيعي لا يعني تعارضًا مع النظام السببي والنتائجي.

يجب على صاحب المعجزة أن يكون في مقام التحدي ويجب أن يدعو الناس إلى التحدي والمقابلة بالمثل.

يجب أن تكون المعجزة على نحو لا يستطيع الآخرون أن يأتوا بمثلها بحيث يفشلون في محاولاتهم.[١]

يجب على صاحب المعجزة أن يدّعي مقام النبوة، لأنه من خلال المعجزة يريد إثبات أنه مُبعَث من الله ليهدي الناس. وإذا لم يكن هذا هو الحال، أي إذا قام شخص ما بفعل غير عادي وخارق للطبيعة ولكن دون ادعاء النبوة أو الرسالة، فلن يعتبر فعله معجزة.

١ . سعيدي مهر، محمد، آموزش كلام اسلامي، ج٢، ص ٣٩ و٤٠، ط١، انتشارات طه، سال ١٣٨١ش.

المعجزة هي أمر خارج عن نطاق التعليم والتعلم، فإذا كان الفعل الظاهر معجزًا ومن المستحيل على العديد من الأشخاص أن يقوموا به، ولكنهم تعلموا ذلك من خلال العمل والجهد العلمي أو الرياضة أو المهارات البشرية الأخرى، فإنه لا يعد معجزة.[1]

المعجزة هي أمر خارق للطبيعة يتم بإذن ورغبة ومشيئة الله الخاصة.[2]

الآن، بناءً على هذه الشروط للمعجزة، نبحث ما إذا كانت بعض الأعمال الأدبية والروحية العالمية الكبرى يمكن أن تعتبر معجزات أم لا، وإذا كانت هذه الأعمال (مثل أعمال حافظ وشيكسبير وغيرها) يمكن أن تتحدى القرآن الكريم أم لا.

الجواب هو: أولاً، لا يمكن أبدًا اعتبار هذه الأمثلة المذكورة متساوية أو معادلة للقرآن. ولا يكفي القول إنه لا يوجد مثيل لها كدليل على أن الآخرين عاجزون عن الإتيان بمثلها. بل في بعض الحالات، قد تظهر أعمال في المستقبل، من المؤلفين المعاصرين أو اللاحقين، تكون أفضل وأكمل وأكثر جمالًا من تلك الأعمال.[3]

١ . النصري، عبدالله، كلام ٢، ص١٥، ط ٨، انتشارات متون درسي دانشكاه پيام نور، ١٣٨٦ش.

٢ . رباني كلپايكاني، علي، كلام تطبيقي، ص ٤١، ط ١، قم: مركز جهاني علوم اسلامي، ١٣٨٥ش.

٣ . الخويي، سيد ابوالقاسم، البيان، في تفسير القرآن، ص ٨٩، انتشارات اميد، ١٤١٦ق.

ثانيًا: كما تم بيانه، فإن أحد شروط المعجزة هو التحدي وطلب المبارزة ليكون دليلًا على صدق ادعاء المنصب الإلهي، كما هو موجود في القرآن الكريم. ولكن في هذه الحالات والكتب البشرية، لا يتوفر هذا الشرط؛ لذا بما أن أصحاب هذه الأعمال الأدبية لم يقدّموا أي ادعاء بهذا الخصوص، لم يَسعَ أحد إلى المعارضة أو تقديم مماثل لأعمالهم بشكل جاد، وبالتالي لم يتم التأكد من هو الفائز في هذه المبارزة الأدبية أو ما إذا كان أحد يستطيع التفوق فيها أم لا.[1]

ثالثًا: في خصائص وشروط المعجزة، تم الإشارة إلى أن هذا الأمر الخارق للعادة لا يتم إلا بإذن الله وأنه لا يمكن تعليمه أو تعلمه. ولكننا نلاحظ بوضوح أن أصحاب هذه الأعمال الأدبية يُدينون مهاراتهم الأدبية لأعمالهم المستمرة والمثابرة العلمية على مدار سنوات عديدة، حيث قاموا بتطوير وتعليم أنفسهم وشحذ مواهبهم الفطرية، واستطاعوا خلق هذه الأعمال الرائعة. وهذا في حين أن القرآن الكريم، بما له من فصاحة وبلاغة غير عادية، قد صدر عن شخص، كما اعترف جميع المؤرخين، كان أميًّا ولم يلتحق بأي مدرسة أو معهد ولم يكتب بيده قط.

النتيجة: أولًا، على الرغم من أن هذه الأعمال الأدبية العالمية الكبرى نادرة، إلا أنه لا يمكن القول بأنها لا مثيل لها.

١ . مصباح يزدي، محمد تقي، قرآن شناسي، ص١٥٨ و١٥٩، انتشارات موسسة امام خميني رحمه الله.

ثانيًا، لم يدّعِ أصحاب هذه الأعمال أبدًا التحدي أو المسابقة؛ لذلك، فهم لا يمتلكون أحد الشروط الرئيسية للمعجزة.
ثالثًا، جميع هؤلاء قد اعتبروا أعمالهم الرائعة نتيجة الجهد العلمي والدراسة والتدريب الفني.

المصادر للمزيد من الدراسة:

معرفت؛ محمد هادي، علوم القرآن، مؤسسة الثقافة والنشر التمهيد، ١٣٧٨ هـ. ش.

رباني گلپايگاني؛ علي، إيضاح المراد في شرح كشف المراد، منشورات مركز إدارة حوزة علمية.

مصباح يزدي؛ محمد تقى، قرآن شناسي، تحقيق محمود رجبى، منشورات مؤسسة الإمام خميني رحمه الله عليه.

٣) هناك عدة شبهات حول معجزة القرآن و نبوة رسول الله ﷺ، ومنها: ربما كان لدى النبي ﷺ قدرات روحية تجعله يعرف علوم المستقبل، وكانت هذه العلوم مفهومة بالنسبة له، فهل هذا ممكن؟ وهل هناك سند يقيني لغير المعجزات التي جاء بها النبي ﷺ ؟

كما سيُذكر في الإجابة على السؤال، فإنّ أحد أنواع معجزات النبي ﷺ هو الإخبار بالمستقبل. الآن يطرح السؤال العام حول معجزات النبي ﷺ: هل المعجزة هي فعل النبي ﷺ نفسه، أم هي فعل الله تعالى الذي يتم بيده؟

هناك رأيان في هذا الموضوع:

المعجزة هي فعل مباشر من الله

يقول بعض العلماء إن المعجزة هي فعل الله تعالى، والنبي ﷺ هو مجرد وسيلة ووسيط في ذلك. على سبيل المثال، عندما يلقي النبي موسى عصاه فتتحول إلى ثعبان، فإنّ تحول العصا إلى ثعبان ليس من عمل موسى بل هو فعل من الله تعالى. ويدّعي هؤلاء العلماء أن دليل ذلك هو أن موسى عليه السلام فزع وفرّ عندما حدث ذلك، وعليه جاء الوحي له ليقول له "لا تخف".

المعجزة هي فعل النبي ﷺ بإذن الله

الرأي الآخر هو أن المعجزة تتحقق بقوة وإرادة النبي ﷺ، أي أن النبي ﷺ يمتلك قدرة خارقة وإرادة فوق العادة، وهذه

القدرة والإرادة يمكنهما تحقيق ما يريد، ولكن كما جاء في القرآن الكريم، بإذن الله، بمعنى أن الله هو الذي أمدّ النبي ﷺ بهذه القدرة.

وتبعًا لهذا الرأي، القدرة الخارقة لا تخصّ الذات الإلهية فقط، بل هي موهبة إلهية منحها الله للنبي ﷺ، مما يعني أن النبي ﷺ، بإرادته وقوته الخاصة، يستطيع أن يحقق معجزاته.

الرأي الوسط

يؤمن الشهيد المطهري بعد بحثٍ طويل وأدلة من الطرفين بأن المعجزة ليست من فعل الله تعالى فقط، ولا من فعل النبي ﷺ فقط، بل هي شيء وسط بينهما. وبالتحديد، كل نبي قد مُنح معجزة، ولكن ليس بمعنى أن أيّ شيء يريد القيام به سيتم وفقًا لإرادته الشخصية. بل إنّ هذا الاستعداد وهذه القدرة كانت موجودة في النبي ﷺ، لكن ليست على نحو يمكنه تحقيق أي شيء بإرادته الخاصة دون مشيئة الله.[1]

على سبيل المثال، معجزة النبي ﷺ كانت آيات القرآن الكريم، وليست بمعنى أن النبي ﷺ كان يقرر في أي لحظة أن يُوحى إليه. على الرغم من رغبته الكبيرة في الوحي، إلا أن الوحي كان يتوقف في بعض الأحيان، وكان ينزل فقط عندما يشاء الله تعالى.

١. مطهري، مرتضي، نبوت، صدرا، قم: ١٣٨١، ٨، ص ١٣٨.

لذلك، فإن الإخبار بالمستقبل من النبي ﷺ هو معجزة وهبة إلهية منه، ولكنه ليس فعلًا مباشرًا من النبي ﷺ. هذه المعجزة تحدث عندما يشاء الله تعالى، وإذا أراد الله أن يُعلم النبي ﷺ شيئًا من المستقبل، يعلم، وإذا لم يشأ، فلن يعلم.

هذه هي حال الأنبياء، إذا أذن الله لهم، فإنهم يعرفون كل شيء، ويشتمون رائحة قميص يوسف من مسافة بعيدة. ولكن إذا لم يكن هناك إذن إلهي، فإنهم لا يعلمون حتى أبسط الأخبار، ولا يرون يوسف في بئر كنعان، على الرغم من أن هذه القدرة والاستعداد كامنة فيهم. الله تعالى قد منح الأنبياء هذه القدرة والاستعداد، ولكن يجب أن يكون هناك إذن إلهي ليتمكنوا من معرفة المستقبل. هذه القوة موجودة في أرواحهم، ولكن بدون مشيئة الله وإرادته، لا يمكن للأنبياء أن يفعلوا أي شيء من تلقاء أنفسهم. كل ما يقوله النبي أو يفعله مرتبط بالوحي ويستند إليه. وبالتالي، لا يمتلك النبي أي سلطة أو قدرة خاصة غير ما يمنحه الله له.

إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى[1] النبي لا يتكلم من هوى نفسه، بل كل ما يقوله هو وحي من الله.

هل سند معجزات النبي ﷺ غير معجزة القرآن الكريم يقيني؟

١ . سورة النجم، آية ٤.

نُقل العديد من المعجزات عن النبي الأعظم ﷺ. في هذه المقالة سيتم الإشارة إلى بعض من تلك المعجزات. ولكن قبل ذكرها يجب أن نوضح أن معجزات النبي ﷺ تنقسم إلى عدة أنواع. وتتمثل أنواع معجزات النبي ﷺ في الآتي:

المعجزات التي حدثت قبل بعثة النبي ﷺ لتكون مقدمة ودعماً لنبوة النبي ﷺ.

المعجزات التي حدثت بعد بعثة النبي ﷺ لتكون إتمامًا للحجة.

الدعوات المستجابة للنبي ﷺ.

إخبارات النبي ﷺ بالغيب.

التنبؤات التي قالها النبي ﷺ وحدثت بعد وفاته.

المعجزات التي حدثت على يد رسل النبي ﷺ من أماكن بعيدة لتثبت صدقهم. وهذه المعجزات كانت بيد النبي ﷺ وليس بيدهم، لأنهم لم يكونوا أنبياء.[1]

معراج النبي ﷺ

أثار النبي ﷺ دهشة الناس عند حديثه عن رحلة الإسراء. كان معهم في أول الليل، ثم ذهب إلى الشام، ومن هناك إلى بيت المقدس، ثم صعد إلى سدرة المنتهى وعاد في نفس

١. محرمي، غلامحسن، جلوه‌هاي اعجاز معصومين عليهم السلام، انتشارات اسلامي، قم ١٣٧٨، ٢، ص ١١.

الليلة. ولكن المشركين لم يقبلوا هذا الخبر وقالوا: "ما الدليل على ذلك؟" فقال لهم: "قافلة قادمة، وفي مقدمتها جمل بهذا الوصف. " وبعد ثلاثة أيام، جاءت القافلة، فخرج الناس لاستقبالها، ورأوا أن كل ما قاله النبي صلى الله عليه وآله كان صحيحًا.[1]

ضيوف أم معبد

في طريقه إلى المدينة، مر النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه بامرأة تُدعى "أم معبد"، وكان قومها يحترمونها. كانت المرأة حزينة لأنها لم تملك سوى شاة لا حليب لها. فمد النبي صلى الله عليه وآله يده إلى ثدي الشاة، وفجأة امتلأ ثديها بالحليب. فحلبوا منها وشربوا حتى شبعوا، وبقي الكثير من الحليب لأهلها. وبسبب هذه المعجزة، أسلم جميع أهل تلك الأسرة.[2]

محكومية قريش بشقّ القمر

كان النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله جالسًا في حجر إسماعيل، وكان قريش يتحدثون فيما بينهم، وقالوا: "لقد عجزنا محمد، ولا نعرف ماذا نفعل. " فقال بعضهم: "لنقم ونطلب منه أن يُظهر لنا آية في السماء، لأن السحر لا يؤثر في السماء. " فذهبوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وقالوا: "يا محمد! إذا لم تكن ساحرًا، أظهر لنا آية في السماء، لأننا نعلم أن السحر لا يؤثر في السماء. " فأجابهم النبي صلى الله عليه وآله: "هل تعرفون هذا القمر الذي في الليلة

١ .محرمي، جلوه‌هاي اعجاز معصومين عليهم السلام، ص١٥، به نقل از اصول كافي.
٢ .المجلسي، محمد باقر، بحار الانوار، بيروت، ١٤٠٤ق، ج٥١، ص٥٦، ح٥.

الرابعة عشر؟" قالوا: "نعم. " فقال: "هل تريدون أن تكون هذه الآية هي القمر؟" قالوا: "نعم. " فأشار النبي صلى الله عليه وآله بإصبعه إلى القمر، فانشق القمر إلى نصفين، نصفه خلف الكعبة والنصف الآخر فوق جبل أبي قبيس! وكان الناس يراقبون. ثم قالوا: "ارجع القمر إلى مكانه. " فأشار النبي صلى الله عليه وآله مرة أخرى بيده إلى النصف الذي كان خلف الكعبة، وبيده الأخرى إلى النصف الذي فوق جبل أبي قبيس، فاقتربا من بعضهما والتصقا، وعاد القمر إلى مكانه.

قال المشركون: "انهضوا، سحر محمد أثّر في السماء!" ثم نزلت الآيات الكريمة من الله تعالى بشأن شقّ القمر وردّة فعل قريش السلبية:

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.[1]

إلى جانب هذه المعجزات، هناك العديد من المعجزات الأخرى التي نُقلت عن النبي صلى الله عليه وآله والتي تتمتع بمصداقية كبيرة. وعلى الرغم من أنه قد يعتقد بعض الأفراد المغرضين أو الأحداث الجانبية أن هناك أمورًا قد نُسبت إلى النبي صلى الله عليه وآله، فإن هذه المعجزات التي نُقلت تتمتع بمصداقية وثقة كبيرة لا تترك أي شك أو تردد. ومن خلال ما نُقل، يتضح أن معجزات النبي صلى الله عليه وآله مؤكدة، حتى لو كان بعضها يتعارض مع

١ . سورة القمر، آيات ١ و ٢ ؛ الطبرسي، مجمع البيان، مترجمان انتشارات فراهاني، طهران: ١٣٦٠ ش، ١، ج٢، ص١٠.

العقل البشري في بعض الأحيان. ورغم أنه قد يصعب فهم بعض هذه المعجزات بالعقل البشري، إلا أنها لا تزال معجزات مؤكدة، وعلى الإنسان أن يقبلها بالاعتقاد والتسليم. لكن يجب أن نكون حذرين في قبول أي ادعاء بدون فحص. على سبيل المثال، فيما يتعلق بشقّ القمر، رغم أن المعجزة ثابتة، إلا أن بعض الأشخاص أضافوا إليها ما يتعارض مع العقل والحديث الصحيح ويجب رفضه.

المصادر للمزيد من الدراسة:

مطهري؛ مرتضى، نبوة.

مكارم شيرازى؛ ناصر، اعتقاد ما.

محلاتى؛ رسول، دروس من تاريخ تحليلى اسلام، جلد ٣.

عطاردى؛ عزيز، زندگانى چهارده معصومين. عليهم السلام.

محرمى؛ غلامحسن، جلوه‌هاى اعجاز معصومين (عليهم السلام).

مجلسى؛ محمدباقر، بحارالأنوار، جلد ١٨.

شيخ طوسى؛ امالى.

شيخ مفيد؛ مجالس.

صفار؛ حسن بن فروغ، بصائر الدرجات.

٤) لماذا يبدو أنّ المعجزة والكرامة قد تعطّلتا في عصرنا الحاضر؟ وهل يعود ذلك إلى تطوّر العقل البشري؟

لابدّ في البدء من تقديم مقدّمة تمهيدية:

تعريف المعجزة والكرامة

إذا ادّعى شخص، من قبل الله تعالى، النبوّةَ وارتباطَه بإله العالم، فإنّ إثبات هذا الادّعاء يقتضي منه الإتيان بفعلٍ يخرج عن نطاق النظام العادي للأسباب والمسبّبات، وأن يتحدّى الآخرين للإتيان بمثله، بحيث يعجز جميع الناس عن معارضته أو مجاراته، مع كون ذلك الفعل منسجمًا تمامًا مع مضمون ادّعائه.[1] ويُسمّى هذا الفعل معجزة. أمّا إذا صدر مثل هذا الفعل الخارق دون أن يقترن بادّعاء النبوّة، فإنّه يُسمّى كرامة.

وبعد اتّضاح مفهوم المعجزة وحدودها، يبرز السؤال: هل المعجزة في هذا العصر متوقّفة أو معطّلة؟

كما أنّ كلّ نبيّ قد أُيّد بالمعجزات لإثبات صدق دعواه، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان له أيضًا معجزات متعدّدة لإثبات نبوّته، وهذه المعجزات على نوعين:

الأوّل: معجزات كانت مخصّصة لإثبات نبوّته لأبناء عصره، كقضية انشقاق القمر وغيرها.

١ . سبحاني، جعفر، رسالت جهاني پيامبران و برهان رسالت، انتشارات مجلة مكتب اسلام، ص٧١.

والثاني: معجزات يمتلكها النبيّ ﷺ بوصفه خاتم السفراء الإلهيّين، وحامل أكمل وأتمّ شريعة إلهيّة، موجّهة إلى جميع البشر في كلّ الأزمنة.

ويُعدّ القرآن الكريم أعظم معجزة إلهيّة موجّهة إلى العالمين كافّة، وهو معجزة جامعة تستوفي جميع شروط الإعجاز.

فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي لم يُؤتَ بمثله من حيث أسلوب البيان، وجمال الألفاظ، وسموّ المعاني، والفصاحة والبلاغة، وسائر وجوه الإعجاز البياني والمعنوي.

كما أنّه يشتمل على دعوة صريحة إلى المعارضة والتحدّي؛ إذ يوجّه القرآن الكريم، في عدّة آيات، نداءه إلى البشر ليمارسوا التحدّي، فيقول تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]، أي: إن كنتم في شكّ ممّا أنزلناه على عبدنا، فأتوا بسورةٍ تماثله، واستعينوا بمن شئتم من دون الله إن كنتم صادقين في دعواكم.

إنّ فعل النبيّ الكريم منسجم تمام الانسجام مع دعواه؛ إذ كان رسول الله ﷺ يصرّح بأنّه آخر السفراء الإلهيّين، وأنّ الدين الذي جاء به هو أكمل الأديان الإلهيّة وأتمّها. وجميع هذه الدعاوى متجسّدة في المعجزة التي جاء بها؛ أي إنّ

١ . سورة البقرة، آية ٢١.

القرآن الكريم يشتمل على مجموع الأوامر والتشريعات الإلهيّة اللازمة لهداية البشر نحو السعادة إلى يوم القيامة.

فالقرآن الكريم هو أعظم معجزة للنبيّ الخاتم موجّهة إلى البشريّة جمعاء عبر التاريخ.

وبناءً على ما تقدّم، يتّضح أنّ المعجزة في عصرنا لم تتعطّل قطّ، بل إنّ القرآن الكريم ما يزال، بوصفه معجزة آخر الأنبياء، قائمًا بإعجازه، وشاهدًا راسخًا على حقّانيّة رسول الله الأكرم صلى الله عليه وآله باعتباره خاتم السفراء الإلهيّين.

بضع ملاحظات ونتائج:

١- إنّ حدوث المعجزة أو عدم حدوثها لا يرتبط بتكامل العقل البشري أو عدمه؛ فسواء بلغت العقول الإنسانيّة درجة الكمال أو بقيت قاصرة، فإنّ النبيّ لا بدّ له، لإثبات نبوّته، من الإتيان بمعجزة. فالمعجزة تمثّل الدليل والوثيقة لإثبات صدق النبيّ في دعواه، وهي من أعمّ وأوضح القرائن على صدق من يدّعي النبوّة. ويقول أبو عليّ ابن سينا: إنّ من يقبل دعوى شخص من دون برهان، فإنّما يكون قد فقد فطرته الإنسانيّة الأصيلة والسليمة، وانحرفت سريرته بفعل بعض العوامل المؤثّرة.[1]

٢- وكما تقدّم، فإنّ المعجزة ما تزال موجودة في عصرنا، وهي معجزة رسول الله صلى الله عليه وآله المتمثّلة في القرآن الكريم.

١ . النجاة، ابن سينا، ص ٣٠٤.

وبوسعنا نحن أيضًا أن نقترب من هذه المعجزة الإلهيّة طلبًا للاطمئنان القلبي، وأن نعزّز إيماننا الداخلي بالمعارف الإلهيّة من خلال التدبّر في آيات هذا الكتاب العظيم.

٥) كيف يمكن صياغة تحدّي القرآن في صورة استدلالٍ معتبر؟

من أنواع المغالطات المنطقيّة ما يُعرف بـ«طلب البرهان من الخصم». ويعني هذا النوع من المغالطة أن يطرح شخصٌ ادّعاءً مخالفًا للحقّ، ثمّ يُصرّ عليه، ويطالب الآخرين بإثبات بطلان قوله إذا خالفوه، في حين أنّ القاعدة الصحيحة تقتضي أنّ من يطرح قولًا مخالفًا لأقوال الآخرين هو المطالَب بإقامة الدليل والبرهان على دعواه، لا أن يُلقي عبء الإثبات على غيره.[١]

والأنبياء الصادقون لا بدّ أن تكون لهم علامة فارقة تميّزهم عن المدّعين الكاذبين، وتكون في الوقت نفسه وثيقةً على صدق رسالتهم. وعلى هذا الأساس، يتعيّن على كلّ نبيّ أن يأتي بمعجزة تكون شاهدًا على صدق دعوته. وكما يدلّ عليه لفظ «المعجزة» نفسه، فإنّ النبيّ ينبغي أن يمتلك القدرة على الإتيان بأعمال خارقة يعجز الآخرون عن الإتيان بمثلها. والنبيّ الذي يأتي بالمعجزة لا بدّ له أن يدعو الناس إلى المعارضة والمقابلة بالمثل، وأن يقدّم معجزته بوصفها علامة صدق دعواه، بحيث إذا استطاع الآخرون الإتيان بمثلها بطل ادّعاؤه. ويُطلق على هذا الأسلوب في الاصطلاح اسم «التحدّي».[٢]

١. خندان، علي اصغر، مغالطات، قم: بوستان كتاب، ١٣٨٨ش، ص١٣٢.
٢. مكارم شيرازي، ناصر، تفسير نمونة، ١٣٧٤ش، ص١٢٨ و١٢٩.

وقد كرّر القرآن الكريم، بوصفه معجزة نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله، في سورٍ متعدّدة[1]، الدعوة إلى المعارضة والمقابلة بالمثل، ووجّه هذا التحدّي بصراحةٍ وحزم إلى جميع البشر، وإلى كلّ من شكّ في صلته بالمبدأ الإلهيّ الخالق. ولم يقتصر القرآن على مجرّد الدعوة، بل حرّض وشجّع على هذه المواجهة أيضًا، ومع ذلك نرى أنّ المخاطَبين قد وقفوا عاجزين أمامه، ولم يتمكّنوا من الإتيان بمثله.

وعليه، فإنّ جوهر التحدّي يتمثّل في أنّ الله تعالى يخاطب نبيّه قائلًا: قل لهم إن كان هذا القرآن افتراءً نسبتُه إلى الله، وكان كلامًا من صنع البشر، وشيئًا يمكن لغيري أن يصنع مثله، فإذا كنتم صادقين وجدّيّين في دعواكم، فأتوا بعشر سورٍ من مثله. وإن عجزتم عن ذلك فرادى، فاستعينوا بغيركم، من آلهتكم التي تظنّونها معبوداتٍ لكم، والتي تلجؤون إليها عند الحاجة.[2]

ومن هنا يتّضح أنّ التحدّي القرآنيّ يشتمل على قياسٍ وبرهان، وبالتحديد على قياسٍ استثنائيّ، على النحو الآتي: «لو كان هذا الكتاب من عند غير الله، لأمكن الإتيان بمثله، لكنّ التالي باطل، فالمقدّم مثله». أي: لو لم يكن هذا الكتاب كلام الله، لكان كلامًا بشريًّا، وإذا كان بشريًّا، لكان في مقدور

١ . سورة الأسراء، آية ٨٨ / سورة هود، آيات ١٣ و ١٤ / سورة يونس، آية ٣٨.

٢ . يشير الي آية ١٣ سورة هود ؛ طباطبايي، سيد محمد حسين، الميزان، ترجمه موسوي همداني، سيد محمد باقر دفتر انتشارات اسلامي، ١٣٧٤ش، ج١٠، ص٢٤١.

البشر. وهم أمثال بعضهم بعضًا. الإتيان بمثله. لكنّ التالي باطل، إذ ثبت عجزهم عن الإتيان بمثله، فيلزم بطلان المقدّم، ويتبيّن أنّ هذا الكلام ليس كلام بشر، بل هو كلام الله.

وعلى هذا الأساس، فإنّ قياس التحدّي قائم على قاعدة «التماثل»، أي إنّ الفعل الذي يقدر عليه إنسان يمكن لسائر أبناء جنسه أن يأتوا بمثله. فإذا كان هذا الكتاب. أي القرآن. من صنع البشر، لكان في وسعكم، وأنتم بشر، أن تأتوا بكتابٍ يماثله ومعجزةٍ تشبهه. ولمّا لم تقدروا على ذلك، ثبت أنّه ليس كلامًا بشريًّا.[1]

ومن هنا يُقال إنّ التحدّي ليس طلبًا للبرهان، بل هو ضربٌ من ضروب المبارزة والتحدّي.

استناداً إلى ما ذُكر، نستنتج أن طلب البرهان من المخالف الذي وُصف كنوع من المغالطة هو في الواقع تعبير عن ادعاء يتعارض مع كلام الآخرين، مع طلب من الآخرين تقديم دليل لإثبات كلامهم أو دحض أقواله. لكن فيما يتعلق بالتحدي، لا ينطبق هذا الأمر، حيث أن النبي قد جاء بكلام من الله تعالى إلى الناس. وقد آمن به كثيرون وقبلوا، بينما رفضه آخرون مدّعين أن هذا الكلام ليس من عند الله. هنا، القرآن لا يقول "قدّموا دليلاً على كلامكم"، بل يقول: "إن كنتم تدّعون أن هذا الكلام بشري، فأنتم أيضاً يمكنكم أن تأتوا بمثله". وهذا

١ . جوادي الآملي؛عبدالله، قرآن در قرآن. تفسير موضوعي قرآن كريم، قم: مركز نشر الأسراء، ١٣٨٢ش، ج١، ص١٢٨.

يختلف تماماً عن طلب البرهان من المخالف. بناءً على ذلك، ما ينبغي قوله عن التحدي هو أن التحدي، كما تم توضيحه، هو منطق ونوع من القياس الاستثنائي على النحو التالي:

إذا كان هذا الكتاب كلاماً بشرياً، فإنه بإمكانكم أن تأتوا بمثله.

ولكنكم لا تستطيعون أن تأتوا بمثله (رفع التناقض).

إذن هذا الكتاب ليس كلاماً بشرياً (النتيجة: رفع المقدم).

وقد تم هنا أيضاً استخدام قاعدة التماثل.

المصادر للمزيد من الدراسة:

مغالطات، علي أصغر خندان، ص١٣٢.

ترجمة تفسير الميزان، موسوي همداني، ج١، ص٩٣، إعجاز القرآن.

٦) من الصحيح أن القرآن معجزة، ولكن لماذا لا يُظهر الله معجزات من نفس نوع معجزات عصر موسى أو عيسى عليهما السلام، وهي التي يمكن أن تكون أكثر إدراكًا للمجتمع العام؟

تمامًا كما أن النبي محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء وأكملهم، فإنه من حيث القدرة على إظهار المعجزات، يمتلك القدرة نفسها التي كانت للأنبياء السابقين. أي أنه كان يملك القدرة على إبطال السحر والشعوذة، وكان بإمكانه إحياء الموتى وشفاء الأعمى منذ ولادته، بالإضافة إلى امتلاكه نفس قدرة النبي سليمان عليه السلام، حيث كانت الحيوانات تُطيع أمره وكان يستطيع التحدث بلغة الحيوانات.

الجواب التفصيلي على هذا السؤال يُقدّم على النحو التالي:

ماهية المعجزة: لطالما واجه البشر عبر التاريخ أعمالًا خارقة للطبيعة، أظهرت من قبل بعض الأشخاص. هذه الأعمال الخارقة للطبيعة أثارت دائمًا إعجاب البشر وأحيانًا كانت سببًا في إيمانهم بشخص أو شيء ما، أو في إنكارهم له. كان الأنبياء الإلهيون يطلقون على هذه الأعمال الخارقة اسم "آية" أو "معجزة"، ويحثون الآخرين على التحدي لإظهار مثلها، معتبرين إياها دليلاً على صدق نبوتهم.

ومع ذلك، كان هناك من يعارض حجج الأنبياء الإلهيين، حيث قاموا أيضًا بأعمال خارقة للطبيعة كانت تُسمى سحرًا، وأحيانًا كان الناس يختلط عليهم الأمر في التفريق بين الحق والباطل. وكان الأنبياء يواجهون هذا السحر ويفسدونه

لإثبات حقيقة رسالتهم. ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما حدث في قصة موسى عليه السلام مع سحرة فرعون.

في القرآن الكريم، لم يتم استخدام مصطلح "المعجزة" بل استُخدمت كلمات مثل: "آية"، "بينة"، "برهان"، و"سلطان" للإشارة إلى الأعمال الخارقة التي قام بها الأنبياء. ومع ذلك، فإن المصطلح الشائع المستخدم في هذا السياق هو "المعجزة"، وقد فسّر العلماء هذه الكلمات القرآنية بمعنى المعجزة واستخدموها على هذا النحو.[1]

أما لماذا لا يبعث الله معجزات مشابهة لمعجزات عصر موسى وعيسى عليهما السلام في هذا الزمان؟ فإن الإجابة على هذا السؤال تُعرض على النحو التالي:

إذا كان المقصود من "هذا الزمان" هو زمن النبي محمد صلى الله عليه وآله وعصر حياته، فالإجابة هي أن الأمر ليس أن النبي لم يكن يملك معجزات من نفس نوع معجزات الأنبياء السابقين أو أنه لم يكن قادرًا على إتيانها، بل إن النبي محمد صلى الله عليه وآله، باعتباره خاتم الأنبياء وأكملهم، كان يمتلك القدرة على إظهار أي نوع من المعجزات بإذن الله تعالى.

تُذكر بعض الروايات في هذا السياق، ومنها:

قال أبو بصير: دخلت على الإمام محمد بن علي الباقر والإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام، فقلت لهما: "هل أنتم

١. الصفهاني، محمد علي، پژوهشي در اعجاز علمي قرآن، قم: انتشارات كتاب مبين، ١٣٨١ش، ص٥٤.

ورثة رسول الله صلى الله عليه وآله؟" فقالا: "نعم". فقلت: "هل كان رسول الله صلى الله عليه وآله وارثًا للأنبياء، وهل كان يعلم ما كان يعلمونه؟" فقالا: "نعم". فقلت: "هل تستطيعون إحياء الموتى، وشفاء العميان منذ ولادتهم، والمصابين بالجذام؟" فقالا: "نعم، باذن الله نستطيع...".[1]

وقال الإمام الصادق عليه السلام: "إن موسى عليه السلام في آخر عمره أُمِرَ أن يخبئ الألواح التي نزلت عليه من الله تعالى في جبل، فأخفى تلك الألواح حتى وصلت إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله، فقام بتسليمها إلى أمير المؤمنين عليه السلام، واليوم تلك الألواح في يدنا، وكذلك عصا موسى بين أيدينا. نحن ورثنا من جميع الأنبياء".[2]

استنادًا إلى هذه الروايات، يمكن القول إن النبي محمد صلى الله عليه وآله كان يمتلك معجزات مشابهة لتلك التي كانت لدى الأنبياء السابقين، حيث أن الأئمة الأطهار، الذين هم ورثة النبي صلى الله عليه وآله ، كانوا يمتلكون باذن الله تعالى القدرة على إحياء الموتى، وشفاء الأعمى منذ ولادته، وعلاج المصابين بالجذام. لذا، كان من الطبيعي أن يمتلك النبي محمد صلى الله عليه وآله هذه القدرات المعجزية، وقد وردت في كتب التاريخ والسيرة العديد من هذه المعجزات التي حدثت على يديه.

أما إذا كان المقصود "بهذا الزمان" هو العصر الحالي والمجتمع المعاصر، فإن الجواب هو أنه لم يعد هناك نبي في

١. الصفار، حمد، بصائر الدرجات، طهران: موسسة أعلمي، ص٢٨٩، ١٣٧٤ش.
٢. العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، طهران: مكتبه العلمية، ج٢، ص٢٨.

زماننا ليظهر معجزات من نوع معجزات الأنبياء السابقين. ومع ذلك، فإن القرآن الكريم يعتبر معجزة النبي محمد ﷺ الدائمة والسرمدية، التي ستظل قائمة إلى الأبد، ولا يستطيع أي شخص في هذا الزمن أو في العصور القادمة أن يأتي بمثلها. بل، ليس فقط عاجزين عن إتيان مثلها، بل إنهم حتى غير قادرين على تحريفها أو إبطالها. لو لم يكن القرآن معجزة خالدة، لكان من الممكن في عصرنا الحالي، مع تقدم العلوم في الفصاحة والبلاغة والأدب، أن يأتي الناس بمثل القرآن أو على الأقل يحرفونه. ومع ذلك، من المؤكد أنهم عاجزون عن ذلك في جميع الجوانب.

من جهة أخرى، فإن إعجاز القرآن يختلف عن معجزات الأنبياء السابقين في كونه معجزة عامة يمكن للجميع فهمها والتفاعل معها. ولكن تختلف قدرة الناس على فهم هذه المعجزة بناءً على استعداداتهم العقلية والفكرية. كما قيل في هذا السياق: "رغم أن القرآن يظهر أن إعجازه يكمن في فصاحته وبلاغته بالنظر إلى مهارة العرب في العصر الجاهلي في علوم الأدب، إلا أنه بعد نزوله أصبح معجزة لكل البشرية، ويمكن للجميع الاستفادة منه وفقًا لاستعداداتهم الفكرية وقدراتهم على الفهم".[1]

١ . معرفت، هادي، التمهيد، قم: موسسة نشر اسلامي، ج٤، ص١٨٠.

المصادر للمزيد من الدراسة:

إعجاز القرآن، العلامة طباطبائي.

دراسة في إعجاز القرآن، محمد علي أصفهاني.

القرآن الكريم من منظور الإمام رضا عليه السلام، عبدالله جوادي آملى.

٧) هل كان للنبي محمدﷺ معجزات أخرى غير القرآن الكريم؟

تاريخ البشرية مليء بالأحداث التي تتعلق بادعاء الكذب والتزوير من قبل مدعي النبوة وغير الصادقين. هؤلاء الأشخاص غالبًا ما كانوا يسعون للهيمنة على الناس، مستغلين الفطرة الإنسانية في ميلها نحو الخالق والآخرة، فادعوا النبوة زورًا لخداع الناس. ولتمييز الأنبياء الحقيقيين عن المدعين الكاذبين، هناك علامات وأدلة واضحة، وأحد هذه الأدلة هو المعجزة، بمعنى أن المدعي للنبوة يجب أن يكون قادرًا على إظهار عمل خارق للطبيعة، وهو أمر لا يستطيع أي من البشر، حتى العباقرة منهم، مجابهته.

أول من أثار هذا الموضوع كان المسيحيون، حيث ادعوا بهدف تقليل مكانة النبي محمدﷺ ورفع شأن دينهم، أن النبي لم يكن له معجزة سوى القرآن الكريم، وأنه كان يتحداهم بالقرآن فقط. وعندما كان يُطلب منه إظهار معجزة أخرى، كان يشير إلى كتابه الكريم. ولكن، بما أن النبي محمدﷺ قد وصف نفسه بأفضل الأنبياء وخاتمهم، فهل من المنطقي أن يكون أفضل من غيره وفي نفس الوقت يفتقر إلى المعجزات التي كانت عند الأنبياء السابقين، أو أقل منها؟ لا يمكن للمرء أن يدّعي التفوق على الآخرين في صفات الكمال، وفي الوقت نفسه يفتقر إلى بعض هذه الصفات.

معجزات النبي محمد ﷺ من منظور القرآن الكريم:

شق القمر:

قال الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾[1].

في تفسير هذه الآية، يذكر المفسرون الإسلاميون مثل الزمخشري في كتاب "الكشاف"، والطبرسي في "مجمع البيان"، والفخر الرازي في "مفاتيح الغيب"، أنه عندما طلب مشركو قريش من النبي محمد ﷺ أن يُظهر معجزة تثبت نبوته، طلبوا منه أن يشق القمر. فسألهم النبي ﷺ: "إن فعلتُ هذا، هل ستؤمنون؟" فأجابوا: "نعم". عندئذٍ دعا النبي ﷺ الله تعالى، فاستجاب الله لدعوته، فأشار النبي ﷺ بإصبعه، فانشق القمر إلى نصفين، وقال: "اشهدوا".[2]

المعراج:

رحلة النبي محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في نصف الليل، دون استخدام وسائل النقل المعاصرة، كانت معجزة عظيمة تفوق قدرة البشر. وقد

١ . سورة القمر، آيات١-٢.

٢ . الطبرسي، فضل؛ مجمع البيان، بيروت، داراحياء اتراث العربي، ١٣٧٩ه ق، ج٥، ص١٨٦/ابن جرير الطبري، محمد، جامع البيان، بيروت، دارالفكر، ١٤١٥ه ق، ج٢٧، ص١١٢ / ابن الجوزي، عبدالرحمن، زاد المسير في علم التفسير، بيروت، دارالفكر، ١، ١٤٠٧ه ق، ج٧، ص٢٤٢.

أثبت القرآن الكريم هذه المعجزة للنبي ﷺ[1] ودافع عنها بشدة في سورة النجم، حيث ذكر تفاصيل المعراج وتأكيد أن هذه الحادثة لم تكن مجرد رؤيا بل حدثًا حقيقيًا وقعت فيه معجزة إلهية.[2]

المباهلة مع أهل الباطل:

قصة مباهلة النبي ﷺ مع مسيحيي نجران مذكورة في القرآن الكريم في سورة آل عمران.[3] عندما قرر نصارى نجران أن يدخلوا في المباهلة مع النبي ﷺ، كانت طريقة حضور النبي ﷺ إلى ساحة المباهلة كفيلة بأن تثنيهم عن الدخول فيها، حيث تركوا هذه المباهلة ولم يجرؤوا على قبولها. بل إنه حتى في حياة النبي ﷺ لم يجرؤ أحد على المباهلة معه.

المشركون يرون معجزاته ﷺ ولكنهم يصفونها بالسحر:

تشير بعض آيات القرآن إلى أن المشركين وأصحاب الأوثان، عندما كانوا يرون معجزة أو آية من النبي ﷺ، كانوا يصفونها بالسحر.[4] وقد اعتبر المفسرون الإسلاميون الآيات ١٤ و١٥ من سورة الصافات شاهدًا على أن النبي ﷺ كان له معجزات أخرى غير القرآن الكريم، وأن المشركين لم يعترفوا بها بل اتهموها بالسحر المستمر.

١ . سورة الأسراء، آية ١.
٢ . سورة النجم، آيات ١٣.١٨.
٣ . سورة آل عمران، آية ٦١.
٤ . سورة الصافات، آيات ١٤-١٥.

النبي محمد ﷺ كان يمتلك بينات:

تشير الآية ٨٦ من سورة آل عمران إلى أن النبي ﷺ كان يمتلك بينات، والمقصود بالبينات هنا هو المعجزات. كلمة "بينة" تحمل معنى واسعًا، ومن بين مصاديقها المعجزة، وقد وردت في العديد من الآيات للإشارة إلى معجزات الأنبياء. على سبيل المثال، في الآية ٧٣ من سورة الأعراف، قال النبي صالح عليه السلام: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ. . .﴾ أي أن معجزة الله كانت في صورة ناقة، وهو ما يُظهر أن "البينة" يمكن أن تُستخدم للإشارة إلى المعجزات.

النبي محمد ﷺ كان يخبر بالغيب:

كان القرآن الكريم يُعتبر أحد معجزات النبي محمد ﷺ في إخبارهم بالأمور الغيبية.[١] وقد نقل النبي ﷺ من خلال الوحي الإلهي أخبارًا عن أحداث غيبية كثيرة، أكثر من أن يتم سردها جميعًا في هذا المقام.[٢] ومن بين تلك الأخبار الغيبية التي أخبر بها النبي ﷺ: انتصار الروم بعد هزيمتهم[٣]، وفاة أبي لهب وزوجته أم جميل على الكفر[٤]، موت الوليد بن المغيرة

١ . سورة آل عمران، آية ٤٩.
٢ . سبحاني، جعفر، مفاهيم القرآن، قم: موسسة سيدالشهدا العلمية، ج٣، ص٥٠٣.٥٠٨، ١٤٠٧ هـ ق.
٣ . سورة الروم، آيات ٢ - ٦.
٤ . سورة المسد، آيات ١ – ٥.

على الشرك[1]، وهزيمة قريش في معركة بدر[2]، وغيرها من الوقائع التي أثبتت صدق نبوته وعظمته ﷺ.

معجزات النبي محمد ﷺ في الأحاديث الإسلامية:

تشير الأحاديث الإسلامية إلى أن النبي محمد ﷺ لم يكن لديه القرآن فقط كمعجزة، بل كان له العديد من المعجزات الأخرى التي أيدت نبوته وصدقه. وقد ألف العلماء المسلمون العديد من الكتب التي تناولت هذه المعجزات. على سبيل المثال، في كتاب "إثبات الهداه بالنصوص والمعجزات" الذي ألفه العلامة الحر العاملي، تم نقل عشرين ألف حديث عن معجزات النبي محمد ﷺ والأئمة الطاهرين، مع سبعين ألف سند.[3]

من الكتب الأخرى التي تناولت معجزات النبي ﷺ كتاب "الثاقب في المناقب"، حيث تم الإشارة فيه إلى معجزات عديدة، مثل: إخبار النبي بالغيب، إحياء الموتى، طاعة الأشجار والصخور للنبي، هطول المطر بدعائه، تحدث الحيوانات والجمادات، وشفاء المرضى[4]، وغيرها من

١ . مكارم شيرازي، ناصر، تفسير نمونة، طهران: دارالكتاب الاسلامية، ج٢٥، ص٢٢٨.

٢ . مكارم شيرازي، ناصر، تفسير نمونة، طهران: دارالكتاب الاسلامية، ج٢٣، ص٦٧، ذيل آية ٤٥ سورة القمر.

٣ . سبحاني، جعفر، مفاهيم القرآن، قم: موسسة سيدالشهدا العلمية، ج٣، ص٢٠١، ١٤٠٧ هـ ق.

٤ . الطوسي، ابوجعفر محمد بن علي بن حمزة، الثاقب في المناقب، بيروت، دارالزهرا، ط١، ص ٥٣-١٠٦، ١٤١١ هـ ق.

المعجزات العظيمة التي أظهرت قدرة النبي ﷺ على إحداث أحداث خارقة للطبيعة.

المصادر للمزيد من الدراسة:

أبو نعيم الأصفهاني، دلائل النبوة، (بيروت: دار النفائس، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ ق).

قطب الدين الراوندي، الخرائج، (قم: مؤسسة الإمام المهدي، ١٤٠٩ هـ ق)، ص ٢١-١٧٠.

محمد باقر محمودي، كشف الرمّس عن حديث رد الشمس، (قم: مؤسسة معارف إسلامية، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ ق).

علي عاملي ينباطي، الصراط المستقيم إلى مستحق التقديم، (المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، ج١، باب ٣، فصل ٥، ص ٥٥).

علم النبي الأعظم صلى الله عليه وآله

هل يمكننا القول بإن النبي الأعظم وأهل بيته يمتلكون علماً كاملاً؟ وإذا كان الجواب نعم، فما معنى قوله تعالى: «قُل رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا» التي توجه إلى النبي الأعظم؟

من بين السمات البارزة للأنبياء والأئمة، نجد اتساع معرفتهم ووعائهم المعرفي في مختلف المجالات والمسائل. وفي هذا الجواب، سنتناول أبعاد العلم والمعرفة التي تميزهم بناءً على آيات القرآن الكريم بشكل مختصر.

أ) المعرفة الشاملة بالتشريع الإلهي

أولى مراحل العلم والمعرفة عند الأنبياء، والتي تعد من اللازميات الملازمة لمقام النبوة، هي المعرفة الشاملة بالتشريع الإلهي، أي المعرفة بما هو ضروري وملائم لتحقيق هدف البعثة. إن الهدف من بعثة الأنبياء هو تعليم الناس، وإقامة العدل والقسط في المجتمع، وهدايتهم إلى التوحيد والإيمان بالله الواحد. وبطبيعة الحال، يجب أن يكون الأنبياء على درجة عالية

من المعرفة ليتمكنوا من أداء هذه المهمة الجليلة.[1]

ب) المعرفة الكاملة بملاك التشريع

تعد المعرفة بالتشريع كعملة ذات وجهين: الأول يتضمن الأحكام، بينما الثاني يتضمن الملاك الذي تقوم عليه تلك الأحكام. ومن الواضح أن أفعال الله تعالى ليست عبثاً أو بلا هدف، بل إن التشريعات الإلهية، كونها نوعاً من أفعاله، تحكمها ملاكات معينة. وكان الأنبياء، بناءً على ذلك، على دراية بتلك الملاكات.[2]

ج) العلم بالغيب

من بين العلوم التي امتلكها الأنبياء، وخصوصاً الأئمة الأطهار، هو علم الغيب.

عند دراسة آيات القرآن الكريم، نلاحظ أن هناك ثلاث مجموعات من الآيات التي تتعلق بعلم الغيب:

المجموعة الأولى: آيات تقتصر علم الغيب على الله سبحانه فقط.[3]

المجموعة الثانية: آيات تنفي علم الغيب الكامل عن الأنبياء، بما في ذلك النبي محمد ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿قُل

١ . سورة البقرة، آية ٢٥١ / سورة يوسف، آية ٢٢ / سورة الأنبياء، آية ٧٤ / سورة القصص، آية ١٤.

٢ . سبحاني، جعفر، منشور جاويد، موسسة امام الصادق عليه السلام، ١٣٧٠ش، ص ١٩٣.

٣ . سورة الأنعام، آية ٥٩.

لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ...﴾.[1]

المجموعة الثالثة: آيات تُثبِتُ علمَ الغيب للأنبياءِ ولعبادِ اللهِ الصّالحين (الأئمة المعصومين)، كما في قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ...﴾.[2] إن الله تعالى هو العليم بالغيب، ولا يُطلع على غيبه أحداً من خلقه إلا من يشاء من رسله. ومن خلال جمع الآيات يمكننا الاستنتاج أن المراد من الآيات في الفئتين الأولى والثانية هو أن علم الغيب ذاتياً وأصلياً لله تعالى، وهو مالك الغيب الحقيقي. أما الآيات في الفئة الثالثة، فإنها تشير إلى أن الأنبياء، بواسطة تعليم الله لهم من خلال الوحي والإلهام، يُطلعون على علم الغيب. وكذلك يمكن لبعض الأشخاص المختارين من البشر، بتأييد من الله تعالى وفضله، أن يكون لهم اتصال بهذا العلم الغيبي. ولكن يجب أن نلاحظ أيضاً أن بعض أسرار الغيب تخص الله تعالى وحده، مثل علم وقت قيام الساعة، والبرزخ، والجنة، ولا يعلمها أحد سوى الله. أما بعض العلوم الغيبية الأخرى فقد علّمها الله تعالى لخاصّته من أوليائه، كما أشار أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة إلى أن بعض العلوم الغيبية خاصة بالله تعالى، ولا يعلمها سواه، بينما البعض الآخر منها علّمها الله للنبي صلى الله عليه وآله، وقد علّم

١. سورة الأنعام، آية ٥٠.
٢. سورة الجن، آية ٢٦.

النبي صلى الله عليه وآله إياها للأئمة المعصومين عليهم السلام.[1]

الأئمة المعصومون، تبعاً للنبي محمد صلى الله عليه وآله، الذين هم أصحاب علم الغيب، يمتلكون علم الغيب كذلك. وكذلك فإن علمهم في أحكام الدين وملاكاته يتفق مع علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم. لذلك، فإن علمهم المعطى لهم لا يختلف عن علم الأنبياء.

وقد ورد في الآية ١١٤ من سورة طه، في بيان مشابه للآية ١١٣ من سورة النساء، قوله تعالى:﴿. . . وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. أي لا تعجل في تلاوة القرآن قبل أن يتمّ عليك الوحي، وقل: "ربي زدني علماً". ومن معنى قوله «رب زدني علماً»، يتبين ما ورد في قوله تعالى في الآية ١١٣ من سورة النساء: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾، أي أن الله تعالى يعلّمك ما لم تكن تعلمه، فيحثّ على السعي المستمر لطلب زيادة العلم، ولذلك يذكر في "مجمع البيان" أن عائشة نقلت عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «إذا مرّ عليّ يوم ولم أزد فيه علمًا يقربني إلى الله، فلا يبارك الله لي في ذلك اليوم».[2]

وفي "تفسير نمونه" نجد أن النهي عن العجلة في تلقي الوحي قد يثير توهماً بأن هناك نهيًا عن طلب العلم الإضافي، إلا أن الجملة التالية «قُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا» تزيل هذا الظن، إذ أن العجلة في تلقي الوحي ليست مطلوبة، لكن السعي لزيادة

١ . نهج البلاغة، خطبة/١٢٨.

٢ . ترجمه مجمع البيان، مترجمان، انتشارات فراهاني، ١٣٦٠ش، ج١٦، ص٧٧.

العلم هو أمر لازم وضروري.

وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام، نقرأ أنه قال لأحد أصحابه: «إننا في كل ليلة جمعة نشعر بفرح خاص»، فسأله الصحابي: «ما هذا الفرح؟»، فأجاب الإمام: «عندما تحلّ ليلة الجمعة، تذهب الأرواح الطاهرة للنبي الأكرم والأئمة عليهم السلام معنا إلى عرش الله، ولا تعود أرواحنا إلى أجسادنا إلا بعد أن تُضاف إلى علمنا معرفة جديدة، وإذا لم يكن ذلك، فإن علومنا ستكون قد انتهت».[1]

من خلال هذه الروايات والمواضيع السابقة، يتبين أن علوم الأئمة، وكذلك الأنبياء، رغم أنها ليست مكتسبة بل هي موهبة من الله تعالى، إلا أن هذا العلم الموهوب ليس دفعيًا بل هو تدريجي. من هنا، يوجه الله تعالى في القرآن الكريم إلى النبي الأكرم قائلاً: ﴿قُل رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. ذلك لأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، رغم كمال علمه، هو من جنس البشر، وكلما زاد علمه، فإنه لن يصل إلى العلم اللانهائي الإلهي. كما يشير الله تعالى في الآيات الأخيرة من سورة لقمان إلى أن العلم هو شيء خاص بالله تعالى وحده، فيقول: ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[2]

١. مكارم شيرازي، ناصر، تفسير نمونة، دارالكتب الاسلامية، ١٣٧٤ش، ج١٣، ص٣١٤.
٢. سورة لقمان، آية ٣٤.

تُظهر هذه الآية أن المعرفة بشأن وقت قيام الساعة، ونزول المطر، ومعرفة ما في الأرحام، وما سيقوم به الإنسان في المستقبل، وأين سيموت، كلها من الأمور التي هي في علم الله وحده ولا يمكن لأحد غيره أن يعلمها. وقد أكدت الروايات التي وردت في تفسير هذه الآية هذه الحقيقة. ففي نهج البلاغة، عندما كان الإمام علي عليه السلام يُخبر ببعض الأحداث المستقبلية، قال له أحد أصحابه: "يا أمير المؤمنين، هل تتحدث عن الغيب؟ هل أنت على علم بالغيب؟" فأجاب الإمام مبتسمًا وقال: "يا أخا الكلبي! هذا ليس علم غيب، بل هو علم تعلمته من عالم (النبي). علم الغيب هو علم الساعة فقط، وما ذكره الله تعالى في هذه الآية (٣٤ من سورة لقمان)". ثم قال بعد أن قرأ الآية: «الله سبحانه وتعالى يعلم ما في الأرحام، هل هو جميل أم قبيح؟ سخي أم بخيل؟ سعيد أم شقي؟ من سيكون في نار جهنم؟ ومن سيكون في جنة أصدقاء الأنبياء؟». هذه أمور لا يعلمها إلا الله تعالى.[1]

من خلال هذا الفهم، يمكننا أن نستنتج أن علم النبي والأئمة ليس كاملاً وغير محدود، بل إن العلم غير المحدود هو خاص بالله تعالى وحده. علاوة على ذلك، فإن هذا العلم، بما في ذلك علم الغيب، هو موهبة من الله وليست معرفة مكتسبة. كما أن هذا العلم الموهوب للنبي كان تدريجيًا وليس دفعيًا. لذلك، يوجه الله تعالى النبي صلى الله عليه وآله قائلاً: «طلب

١ . نهج البلاغة، خطبة ١٢٨.

زيادة العلم»، ليزداد علمه يومًا بعد يوم.

المصادر لمزيد الدراسة:

تفسير نمونه، ج١٣، ص٣١٤.

نهج البلاغة، الخطبة ١٢٨.

منشور جاويد، جعفر سبحاني، ج١٠، مؤسسة الإمام صادق عليه السلام.

بالنظر إلى أمية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، هل كان يعلم القراءة والكتابة حتى عند وفاته؟

إن الإجماع قائم تقريبًا على أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان أميًا، ولم يتعلم القراءة والكتابة قبل أن يصل إلى مقام النبوة. وقد ورد ذلك في بعض آيات القرآن الكريم. ففي قوله تعالى: «وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ»[1]، نلاحظ التصريح بعدم قدرة النبي على القراءة أو الكتابة قبل نزول القرآن، وذلك لكي لا يشك المبطلون في القرآن ويزعموا أنه من تأليفه.

كما ورد في سورة الجمعة قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ...﴾[2] أي أن الله تعالى هو الذي بعث في أمة لا تعلم القراءة والكتابة نبيًا منهم.

أغلب علماء الشيعة يتفقون على أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن يعلم القراءة والكتابة قبل بعثته. وقد أشار الشيخ الطوسي[3] في تفسيره إلى أن مذهب علماء الشيعة جميعهم هو أن النبي صلى الله عليه وآله كان أميًا قبل أن يُبعث. أما أغلب أهل السنة، فيعتقدون أن النبي صلى الله عليه وآله كان غير قادر على القراءة والكتابة، مع أن هناك من يعتقد أنه كان بإمكانه القراءة والكتابة، ولكن الله لم يسمح له بذلك.

---

١. سورة العنكبوت، آية ٤٨.
٢. سورة الجمعة، آية ٢.
٣. الطوسي، محمد بن حسن، التبيان، قم: بوستان كتاب، ج٨، ص٢١٦، ١٤٠٩ق.

وقد نقل القرطبي عن بعض العلماء قولهم: «الرأي الصحيح في هذا المسألة هو أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكتب حرفًا واحدًا، كما أنه لم يقرأ شيئًا قط».[1]

لكن هناك اختلاف بين علماء الشيعة في ما يتعلق ما إذا كان النبي صلى الله عليه وآله قادرًا على القراءة والكتابة أم لا.[2] فقد ذهب بعضهم إلى أن النبي كان يملك القدرة على القراءة والكتابة، لكن لم يقرأ أو يكتب أبدًا.[3] ويستند هؤلاء إلى رواية ينقلها الإمام الجواد عليه السلام، حيث قال: «كيف لا يكتب وهو الذي يقول الله تعالى في كتابه: هو الذي بعث في الأميين رسولًا منهم ليتلو عليهم آياته. . . »[4]، ثم يستنتج قائلاً: «فكيف يعلّم ما لا يعرفه؟ والله لقد كان يكتب بسبعين أو بسبعين وثلاث لغات».[5]

وعلى الرغم من أن هذه الرواية قد تكون محل خلاف من حيث السند، إلا أنها تظل دالة على أن ما فعله النبي من تعليم كان بقدرة إلهية ومعجزة، وليس من خلال تعلم طبيعي للقراءة والكتابة.[6]

١ . القرطبي، الجامع لاحكام القرآن، بيروت، دار احياء التراث العربي، ١٤٠٥ق، ج١٣، ص٣٥٢.
٢ . الطوسي محمد بن حسن، المبسوط في فقه الامامية، طهران: المكتبه الرضوية، ج٨، ص١٢٠؛ التبيان، ج٨، ص٢١٦.
٣ . المجلسي، محمد باقر، بحارالانوار، بيروت، موسسة الرسالة، ج١٦، ص١٣٤، ١٤٣٠ق.
٤ . يشير الي آية ٢ سورة الجمعة.
٥ . شيخ الصدوق، معاني الاخبار، قم: موسسة النشر الاسلامي، ص٥٤.
٦ . العاملي، سيد جعفر مرتضي، الصحيح من سيرة النبي الاعظم، بيروت،

بعض العلماء يعتقدون أنه لا يمكن إصدار حكم قطعي بشأن هذه المسألة. السيد المرتضى في هذا السياق يقول: "من هذه الآية (العنكبوت/ ٤٨)، يظهر أنه كان النبي صلى الله عليه وآله قبل بعثته لا يعرف القراءة والكتابة بشكل جيد، لكن بعد النبوة، لا يمكننا أن نؤكد بشكل قطعي عن أي من الحالتين، سواء كان قد تعلم القراءة والكتابة أو لا."

النتيجة

يبدو أنه لا يمكن تقديم حكم قاطع في هذا الموضوع. إذ يعتقد بعضهم أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم يكن يعرف القراءة والكتابة سواء قبل البعثة أو بعدها. بينما يعتقد آخرون أن النبي بعد البعثة قد اكتسب هذه القدرة، وإن لم يكن قد مارس الكتابة أو القراءة في الواقع.[1]

مصادر للمزيد من الدراسة:

مطهري، مرتضى: "النبي الأمي".

سيرة صحيح النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ترجمة سپهري.

المركز الاسلامي للدراسات، ج١٦، ص١٢١، ١٤٢٨ق.

١ .الطبرسي، مجمع البيان، ج٤، ص٢٨٧.

عصمة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله

١) هل هناك دليل عقلي على عصمة الأنبياء؟ وإذا لم يكونوا معصومين، فما هي المشكلة؟

مسألة عصمة الأنبياء تُناقش في محورين رئيسيين: الأول هو عصمتهم من المعصية، والثاني هو عصمتهم من الخطأ والزلل. يُعبَّر عن الأولى بعصمة عملية، وعن الثانية بعصمة علمية. هذه المسألة تُعد من القضايا الأساسية التي تناولها العديد من العلماء الدينيين بالبحث والنقاش. وفيما يلي بعض الأدلة العقلية على عصمة الأنبياء:

الهدف من بعثة الأنبياء

نظرًا لأن الهدف من بعثة الأنبياء هو هداية البشر إلى الحقائق والواجبات التي حدّدها الله سبحانه وتعالى للبشر، وأن الأنبياء وأوصياءهم هم خلفاء الله في الأرض ومكلفون بإبلاغ دينه وهداية الناس، فإنه إذا كان الأنبياء أنفسهم لا يلتزمون بتعاليم دينهم ويقعون في الزلات العلمية

والعملية، فإن الناس لن يثقوا بهم، وبالتالي لن تتحقق أهداف البعثة. ولذلك، فإن حكمة الله ولطفه يقتضيان أن يكون رسله معصومين في كل من العقل النظري والعقل العملي، بحيث لا يرتكبون المعصية أو الذنب، بل لا يمكن أن يُصابوا بأي سهو أو نسيان في ساحتهم الطاهرة.

مسؤولية الأنبياء في التربية والتزكية

دليل عقل آخر على عصمة الأنبياء هو أنهم، بالإضافة إلى تبليغ أحكام الله، مسؤولون عن تربية الناس وتعليمهم. كما ورد في القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.[1] إن الهدف من هذه التزكية هو أن يتربى المؤمنون على الفضيلة والصلاح، ولا يمكن أن تتحقق هذه التزكية ما لم يكن المربي نفسه طاهرًا وصالحًا وخاليًا من المعاصي والنقص.[2] كما نقل قاضي عبد الجبار المعتزلي قوله: "لأن الناس لا يثقون بكلام من لا يتوافق قوله مع فعله، فإنه من الواجب أن يكون الأنبياء منزهين عن كل ما يؤدي إلى العذاب ويخرجهم عن ولاية الله".[3]

---

١ . سورة آل عمران، آية ١٦٤.

٢ . مصباح يزدي، محمدتقي، آموزش عقايد، طهران: سازمان تبليغات اسلامي، ط١، سال ١٣٦٧ش، ج٢، ص٦٧، سبحاني، جعفر، منشور جاويد، قم: انتشارات اسلامي، ج٥، ص٣٢.

٣ . سبحاني؛ جعفر، الهيات، علي هدي الكتاب و السنة و العقل، نشر المركز العالمي للدراسات الدينية، ط٢، ج٢، ص ١٥٧، ١٤١١ق.

الطاعة والاقتداء بالأنبياء

إن الطاعة والاتباع للأنبياء فرض على الناس. وإذا ارتكب الأنبياء المعصية، فسيكون أمام الناس خياران: إذا لم يتبعوا الأنبياء، فإن فائدة البعثة ستزول، لأن الله أرسل الأنبياء ليكونوا قدوة للناس في أعمالهم، وليستفيدوا من هذه القدوة في بلوغ الكمال الإنساني. وإذا اتبعوا الأنبياء في كل ما يفعلونه، حتى وإن كان ذلك مخالفة أو معصية، فإنهم سيصبحون على غير هدى. لكن من الواضح أن الأنبياء لا يدعون الناس إلى المعصية، بل جاؤوا الهداية الناس ومنعهم من الوقوع في المعاصي. وبالتالي، يتبين أن المعصية تتناقض تمامًا مع الهدف من البعثة، ولذلك لا ينبغي للأنبياء أن يرتكبوا المعاصي.[1]

نقطة أخرى هي أنه إذا لم يكن الأنبياء معصومين وارتكبوا المعصية، فسيترتب على ذلك عدة مشاكل جدية:

عدم قبول شهادتهم:

بما أن المعصية تؤدي إلى الفسق، فإن شهادة من يرتكب المعصية لا تُقبل، وهو ما يعارض الهدف من رسالتهم. فالنبي باعتباره مرسلًا من قبل الله، يجب أن يكون قدوة يُقتدى به، وبالتالي لا يمكن قبول شهادته إذا ارتكب المعصية.

١ . جوادي الآملي؛ عبدالله، وحي و نبوت، تفسير موضوعي قرآن كريم، قم: نشر مركز الأسراء، ط١، ١٣٨١ ش، ش٣، ص٢٣١.

استحقاقهم للعقاب واللعن:

إذا ارتكب النبي المعصية، فسيستحق العقاب واللعن من الله سبحانه وتعالى، وهذا يتناقض مع مقام النبوة والكرامة الإلهية الممنوحة لهم، إذ لا يُعقل أن يكون النبي قدوة للناس وهو في موضع يستحق فيه اللعن.

ج) عدم استحقاقهم لمقام النبوة:

من لا يمتلك العصمة في عمله، لا يمكن أن يصل إلى مقام النبوة، ولا يحق له أداء رسالته. كما جاء في قوله تعالى: «لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّٰلِمِينَ»[1]، حيث أن الظلم، ومنه المعصية، يمنع من نيل مقام النبوة.

الجمع والنتيجة:

إذن، من خلال النقاط السابقة، يمكننا أن نخلص إلى أن العصمة هي الشرط الأساسي لتحقيق أهداف البعثة:

العصمة هي التي تضمن اطمئنان الناس إلى الأنبياء، وبالتالي تحقق الغاية من بعثتهم.

الأنبياء، بالإضافة إلى تبليغ أحكام الدين، هم مسؤولون عن تربية البشر وتزكيتهم، وهذا يتطلب أن يكونوا معصومين من كل نقص أو خطأ.

إذا كانت الطاعة واجبة من الناس تجاه الأنبياء، فإن أي

١ . سورة البقرة، آية ١٢٤.

فعل يقوم به النبي، سواء كان معصية أم لا، يجب أن يكون نموذجًا يُحتذى به، وإلا فإن الناس سيكونون في موقف لا يُحسدون عليه.

إذا ارتكب النبي المعصية، فإن شهادته ستكون غير مقبولة، وستكون موضع لعن وعقاب، مما ينافي مقامه كنبي.

وبناءً على هذه القضايا، يُحكم العقل بأن الأنبياء يجب أن يكونوا معصومين في كل من الأبعاد العلمية والعملية؛ وإلا فإن أهداف بعثتهم لن تتحقق.

مصادر للمزيد من الدراسة:

سبحاني، جعفر، "منشور جاويد"، ج ١٠، ص ١٥٢، نشر الإمام صادق، ١٣٧٠ هـ.

سبحاني، جعفر، "منشور إمامية"، ص ١١٢، نشر مؤسسة الإمام صادق، ١٣٧٦ هـ.

علامة طباطبائي، سيد محمد حسين، "الشيعة في الإسلام"، ص ٨٥، نشر شركة انتشار، طهران: ١٣٤٨ هـ.

سبحاني، جعفر، "عصمة الأنبياء في القرآن الكريم"، ص ٥٣، نشر مؤسسة الإمام صادق، ١٣٧٦ هـ.

طباطبائي، سيد محمد حسين، "الميزان في تفسير القرآن"، ج ٢، ص ١٣٦، نشر المؤسسة العلمية للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

٢) هل يمكن نقد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؟

الهدف الرئيسي للأنبياء هو مساعدة البشر على التوجيه الصحيح لحياتهم والحركة نحو التكامل، ليتمكنوا من معرفة واجباتهم في كل حالة ويستطيعوا توجيه قواهم نحو تحقيق الهدف المطلوب، سواء كان الناس بدوًا في الصحراء أو مستكشفين في الفضاء. الهدف هو أن يعرفوا القيم الإنسانية الأصيلة ويفهموا واجباتهم تجاه العبادة لله تعالى، وتجاه أنفسهم، وتجاه الآخرين وجميع مخلوقات الله، ليصلوا من خلال هذه الواجبات إلى الكمال والسعادة الحقيقية والخلود الأبدي. من البديهي أن الناس العاديين لا يستطيعون الاستفادة المباشرة من هذه المعرفة، ولا يملكون القدرة على تلقي الوحي الإلهي، لذلك يُوكل إلى الأنبياء نقل الرسالة الإلهية.[١]

بناءً على ذلك، الهدف الأساسي من بعثة الأنبياء هو هداية البشر نحو الحقائق والواجبات التي حددها الله تعالى للبشر. الأنبياء في الواقع هم ممثلون لله في الأرض، مهمتهم هي إرشاد الناس إلى الطريق الصحيح. لذا، من الحكمة واللطف الإلهي أن يكون الأنبياء طاهرين معصومين من أي خطأ أو ذنب، وأن لا يقع منهم أي تصرف غير لائق حتى لو كان عن سهو أو نسيان، حتى لا يُسّوغ الناس لأنفسهم الأخطاء والزلّات بحجة السهو.

١ . مصباح يزدي، محمد تقي، آموزش عقائد (سه جلدي)، شركت نشر بين الملل، ١٣٨٥ش، ص١٨٨.

بالنظر إلى هذه المقدمة:

إذا كان المقصود من "النقد والمراجعة" بمعنى التسامح، أي هل يحق للمسلم، مع الاعتقاد التام بعصمة النبي صلى الله عليه وآله في قوله وفعله، أن يسأل عن سبب بعض أفعاله أو تصرفاته بهدف الاستفسار وزيادة المعرفة؟ فبالتأكيد لا مانع من ذلك، مثلما قد يسأل شخص عن سبب قبول النبي صلى الله عليه وآله صلح الحديبية، أو عن سبب توبته واستغفاره رغم عصمته، أو عن تفسير بعض الآيات التي قد تبدو متناقضة مع عصمته. في هذه الحالة، إذا كان الشخص يسعى إلى كشف الحقيقة من خلال التحليل المعقول، فإن هذا ليس فقط غير ممنوع، بل هو أمر حسن.

لكن إذا كان "النقد والمراجعة" بالمعنى المتداول والمفهوم العام، أي أن يقوم الناقد بفحص دقيق للقول والفعل من خلال تصحيح أو إبطال، فإن هذا غير جائز في حالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، الذي هو رسول الله ووكيله. لا يجوز لأي مسلم أن يمارس هذا النوع من النقد، لأن ذلك سيؤدي إلى إنكار عصمته ومن ثم إنكار رسالته، وهو ما يتساوى مع الشرك. وبالتالي، لا يمكن أن يكون النبي صلى الله عليه وآله موضوعًا للنقد بالمعنى المعتاد، لأن النبي صلى الله عليه وآله هو الأسوة والقدوة لنا، وكل ما نملكه هو ببركة وجوده المقدس. القرآن الكريم يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.[1]

١. سورة الحشر، آية ٧.

وأخيرا، لا يُنقد من يملأ شخصه وأفعاله وعقله بالسلامة التامة كما وعد الله تعالى، بل إن العقل يرفض تمامًا أن يكون له مجال للنقد أو المراجعة.

المصادر للمزيد من الدراسة:

أصول عقائد، محمد تقى مصباح يزدي.

٣) لماذا يقول الله تعالى في الآية الثانية من سورة الفتح: "لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ"؟

في تفسير هذه الآية، ذكر المرحوم الطبرسي عدة أقوال، وأشار إلى أن هذه الأقوال لا تتوافق مع العقيدة الشيعية حول عصمة الأنبياء. من بين هذه الأقوال ما نقله أهل السنة، حيث قالوا إن الله سيغفر للرسول ﷺ ما ارتكبه من ذنوب قبل النبوة وبعدها. أو أن الله وعد بغفران ما قد يصدر من النبي ﷺ من خطأ أو ذنب إذا حدث في المستقبل.[١]

العلامة الطباطبائي رحمه الله رد على هذه الأقوال وقال إن هذا الخطأ ناتج عن فهم خاطئ للذنب، حيث اعتقد البعض أن الذنب في هذه الآية يعني المعصية والعصيان. لكنه أوضح أن الذنب في اللغة هو كل عمل يترتب عليه ضرر أو ضياع نفع أو مصلحة، وليس بالضرورة أن يكون فعل معصية. كما أن مغفرة الله في هذه الآية لا تعني فقط ترك العقاب بسبب مخالفة للأوامر، بل المغفرة بمعنى "ستر" أو "تغطية" على شيء ما.

ووفقًا لهذا الفهم، فإن الذنب في الآية لا يشير إلى المعصية بمعنى الكلمة، بل إلى "الذنب" بمعنى السياسي والاجتماعي الذي كان النبي ﷺ يواجهه في وجه المعارضة من قبل المشركين. ففي زمانه، كان هناك من يرى أن دعوته

١ . الطبرسي، مجمع البيان، ترجمه مترجمان، انتشارات دارالكتب اسلامية، ج٢٣، ص١٠١.

هي "خطيئة" أو "جريمة" بحق النظام الاجتماعي والديني القائم في مكة. لذا، فإن "مغفرة" الله لذنبه تعني إزالة الآثار السلبية لهذه الدعوة في نظر المشركين، وبالأخص "إزالة الذنب السياسي" الذي كان يُنسب إليه.

وقد نقل الإمام رضا عليه السلام في مناظرة مع المأمون العباسي رواية تفسر هذا المعنى. سأل المأمون الإمام عن معنى الآية، فأجاب الإمام قائلاً: "في نظر المشركين، لم يكن هناك شخص أكثر "ذنبًا" من النبي صلى الله عليه وآله، لأنهم كانوا يعبدون ٣٦٠ إلهًا، وكان النبي صلى الله عليه وآله يدعوهم إلى التوحيد. كانت قريش تتأجج غيظًا بسبب ذلك وتحث الناس على الانتقام من النبي صلى الله عليه وآله. ولكن عندما فُتحت مكة، كانت مغفرة الله تعني إزالة هذا "الذنب السياسي"، أي منع المشركين من متابعة حملاتهم ضد النبي وأتباعه."

وعليه، فإن المقصود من "الذنب" في الآية هو ما كان يراه المشركون جريمة أو خطيئة في الدعوة الإسلامية، لا المعصية بمعنى الأخطاء الدينية أو الأخلاقية للنبي صلى الله عليه وآله. أما "مغفرة" الله، فهي تعني تجنب المشركين للانتقام أو المساس بالنبي بعد فتح مكة.[1]

١ . العلامة طباطبائي، محمد حسين، الميزان، مترجم محمد باقر موسوي، قم: انتشارات اسلامي، ١٣٦٣هش، ج١٨، ص٣٧٧.

المصادر للاطلاع أكثر:

تفسير النموذج، ناصر مكارم شيرازي، طهران: دار الكتاب الإسلامية، ج٢٢، ص١٨.

تنزيه الأنبياء، سيد مرتضى علم الهدى، قم: شريف رضى، بلا تاريخ.

نهج الحق وكشف الصدق، حسن بن يوسف (علامة حلي)، قم: دار الهجرة، أول، ١٤٠٧ هـ ق، مسألة رابعة، ص١٣٩.

٤) ما هي قصة حادثة الغرانيق التي وردت في بعض الروايات عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ؟

إن ما تم نقله بشأن الغرانيق، مثلما هو الحال مع "آيات شيطانية" لسلمان رشدي، هو كذب محض لا أساس له. هذه القصة - التي وردت في بعض كتب أهل السنة على هيئة رواية- تتعارض مع آيات القرآن الكريم ومع مقام العصمة الرفيع للنبي الكريم محمد صلى الله عليه وآله. تدور الحكاية حول ما رواه محمد بن كعب القرظي، الذي نقلها الطبري عن ابن إسحاق بواسطة يَزيد بن زياد عن القرظي، وتختصر كما يلي:

كان رسول الله صلى الله عليه وآله يرغب في جذب المشركين إلى الإسلام، وكان يتمنى أن ينزل الله آيات تحسن علاقته مع قريش. وفي هذا الوقت نزلت آيات سورة النجم إلى أن وصلنا إلى قوله تعالى: "أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى". في هذه اللحظة، قال الشيطان على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله: "تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتضى"، حيث أشاد بالآلهة الوثنية، مما أسعد المشركين. وفي اللحظة ذاتها، وصل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى آية السجدة، فسجد المسلمون والكافرون معًا.

وفي المساء، عندما نزل جبريل عليه السلام لعرض الآيات على رسول الله صلى الله عليه وآله، رفض تلك الكلمات وقال له: "لقد قرأت على الناس ما لم ينزل الله به". ثم نزلت الآية ٥٢ من سورة الحج: "وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا إذا تمنى ألقي الشيطان

في أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان". وبعد ذلك، جاءت تكملة آيات سورة النجم: "إن هذه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان".[1]

كما ذكرنا، فإن هذه الحكاية تتعارض تمامًا مع الآيات الصريحة في القرآن، حيث يقول الله تعالى في هذه الآيات:

"... ما ينطق عن الهوى[2]"؛ قسمًا بالنجوم إذا هوى، فإن حبيبكم، النبي صلى الله عليه وآله، لم يضل ولم ينحرف، ولا يقول شيئًا من نفسه.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾[3]؛ إذا كان النبي صلى الله عليه وآله قد افترى علينا بعض الأقوال لانتقمنا منه بيدنا، ثم لشقّنا قلبه.

في موضع آخر، يخاطب الله الشيطان قائلاً: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.[4]

وفي آية أخرى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَسْتَطِيعُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾.[5]

١. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الامم و الملوك، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، ج١، ص ٥٥٢، ١٤٠٨ ق.
٢. سورة النجم، آية ٣.
٣. سورة الحاقة، آية ٤٤-٤٦.
٤. سورة الحجر، آية ٤٢.
٥. سورة النحل، آية ٩٩.

وبـنـاءً على ذلـك، فـإن صحة هـذا الـحـدث، وفقًا للآيات المذكورة، ومن غير المقبول بالنسبة لمسلم مؤمن.

مـن جهة أخـرى، فيما يتعلق بالآية ٥٢ مـن سـورة الحج، بالإضافة إلى الإشـكـالات المحتوى المتعلقة بتطبيق هذه الآية على تلك الواقعة، يجب القول: إن سورة الحج من حيث الإجماع تُعد من السور المدنية، وبالتالي لا يمكن أن يكون لها ارتباط بتلك الحادثة.[١] أما راوي هـذه القصة، محمد بن كعب القرظي، فهو من قصاصين معروفين، وكان من بقايا يهود بني قريظة الذين كانوا مصدرًا لحكايات القصاص في العالم الإسـلامي.[٢] بالطبع، لهذه الحكاية طرق أخـرى، وهي غالبًا ما وصلت إلى التابعين، ولذلك فهي مرسلة في اصطلاح علماء الحديث. ولم تذكر هذه الحكاية إلا في رواية واحدة عن ابن عباس، الذي لم يكن قد وُلِد في فترة مكة، ومن ثم، فإن قوله في هذا السياق ليس حجة في المصطلح العلمي.[٣]

لقد رفض العديد مـن المؤرخين والعلماء الكبار هذا الخبر. لم ترد هذه الحكاية في سيرة ابن إسحاق ولا في سيرة ابن هشام، ولا في "الـدرر" لابن عبد البر القرطبي. وهذا يعني أن الأشخاص المذكورين لم يعرفوا سندًا صحيحًا لها. كما

١ . الطوسي، محمد بن حسن، التبيان في تفسير القرآن، بيروت، دار احياء التراث العربي، ج٧، ص ٢٨٧.

٢ . جعفريان، رسول قصة خوانان در تاريخ اسلام و ايران، قم: انتشارات دليل ما، ١٣٧٩ ش، ص ٦٨-٦٩.

٣ . البلاغي، محمد جـواد، الـهـدي الي ديـن المصطفي، طـهـران: دار الكتب الاسلامية، ط ٢، ج١، ص ١٣٠.

يقول سهيلي، شارح سيرة ابن هشام، بأن أهل الأصول يردون مثل هذه الأقوال بالحجة.[1] أما ابن حزم الأندلسي، فقد كان شديد الغضب من هذا الخبر واعتبره كذبًا محضًا. وهو يُظهر استغرابه من عقل من يقبل مثل هذه الحماقة، ويعتبر قبولها لا يليق إلا بمن هو في حالة سكر ولا يدري ما يقول.[2] من فحص طرق الحديث، قام العديد من العلماء بإعداد قائمة بالتناقضات الداخلية في هذه الرواية؛ التناقضات التي تظهر أن الرواية ملفقة منذ البداية، إذ لا ينبغي أن تكون هناك هذه التناقضات بين أولها وآخرها لو كانت الرواية صحيحة. في الواقع، إن هذا الاضطراب والخلط والتعارض يُظهر أن الجزء الكبير من هذه الحكاية قد تم اختراعه بعد أن تم ابتكار الرواية الأصلية، من قبل القصاصين الذين كانوا يرغبون في زيادة مبيعات كتبهم وحكاياتهم.[3]

كما تناول الغزالي في كتابه "فقه السيرة"[4] نقد هذه الرواية. وأكد بشكل صحيح كيف أنه من غير الممكن أن تصدر مثل هذه الآيات -آيات الغرانيق- التي تجمع بين التوحيد والشرك من لسان شخص عاقل، فكيف بالنبي صلى الله عليه وآله الذي هو أسمى وأعقل البشر ومؤسس مذهب التوحيد. واعتبر

١ . الصالحي الشامي، سبل الهدي والرشاد، قاهره، ١٣٩٢ق، ج٢، ص ٤٨٨.
٢ . ابن حزم الأندلسي، علي بن احمد، رسائل، تحقيق: احسان عباس، بيروت، الموسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٧م، ج٣، ص ٢٢٨.
٣ . جعفريان، رسول، سيرة رسول خدا. صلي الله عليه و آله ،قم: انتشارات دليل ما، ط١، ١٣٨٠ش، ص ٣٥٦.
٤ . الغزالي، محمد بن محمد، فقه السيرة، بيروت، عالم المعرفة، ص ١١٦.١١٨.

هذه الحكاية ومن أمثالها من "الإسرائيليات". والإسرائيليات تشير إلى الأخبار والنصوص التي تعود في أصلها إلى الثقافة اليهودية والنصرانية، وقد دخلت في النصوص الإسلامية من قبل يهود ونصارى أسلموا أو من قبل مسلمين تأثروا بهذه الثقافة. كما كتب السيد جعفر مرتضى العاملي في هذا السياق: "يبدو أن أصل هذا الخبر كان في البداية أن الكفار عندما كان رسول الله ﷺ يقرأ آيات القرآن، كانوا يرفعون أصواتهم بكلام فارغ لئلا يصل صوت القرآن إلى مسامع الناس. " فمن الممكن أنه عندما كان النبي ﷺ يقرأ آيات سورة النجم، قد قرأ المشركون تلك الكلمات الفارغة: "تلك الغرانيق العلى... ". يشهد على هذه الحكاية ما ذكره الكلبي في كتابه "الأصنام" عن العرب الجاهليين الذين كانوا يقولون مثل هذه الكلمات في مدح الأوثان.[1]

على أية حال، فإن هذه القصة لا تتوافق بتاتًا مع ثلاث مراحل من عصمة رسول الله ﷺ:

العصمة في تلقي الوحي.

العصمة في تبليغ الوحي.

العصمة من الخطايا، وهي من خصائص النبي الأكرم ﷺ وجميع الأنبياء الذين كان لديهم هذه المقامات من العصمة.[2]

١ . العاملي، سيد جعفر مرتضي، الصحيح من سيرة النبي الاعظم ـ صلي الله عليه و آله ـ، قم: ١۴٠٣ ق، ج٢، ص ٧١٠؛ الكلبي، الاصنام، ترجمه جلالي نائيني،طهران: ١٣۴٨ ش، ص ١٩.

٢ .الغزالي، محمد بن محمد، فقه السيرة، بيروت، عالم المعرفة، ص ١١٧.

وكمؤسف، فإن مثل هذه الأخبار لا تكاد تخلو منها مصادر بعض المحدثين من أصحاب المذهب الحشوي، كما قال الغزالي: "لا نعلم متى يجب تصحيح هذا".

المصادر للمزيد من الدراسة:

سيرة رسول الله، ميرزا عباس زرياب خويي.

تاريخ القرآن، محمود راميار.

٥) هل الآية ٣ من سورة النصر والآية ١٩ من سورة محمد، التي تم فيها تكليف النبي صلى الله عليه وآله بالاستغفار، وكذلك الآية ٢ من سورة الفتح التي تنسب الذنب إليه، تطرح أي تساؤل بشأن عصمة النبي محمد صلى الله عليه وآله؟

عصمة الأنبياء والأئمة عليهم السلام قد ثبتت بالدليل العقلي والنقلي في مواضعها الخاصة، وينبغي دراستها من خلال هذه الأدلة. أما الشبهة التي أُثيرت في السؤال، فيمكن الإجابة عليها ضمن أربع نقاط رئيسية:

أ) الآيات التي أمرت النبي صلى الله عليه وآله بالاستغفار أو التي طلب فيها النبي صلى الله عليه وآله المغفرة من الله، لا تتعارض مع عصمته، لأن أمره بالاستغفار لا يعني أنه قد ارتكب خطأ أو ذنبًا. بل هو مثل باقي المكلفين، فقد أُوكل إليه تكاليف ولا يدل التكليف على عصمة أو عدم عصمة شخص. لذا، لا يوجد أي مانع من أن يُؤمر النبي صلى الله عليه وآله بالاستغفار، حيث أن الاستغفار يعود إلى حالة الشخص نفسه. استغفار النبي صلى الله عليه وآله كان لطلب استمرار المغفرة وكمال الشكر لله، لأن كل موجود ممكن وكل كمالاته في حدوثه وبقائه تحتاج إلى فيض الله تعالى. لذلك، لو لم يكن العون الإلهي موجودًا، لكان يوسف عليه السلام قد وقع في الخطأ، لأن ارتكاب الذنب من المعصومين محال عادي وليس محال عقلي، وبمساعدة الله تجنب الوقوع في الذنب.[1]

١ . العلامة طباطبائي، محمد حسين، الميزان، دفتر انتشارات اسلامي، ١٣٧٤ش، ج٢٠، ص ٦٥٢.

بمعنى آخر، استغفار النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام كان لدفع احتمال وقوع الذنب أو الغفلة، لا للتوبة عن ذنب ارتكبوه. في القرآن الكريم، نجد العديد من الآيات التي تتحدث عن مغفرة الله لأشخاص لم يرتكبوا ذنبًا، لأنهم لم يكن عليهم تكليف. مثل المستضعفين[1] الذين كان طريقهم إلى النجاة من الكفر مغلقًا، والذين كانوا معذورين في الجهاد[2]، وأيضًا الذين اضطروا إلى تناول الحرام.[3] من هذه الآيات يمكن أن نستنتج أن صفة المغفرة لله مثل صفة الرحمة والهدى، التي تتعلق بالأمور التكوينية والتشريعية، أي أن الله في بعض الأحيان يغفر الذنوب وفي أحيان أخرى يتجاوز عن الوضع التشريعي الذي يتطلب التشريع، وأحيانًا أخرى يتجاوز عن نزول البلاء والمصائب، لأن الحوادث والمصائب لا تكون دائمًا نتيجة للذنب، وبالتالي لا يمكن القول بأن الله يغفر ذنوب الناس بشكل دائم.

استغفار الأنبياء في القرآن لا يعني نقصًا في عصمتهم، لأن الله في القرآن يصف بعض عباده بـ"المخلصين"، وهو يعني أنهم في مأمن من وسوسة النفس وشيطان، وعليه فإن الشيطان يعجز عن إغوائهم.[4] وقد ورد في القرآن عن بعض الأنبياء مثل إبراهيم ويعقوب وإسحاق وغيرهم أنهم من

١. سورة النساء، آية ٩٨.
٢. سورة المائدة، آية ٣٤.
٣. سورة المائدة، آية ٣.
٤. سورة الحجر، آية ٤٠.

المخلصين. ومن ناحية أخرى، من هؤلاء المخلصين[1] الذين هم في مأمن من الذنب، نجد في القرآن أن بعضهم طلب المغفرة من الله[2] أو تم تكليفهم بالاستغفار.[3]

لو كان طلب المغفرة من الأنبياء دليلًا على عدم عصمتهم، لكان من المستحيل جمع ذلك مع كونهم من المخلصين، وفي هذه الحالة يجب القول - والعياذ بالله - أن القرآن متناقض، لأنه من جهة يعتبرهم من المخلصين، ومن جهة أخرى يقول إنه يجب عليهم الاستغفار من ذنوبهم، مع أن القرآن خالٍ من أي تناقض، فقد نفى الله طريق الباطل عن القرآن وأثبت عصمته بالدليل القطعي.[4]

علاوة على ذلك، إذا لم يكن النبي صلى الله عليه وآله معصومًا من الخطأ بسبب الآيات التي تم الإشارة إليها في السؤال، لكان من اللازم أن يأمر الله الناس بطاعة من ليسوا بمنأى عن الخطأ. وهذا أمر محال من الله الحكيم، إذ نرى أنه أمر بطاعته وبطاعة رسوله[5]، كما قال: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾.[6]

وإذا كان النبي صلى الله عليه وآله، الذي هو حجة الله، يجوز له الخطأ وأن

١. سورة ص، آية ٤٦.
٢. سورة ابراهيم، آية ٤١.
٣. سورة النصر، آية ٣/ سورة محمد، آية ١٩.
٤. سورة النساء، آية ٨٢/ سورة الحجر، آية ٩/ سورة فصلت، آية ٤٢.
٥. سورة النساء، آية ٥٩.
٦. سورة الحشر، آية ٧.

يدعو الناس إلى الخطأ في بعض الأحيان ثم يلقي اللوم على الشيطان، فإن ذلك ينقض غرض البعثة وإتمام الحجة، إذ من أهداف إرسال الأنبياء هو إتمام الحجة، وهذا الغرض لا يتحقق إلا إذا كان الأنبياء والأئمة عليهم السلام معصومين.

ب) ليس كل ذكر للذنب والمغفرة في القرآن يحمل المعنى المعتاد عند الناس من مخالفة للتكاليف الإلهية والمغفرة ورفع العقاب. فالذنب والمغفرة اللذان نسبا إلى النبي صلى الله عليه وآله في بعض الآيات لا يُفهمان بالمعنى العرفي، بل هما بمعنى يدركه فقط ذوق المحبة والعشق. فالإنسان عندما يصل تعلقه بالمحبوب الحقيقي إلى حد الشغف، فإنه حتى مشاغل الحياة الضرورية مثل الأكل والنوم قد يعتبرها ذنبًا، لأن هذه الأمور، رغم ضرورتها، تعتبر شغلًا اختياريًا بغير الله، وبالتالي هي مَحلّ خجل وندم للمحبّ المخلص لله.

العبودية الناشئة عن الحب تدفع العبد إلى مرحلة لا تبقى فيها إرادة لشيء سوى ما يريده الله، وفي هذه الحالة يشعر الإنسان أن أي التفات إلى نفسه يعتبر ذنبًا عظيمًا، وأنه لا يمكن إزالة هذه الحواجز إلا بمغفرة الله. ولهذا، فإن الأنبياء والأئمة عليهم السلام كانوا أكثر من يستغفر، كما وردت أمثلة من استغفار بعض الأنبياء، بما فيهم خاتم المرسلين، في القرآن الكريم.[1]

١ . العلامة طباطبايي، الميزان، ج٦، ص٥٣٣.

أما فيما يتعلق بالآية الثانية من سورة الفتح، حيث يوجد ارتباط ظاهر بين الفتح المبين والمغفرة لذنب النبي ﷺ، (لأن مضمون الآيتين ١ و ٢ يبين أن الله قد منح النبي فتحًا مبينًا ليغفر له ذنبه السابق واللاحق)، نعلم أن الفتح المبين والمغفرة للذنب بمعناه الاصطلاحي ليس لهما أي ارتباط مباشر، ولذلك يجب تفسير هذا الذنب بالمعنى اللغوي. "الذنب" في اللغة يعني آثار وفوائد العمل السيء أو العواقب الوخيمة، و"المغفرة" تعني التغطية والستر.

وفقًا للمعنى اللغوي والاصطلاحي لهذه الكلمتين، يمكننا القول أن قيام النبي ﷺ بالدعوة إلى الله ونضاله ضد الكفر والشرك قبل الهجرة كان عملًا ذا آثار خطيرة على النبي، وكان يشكل تهديدًا ومصدرًا للمشاكل. وكان هذا العمل يعتبر "ذنبًا" في نظر الكفار، وكان مشركو قريش حتى لو تمكنوا من ذلك، لن يخصوا النبي بالمغفرة، بل كانوا يرونه مستحقًا للأذى. لذا، كان قيام النبي ﷺ ضد الكفر يعتبر ذنبًا، وكانت عواقب هذا العمل في المستقبل تشمل المخاطر المترتبة على قتال المشركين في معركة بدر وأحد. ولكن الله بفضل الفتح المبين (فتح مكة أو صلح الحديبية) قد أخذ شوكة المشركين من أيديهم، وبهذا الستر غطى الذنوب التي كان يراها المشركون في حق النبي ﷺ، وأبطل العقوبات التي كانت ستترتب عليه من قبلهم، وأعطاه الأمان من شر قريش. قد يشير هذا المعنى إلى قوله تعالى على لسان

موسى في القرآن: ﴿لِفِرْعَوْنَ عَلَيَّ ذَنبٌ أَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي﴾[1]، في حين أن موسى عليه السلام كان قد دفع الشر عن المظلومين ودافع عنهم، لكن أفعاله كان لها نتائج سلبية من فرعون.[2]

ج) فيما يتعلق بالوهم بعدم عصمة النبي صلى الله عليه وآله بناءً على الآيات الأولى من سورة "عبس" بسبب اللوم الذي فيها، فالإجابة على ذلك هي أن بعض المفسرين من أهل السنة على الرغم من اعتبارهم للعقاب الوارد في الآية مرتبطًا بالنبي صلى الله عليه وآله، فإنهم يذكرون أن النبي صلى الله عليه وآله كان مشغولًا بالدعوة إلى الإسلام مع بعض المشركين عندما دخل "ابن أم مكتوم" وقام بقطع حديث النبي عدة مرات، مما أزعجه. لكنهم يؤكدون أن هذه الانزعاجات لا تؤثر على عصمة النبي صلى الله عليه وآله، وأن النبي لم يرتكب ذنبًا. بل على العكس، كان قد ترك أفضل الأفعال على سبيل الاحتياط، ولكن هذا الفعل أدي إلى توهم أن النبي صلى الله عليه وآله كان يفضل الأغنياء رغم أنهم مشركون على الفقراء، ولذلك تعرض للعتاب من الله، لكن في النهاية، لا يجوز الاستدلال بهذه الآية على عدم عصمة الأنبياء.[3]

ثانيًا، دلالة الآيات الأولى من السورة على أن الشخص الذي تعرض للعتاب هو النبي صلى الله عليه وآله ليست واضحة. بل هي ببساطة تحكي عن شخص عبس في وجه فقير عندما دخل، ولم يكن

١. سورة الشعراء، آية ١٤.
٢. العلامة طباطبايي، الميزان، ج١٨، ص٣٨١.
٣. فخرالدين الرازي، ابوعبدالله محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (تفسير كبير)، دار احياء التراث العربي؛ بيروت؛ ١٤٢٠ق، ج١٦، ص٥٦.

هذا العمل مناسبًا لشخصية النبي ﷺ، الذي كان معروفًا بأخلاقه الطيبة حتى مع المشركين. فقد مدحه الله على أخلاقه الحميدة بشكل عام[1]، ومن المستحيل أن يتناقض هذا المدح مع نهي الله له في هذا السياق. وبالتالي، يمكن القول بأن الشخص الذي تعرض للعتاب ليس هو النبي ﷺ، وتدعم ذلك الرواية التي تقول إن شأن نزول الآيات الأولى من سورة "عبس" يتعلق بشخص من بني أمية كان عبس وجهه عند دخول "ابن أم مكتوم".[2]

د) الجواب على وهم عدم عصمة النبي ﷺ بسبب اللوم الوارد في الآية الأولى من سورة التحريم هو أن هذا اللوم في الواقع موجه إلى زوجات النبي ﷺ وليس إلى النبي ذاته. ولتوضيح ذلك، فإن الآية الرابعة من نفس السورة تتحدث عن انحراف وتعاون امرأتين من زوجات النبي ضدّه، وتدعوهما إلى التوبة. وتبين الروايات الواردة في تفسير الآية أن المقصود بالمرأتين هما حفصة وعائشة، اللتان كانتا غاضبتين من علاقة النبي مع زوجته الأخرى "مارية القبطية"، وكانتا تسببان أذى للنبي ﷺ، وكانتا تطلبان منه أن يقسم ألا يلتقي بمارية القبطية. ونتيجة لهذا الأذى، أقسم النبي ﷺ أنه لن يلتقي بمارية القبطية، فحرّم على نفسه ما كان حلالًا له. بعد ذلك، وجه الله تعالى خطابه إلى النبي ﷺ قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَا تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾. وعلى الرغم من أن هذا الخطاب

١. سورة القلم، آية ٤.
٢. العلامة طباطبايي، الميزان، ج٢٠، ص٣٣١.

يبدو موجهًا إلى النبي صلى الله عليه وآله، إلا أن العتاب في الحقيقة موجه إلى عائشة وحفصة، حيث يُسألان لماذا يمنعان النبي صلى الله عليه وآله من فعل ما هو حلال له، ولماذا يسببان له الأذى.

هذا النوع من الكلام يشبه مثلًا مشهورًا يُقال: "أقول للباب، اسمعي يا جدار"، أو "أقول لابنتي، اسمعي يا زوجتي". وفي الروايات، جاء أن الكثير من خطابات القرآن نزلت بناءً على هذا النوع من الأمثال. ومن الأمثلة على ذلك في القرآن، ما ورد عن الله تعالى عندما قال لعيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ؟﴾.[1] في هذه الآية، يظهر أن اللوم موجه إلى المسيحيين الذين عبدوا عيسى عليه السلام، رغم أن الخطاب كان موجهًا ظاهريًا إلى عيسى عليه السلام.[2]

المصادر للمزيد من الدراسة:

تفسير الميزان ذيل آيات: النصر / ٣، التحريم / ١، الفتح / ٢، عبس / ١، محمد / ١٩.

تفسير نمونه ذيل الآيات نفسها.

جوادي آملي، عبد الله، التفسير الموضوعي، ج ٩، ص ٤٢ وما بعدها.

١ . سورة المائدة، آية ١١٦.

٢ . العلامة طباطبايي، الميزان، ج١٩، ص ٥٥٣؛ و جوادي الآملي، عبد الله، تفسير موضوعي، مركز نشر اسرا، ١٣٨٢، ج٩، ص ٤٢.

٦) لماذا ورد في القرآن:﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾؟ وهل تختلف طاعة الله عن طاعة الرسول ﷺ؟

إنّ التوحيد يشتمل على مراتب، كما في توحيد الذات، وتوحيد الخالقية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية التكوينية، ومن أهمّ مراتبه التوحيد في الربوبية التشريعية؛ أي إنّه بعد الإيمان بأنّ خالقنا هو الله، وأنّ زمام الوجود وتدبير شؤون الحياة بيده استقلالًا، يجب أن نعتقد بأنّه لا يملك أحدٌ غيره حقّ الأمر والتشريع وسنّ القوانين للإنسان. فالقانون لا يكتسب شرعيته إلّا بإمضائه وإذنه.[١] وتكمن أهمية هذه المرتبة من التوحيد في أنّ من أراد أن يُعَدّ من الموحّدين والمسلمين، فلا بدّ أن يؤمن بها.[٢] ومن منظور القرآن، فإنّ الموحّد هو الذي يحصر واجب الوجود في الله وحده، ويؤمن به خالقًا، وربًّا تكوينيًّا، وربًّا تشريعيًّا، وإلهًا ومعبودًا في آنٍ واحد.[٣]

والدليل الواضح على ذلك ما قصّه القرآن مرارًا وبلهجة مؤكِّدة من قصة إبليس؛ إذ كان معتقدًا بخالقية الله، بدليل أنّه حينما خاطبه الله تعالى قائلًا: لِمَ لَمْ تَسجُدْ لآدم؟ أجاب:

١ . مصباح يزدي، محمد تقي، معارف قرآن (خداشناسي)، قم: موسسة آموزشي و پژوهشي امام خميني، ط١، ١٣٧٦ش، ص٤٩.
٢ . مصباح يزدي، محمد تقي، معارف قرآن (خداشناسي)، قم: موسسة آموزشي و پژوهشي امام خميني، ط١، ١٣٧٦ش، ص٤٩.
٣ . مصباح يزدي، محمد تقي، معارف قرآن (خداشناسي)، قم: موسسة آموزشي و پژوهشي امام خميني، ط١، ١٣٧٦ش، ص٥٤.

﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾[1]؛ أي إنّك خلقتني من نار وخلقته من طين، وأنا خيرٌ منه، فلماذا أسجد له؟ كما كان مؤمنًا بالربوبية أيضًا، إذ قال: ﴿قال ربّ بما أغويتني لأزينن لهم﴾[2]، فذكر الله بوصفه ربًّا. وفي موضع آخر يقول: ﴿ربّ فأنظرني إلى يوم يبعثون﴾[3]، فيطلب من الله إمهاله إلى يوم القيامة ليُغوي بني آدم، وهو ما يدلّ على إيمانه بالمعاد كذلك. ومع امتلاك إبليس لجميع هذه الاعتقادات، فقد سقط؛ لأنّه تمرّد على أمر الله بالسجود لآدم، أي إنّ مشكلته كانت في الإيمان بالربوبية التشريعية، مع أنّ حقّ الطاعة المطلقة إنّما هو لله وحده، فإذا أمر وجب الامتثال. ومن هنا فإنّ إبليس لم يسقط إلّا بسبب عصيانه أمر الله.[4]

وعلى هذا الأساس، فإنّ الذي تجب طاعته في عالم الوجود هو الله وحده، ولا تكون طاعة غيره إلّا بإذنه؛ إذ لا تتحقّق مراتب التوحيد المختلفة إلّا ضمن هذا الإطار. وبناءً على هذه المقدّمة، يمكن في الجواب عن السؤال المطروح ذكر وجهين:

الأوّل: إنّ طاعة الله تقتضيها خالقيته وحاكميته اقتضاءً ذاتيًّا، أمّا طاعة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله فهي ثمرة أمر الله نفسه؛ وبعبارة أخرى، فإنّ طاعة الله واجبة بالذات وبالاستقلال، في

١. سورة الأعراف، آية ١٢.
٢. سورة الحجر، آية ٣٩.
٣. سورة الأعراف، آية ١٤.
٤. سورة الأعراف، آيات ٦٠-٦٢.

حين أنّ طاعة النبيّ واجبة بالغير وبأمر الله. ولعلّ تكرار لفظ ﴿أطيعوا﴾ في الآية الكريمة إنّما جاء للإشارة إلى اختلاف نوع الطاعتين.[1]

الثاني: وهو الوجه الذي ذكره العلّامة الطباطبائي في الميزان، حيث يقول: لا شكّ في أنّ الله تعالى — في الآية الشريفة من سورة النساء (الآية ٥٩) — إنّما أراد بطاعة نفسه طاعة ما أوحاه، وما وصل إلينا عن طريق رسوله.

أمّا الرسول، فإنّ له مقامين متميّزين:

الأوّل: مقام التشريع، وهو أنّه يبيّن للناس ما أوحاه الله تعالى إليه. غير القرآن ؛ ووفقًا لهذا المقام يقوم بتفصيل المجمل وشرح الكلّيات الواردة في الكتاب الإلهي، وتقديمها للناس بصورة واضحة ومبيّنة، كما قال الله تعالى:﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزّل إليهم﴾[2].

الثاني: مقام الرأي والنظر، أي إنّه يحكم بما يراه صوابًا؛ وهذا من شؤون مقامه في الحكم والقضاء وإدارة المجتمع، كما أشارت إليه الآية الشريفة بقوله تعالى:﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾.[3]

وعلى هذا الأساس، فإنّ لطاعة الرسول معنى خاصًّا،

١ . مكارم شيرازي، ناصر، تفسير نمونة، دارالكتب الاسلامية، طهران: ج٣، ص ٤٣٥.
٢ . سورة النحل، آية ٤٤.
٣ . سورة النساء، آية ١٠٥.

ولطاعة الله معنى آخر، وإن كانت طاعة الرسول في حقيقتها عين طاعة الله؛ لأنّ الله تعالى هو الذي أوجب طاعة الرسول، كما قال سبحانه:﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلّا ليُطاع بإذن الله﴾.[1] وبناءً عليه، فإنّ طاعة الرسول في هذين المقامين واجبة على الناس.[2]

وهذا المعنى ،أي اختلاف مورد الطاعة بين الله والرسول، هو الذي أدّى إلى تكرار الأمر بالطاعة في الآية. فإعادة لفظ الطاعة، أوّلًا، إنّما جاءت من حيث إنّ طاعة الله واجبة بالذات وبالاستقلال، في حين أنّ طاعة الرسول واجبة بالغير، وبسبب أمر الله تعالى. وثانيًا، لأنّ المراد من طاعة الله هو الامتثال للمعارف والأحكام الإلهية التي وصلت من عنده إلى النبيّ، ثمّ إلى البشر، بينما المراد من طاعة الرسول هو طاعته في بيان الأحكام الكلّية وتفصيلها، وكذلك في آرائه وأحكامه المتعلّقة بشؤون الحكم والقضاء.

١ . سورة النساء، آية ٦٤.

٢ . طباطبايي، سيد محمد حسين، تفسير الميزان، قم: ط جامعه مدرسين، ج٤، ص٣٨٨.

٧) هل تتنافى حادثة الخطبة الأخيرة للنبيّ صلى الله عليه وآله، وما ورد فيها من قوله: «من كان له حقّ عندي فليأتِ فليقتصّ»، مع عصمته؟

إنّ الإيمان بعصمة الأنبياء الإلهيّين. عليهم السلام. عن الذنوب العمديّة والسهوية، يُعدّ من العقائد القطعيّة والمشهورة عند الشيعة، وقد علّم الأئمّة الأطهار عليهم السلام أتباعهم هذا المبدأ. ويعتقد الشيعة الإماميّة الاثنا عشريّة أنّ الأنبياء معصومون منذ بدء ولادتهم إلى نهاية حياتهم عن جميع الذنوب، كبيرها وصغيرها، وأنّه لا يصدر منهم ذنب لا عن عمد ولا عن سهو ونسيان. وليس المقصود من العصمة مجرّد عدم ارتكاب الذنب، إذ قد يترك الإنسان العادي الذنب أيضًا، وإنّما المراد امتلاك المعصوم ملكةً نفسيّةً راسخةً وقويّة، تحول بينه وبين الوقوع في المعصية حتّى في أشدّ الظروف. وهذه الملكة ثمرة وعيٍ تامّ ودائم بقبح الذنب، وإرادةٍ قويّةٍ قادرةٍ على كبح الميول النفسيّة.

وعليه، فإنّ مقتضى العصمة هو ترك الأفعال المحرّمة عليه، فالمقصود بالذنب الذي يكون المعصوم مصونًا عن ارتكابه هو ما يُسمّى في الاصطلاح الفقهي «حرامًا». أمّا لفظ «الذنب» وما في معناه، كـ«العصيان»، فهو أوسع دلالة، وقد يشمل ما يُعرف بـ«ترك الأولى»، وارتكاب هذا القبيل من الأمور لا يتنافى مع العصمة.[1]

١ . مصباح يزدي، محمد تقي، آموزش عقايد (سه جلدي)، طهران: شركت ط و

وبالنظر إلى هذه المقدّمة، يمكن القول في الجواب عن السؤال المطروح: إنّ عصمة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله لا تتعارض مطلقًا مع خطبته الأخيرة التي عرض فيها نفسه للقصاص، وطلب من الناس أن يتقدّم كلّ من كان له حقّ أو مظلمة عليه ليقتصّ منه. فمجرد أن يضع الإنسان نفسه موضع القصاص، ويطلب من الآخرين استيفاء حقوقهم، لا يعني بالضرورة أنّه قد أضاع حقًّا أو ارتكب ذنبًا، حتّى يُتوهَّم التعارض مع العصمة. بل إنّ الشخص المعصوم، المصون عن الذنب، قد يُقدم على مثل هذا الفعل بدافع تربية الناس وتعليمهم، وإظهار التواضع، وإعلاء شأن حقوق العباد، وإبراز عصمته وطهارته عمليًّا، وترسيخ هذا المبدأ بوصفه شرطًا لازمًا لا يُتهاون فيه في القيادة الإلهيّة والدينيّة، وضمان استمراره في قادة الأمّة من بعده، فضلًا عن حثّ الناس على النزاهة والطهارة الأخلاقيّة، وهو قدوتهم وإمامهم.

ومن هذا المنطلق كان بلال، مؤذّن النبيّ صلى الله عليه وآله، يصرخ في أزقّة المدينة دون تكلّف: «من كان له قصاص فليأخذه في الدنيا قبل يوم القيامة؛ هذا محمد صلى الله عليه وآله يقتصّ لنفسه قبل القيامة». وفي سياق هذا التعليم النبوي، وتحت ذريعة طلب القصاص، سنحت الفرصة لسوادة، فقرّب شفتيه من بطن النبيّ صلى الله عليه وآله وقبّله، ونال دعاءه الشريف له بقوله: «اللهمّ اعفُ عن سوادة بن قيس.»

نشر بين الملل، ١٣٨٥ش، ص١٩٧.

وعلى هذا الأساس، فإنّ طلب النبيّ الأكرم ﷺ القصاص من الناس لا يعني أنّه ارتكب ذنبًا أو تعلّقت بذمّته مظلمة لأحد، بل كان غرضه الوحيد تعليم الأمّة والتنبيه إلى أنّ حقوق الناس لا تُغفر ولا تُسقط إلّا بأدائها أو باسترضاء أصحابها. وبناءً عليه، فلا يوجد أيّ تعارض أو منافاة بين هذا الموقف وعصمته الشريفة.

٨) لماذا يأمر اللهُ تعالى في الآية الأولى من سورة الأحزاب النبيَّ الأكرم صلى الله عليه وآله بالتقوى؟ وهل كان يُخشى عليه أن يخطئ؟ وكيف تنسجم هذه الآية مع عصمته؟

لفهم معنى الأمر الإلهي بالتقوى الموجَّه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، لا بدّ من التدقيق في تتمّة الآية نفسها. يقول الله تعالى في الآية الأولى من سورة الأحزاب:﴿يا أيّها النبيّ اتّقِ الله ولا تُطع الكافرين والمنافقين إنّ الله كان عليمًا حكيمًا﴾.[١]

ومن خلال التأمّل في هذه الآية يتّضح أنّ الأمر بالتقوى، بل ومصداقه في هذا السياق، هو عدم طاعة الكافرين والمنافقين، أي عدم الإصغاء إلى أقوالهم أو الامتثال لمقترحاتهم، وهذا في حدّ ذاته ليس ذنبًا. وبيان ذلك أنّ للتقوى مراتب متعدّدة؛ فالتقوى عند بعض الناس تعني اجتناب الكبائر، وعند آخرين تعني اجتناب الصغائر، وعند فئة ثالثة تعني الابتعاد عن الشبهات، وهكذا. ومن هنا تختلف حقيقة التقوى بين العامّة والخاصّة، بل بين مراتب أهل الإيمان أنفسهم، كما قيل: حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين.

وقد بيّن الإمام الخميني قدس سره أنّ للورع مراتب كثيرة؛ فورع العامّة هو اجتناب الكبائر، وورع الخاصّة اجتناب المشتبهات خوفًا من الوقوع في المحرّمات، وورع أهل الزهد اجتناب المباحات التي قد تجرّ إلى التفاخر أو التعلّق، وورع

١. سورة الأحزاب، آية ١.

أهل السلوك ترك الالتفات إلى الدنيا للوصول إلى باب الله ومشاهدة جماله، وورع الأولياء اجتناب التوجّه إلى الغايات.[1]

كما ذكر المرحوم الملا مهدي النراقي ﷺ أنّ بعض العلماء قسّموا الورع والتقوى من المحرّمات الإلهيّة إلى أربع درجات:

الأولى: ورع أهل العدالة، وهو الاجتناب عمّا يستلزم الفسق والخروج عن العدالة.

الثانية: ورع الصالحين، وهو الاجتناب عن الشبهات.

الثالثة: الاجتناب عن الأفعال التي يُخشى أن تفضي إلى الحرام أو إلى شبهة محرّمة.

الرابعة: ورع الصدّيقين، وهو الاجتناب عن كلّ ما ليس لله.

ونُقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: إنّ التقوى على ثلاث درجات:

الأولى: التقوى خوفًا من النار والعقاب، وهي ترك الحرام، وهي تقوى العامّة.

الثانية: التقوى من الله لا خوفًا من النار، وهي ترك الشبهات، وهي تقوى الخاصّة.

الثالثة: التقوى في الله، وهي ترك بعض المباحات خشية الوقوع في الشبهة.[2]

---

١ . موسوي خميني، سيد روح الله، شرح چهل حديث، موسسة تنظيم و نشر آثار امام خميني ﷺ، ١٣٨٠ش، ص ٤٧٤.

٢ . النراقي، ملامهدي، جامع السعادات، ترجمه مجتبوي، سيد جلال، قم: انتشارات حكمت، ١٣٧٧ش، ج ٣، ص ٢٣٩.

ومن مجموع هذه البيانات يتّضح أنّ التقوى ليست ذات مصداق واحد في جميع الموارد ولدى جميع الأشخاص، ومن ثمّ فإنّ الظنّ بأنّ كلّ أمرٍ إلهيّ بالتقوى موجَّه إلى النبيّ صلى الله عليه وآله يدلّ على وقوعه في الذنب أو إمكان صدوره منه، ظنٌّ باطل.

وبعد أن تبيّن أنّ الأمر بالتقوى في حقّ النبيّ صلى الله عليه وآله لا يدلّ على صدور ذنب منه، يبقى السؤال: ما المراد من هذا الأمر الإلهي؟ وقد تقدّم أنّ الجواب يتّضح من خلال التدقيق في سياق الآية كاملة. فقول الله تعالى:﴿ولا تُطع الكافرين والمنافقين﴾ يكشف عن أنّ الكافرين كانوا قد عرضوا على رسول الله صلى الله عليه وآله اقتراحًا أو طلبًا لم يكن مرضيًّا عند الله سبحانه، ومن هنا جاء التنبيه الإلهي للنبيّ بأن لا يُصغي إلى ذلك الطلب ولا يستجيب له.

وقد أوضح العلّامة الطباطبائي (رحمه الله) أنّ جمع الكافرين والمنافقين في سياق النهي عن الطاعة يدلّ على أنّ الكافرين كانوا يطلبون من النبيّ أمرًا مخالفًا لما أراده الله، وأنّ المنافقين. وهم في ظاهرهم من المسلمين. كانوا يؤيّدون الكافرين ويُلحّون على النبيّ في قبول اقتراحهم. وكان ذلك الأمر ممّا قضى الله بعلمه وحكمته بخلافه، ونزل الوحي الإلهي مخالفًا له أيضًا. كما يُفهم أنّ المسألة كانت ذات أهميّة بالغة، بحيث كانت الأسباب الظاهريّة قد تسير في غير صالح الحكم الإلهي، لولا تدخّل العناية الإلهيّة. ومن هنا أُمِر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يمتنع عن إجابة الكافرين، وأن يلتزم بما أوحي إليه، وألّا يخشى أحدًا، وأن يتوكّل على الله.

وبهذا البيان تتأيّد الروايات الـواردة في شأن نـزول الآية، حيث ذُكر أنّ جماعة من سادة قريش ورؤسائهم جاؤوا بعد وقعة أُحد إلى المدينة، وطلبوا من النبيّ الأمان، واقترحوا عليه أن لا يتعرّض لهم ولا لعبادتهم للأصنام، على أن لا يتعرّضوا له ولا لدعوته إلى التوحيد، فنزلت الآيات تأمره بعدم الاستجابة لهم، فامتنع رسول الله ﷺ عن قبول طلبهم.[1]

وعلى هذا الأسـاس، فإنّ الأمر بالتقوى في هذه الآية هو في حقيقته نـوعٌ من التنبيه الإلهي لرسول الله ﷺ، أي: كن على حذرٍ ويقظةٍ لئلّا يقع مثل هذا الأمر، لا أنّه نهيٌ عن ذنب أو تحذير من معصية.[2]

ومن مجموع ما تقدّم يمكن استخلاص النتائج الآتية:

إنّ للتقوى مراتب متعدّدة، وتختلف تقوى العامّة عن تقوى الخاصّة، وعن تقوى الأولياء والأنبياء، فالمعنى الذي نفهمه نحن من التقوى ليس هو بعينه ما يدركه الأنبياء منها. ومن ثمّ فإنّ أمر الله نبيَّه بالتقوى لا يعني أنّه ارتكب ذنبًا أو أنّه يُحذَّر من الوقوع في المعصية.

وبالالتفات إلى شأن نزول الآية الأولى من سورة الأحزاب، يتّضح أنّ الأمر بالتقوى في حقّ النبيّ ﷺ يعني: عدم الإصغاء

١. .طباطبايي، سيد محمد حسين، ترجمه الميزان، موسوي، سيد محمد باقر، دفتر انتشارات اسلامي، ١٣٧٤ش، ج١٦، ص٤٠٩.

٢. همداني، سيد محمد حسين، انوار درخشان، كتابفروشي لطفي، ١٤٠٤ق، ج١٣، ص٥١.

إلى اقتراحات الكافرين والمنافقين وعدم قبولها، وأنّ هذا الأمر جاء على سبيل التنبيه والإيقاظ، لا على سبيل النهي عن الذنب، وهو منسجم تمام الانسجام مع عصمته الشريفة.

المصادر للمزيد من الدراسة:

١. تفسير نمونه، آيت الله مكارم شيرازى، دارالكتب الإسلامية، ١٣٧٤ش، ج١٧، ص١٨٧ و ١٨٨.

٢. ترجمة تفسير الميزان، ج١٦، ص٤٠٩.

٩) في ضوء قوله تعالى:﴿يا أيّها النبيّ لِمَ تُحرِّمُ ما أحلَّ اللهُ لكَ تبتغي مرضاتِ أزواجك واللهُ غفورٌ رحيم﴾**، أليس تحريمُ الحلال الإلهيّ أمرًا بعيدًا عن الإنسان المعصوم؟!**

المقدّمة

تُعدّ العصمة من أهمّ شؤون الأنبياء والأئمّة وخصائصهم. ويعتقد علماء الشيعة، استنادًا إلى الأدلّة العقليّة والنقليّة، أنّ النبيّ يجب أن يكون معصومًا من كلّ خطأٍ أو اشتباه، سواء في تلقّي الوحي الإلهي أو في تبليغه إلى الناس. كما يجب أن يكون الأنبياء والأئمّة معصومين من جميع الذنوب، صغيرها وكبيرها، عمديّها وسهويّها، قبل النبوّة والإمامة وبعدهما على السواء.

أدلّة العصمة

الدليل الأوّل: إنّ الغاية الأساسيّة من بعثة الأنبياء هي هداية البشر إلى الحقائق والواجبات التي حدّدها الله تعالى لهم، فهم في الحقيقة سفراء الله بين الناس، ومهمّتهم إرشادهم إلى الصراط المستقيم. فإذا لم يكن هؤلاء المبعوثون ملتزمين بتعاليم الله، وكان سلوكهم مخالفًا لمضمون رسالتهم، فسيرى الناس تناقضًا بين أقوالهم وأفعالهم، ويفقدون الثقة بهم، وبذلك لا تتحقّق الغاية من بعثتهم على الوجه المطلوب. ومن هنا تقتضي الحكمة الإلهيّة واللطف الربّاني أن يكون الأنبياء أطهارًا معصومين من الذنب.

وهذا الدليل يثبت عصمة النبيّ عن كلّ ذنب، كبيرًا كان أو صغيرًا، عمديًّا أو سهويًّا، قبل البعثة أو بعدها؛ لأنّ أدنى ذنبٍ. ولو كان سهويًّا وقبل البعثة. يُسيء إلى مقام النبيّ بمقداره، ويُضعف ثقة الناس به، مع أنّ المطلوب هو ثقة كاملة لا يشوبها أدنى شكّ أو تردّد.

الدليل الثاني: إضافةً إلى مهمّة تبليغ الوحي وبيان الشريعة، فإنّ الأنبياء مكلّفون بتزكية الناس وتربيتهم وقيادتهم، تربيةً شاملةً تشمل حتى أرقى وأكمل أفراد المجتمع. وهذه المهمّة العظيمة لا تليق إلّا بمن بلغ أعلى مراتب الكمال الإنساني، وهو مقام العصمة. ثمّ إنّ أثر سلوك المربّي في تربية الآخرين أعمق من أثر كلامه، فمن كان سلوكه مشوبًا بنقصٍ أو خلل، لا يكون لكلامه التأثير المطلوب. ولذلك لا تتحقّق الغاية الإلهيّة من بعثة الأنبياء كمربّين للمجتمع إلّا إذا كانوا مصونين من كلّ زلّة في القول والعمل.[1]

كما أنّ مجرّد التقوى والاجتناب عن الذنوب، ما لم يبلغ حدّ العصمة، لا يكفي لإيجاد الاطمئنان التامّ في نفوس الناس؛ لأنّ احتمال الخطأ والذنب يبقى قائمًا في هذه الحال.

ومن مجموع هذه الأدلّة يتّضح أنّ الأنبياء، إلى جانب عصمتهم من الذنب، معصومون أيضًا من الخطأ والنسيان، سواء في بيان الأحكام أو في العمل بها، أو في القضايا

١ . مصباح يزدي، محمد تقي، راهنماشناسي، طهران: انتشارات اميركبير، ص١٢١.

الخارجيّة والأمور العاديّة؛ لأنّ وقوع الخطأ أو النسيان يفتح باب الشكّ في نفوس الناس، فيحتملون الخطأ في كلّ حكم يصدر عن النبيّ، فلا تتحقّق الغاية من التعليم والتربية. وكذلك الأمر في العمل؛ إذ قد يصبح خطأ النبيّ العمليّ ذريعةً لانحراف بعض الناس. فضلًا عن ذلك، فإنّ الفعل نفسه يُعدّ بيانًا عمليًّا للحكم. وإذا رأى الناس. أو احتملوا. أنّ النبيّ يخطئ أو ينسى في شؤون الحياة العاديّة، في الخلوة أو في العلن، تزعزعت ثقتهم بأحكامه، ولم يتحقّق الاطمئنان الضروريّ لتحقيق هدف الرسالة.

وبذلك يتّضح لزوم عصمة الأنبياء، ومنهم النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، عن كلّ ذنبٍ وخطأ. هذا فضلًا عن كثرة الآيات والروايات التي تُنزّه ساحة الأنبياء، وخاتمهم، عن أيّ شائبة نقص. غير أنّ بعض آيات القرآن استخدمت تعابير في حقّ النبيّ الأكرم، قد يُفهم منها للوهلة الأولى ما يوهم عدم العصمة، ومن هذه الآيات الآية الأولى من سورة التحريم، التي قد يُتوهَّم منها أنّ النبيّ حرّم حلال الله، مع أنّ الأمر ليس كذلك.

الجواب:

أوّلًا: إنّ المراد من «التحريم» الوارد في الآية ليس هو التحريم التشريعيّ الذي يُعدّ مصداقًا لترك واجب أو ارتكاب فعلٍ قبيحٍ محرَّم من قبل الله؛ إذ إنّ التحريم. بمعنى جعل الشيء حرامًا أو ممنوعًا. على نوعين:

تحريمٌ صادرٌ عن الله تعالى بصفته الشارع والمشرّع، بناءً على مصالح فرديّة أو اجتماعيّة، وهذا النوع لا يحقّ لأحد تغييره أو التصرّف فيه، لا من حيث الكمّ ولا من حيث الكيف.

وتحريمٌ يتعلّق بفعلٍ مباحٍ يلتزمه الإنسان في حقّ نفسه، كما في النذر أو العهد أو اليمين، ولكلٍّ منها شروطه وأحكامه الخاصّة في الشريعة الإسلاميّة. وهذا النوع من التحريم لا يتنافى مع أحكام الإسلام، بل هو خاضع لها، وقد يكون العمل به في بعض الموارد حسنًا ومستحسنًا.[1]

ثانيًا: كما تقدّم، فإنّ المعصوم لا يُقدم على ارتكاب الحرام ولا على تحويل الحلال الإلهيّ إلى حرامٍ تشريعيّ، والنبيّ صلى الله عليه وآله لم يفعل ذلك، والآية لا تريد أن تنسب إليه مثل هذا الأمر. غير أنّه كثيرًا ما يُقدِم العظماء على حرمان أنفسهم من بعض المباحات، بأشكال متنوّعة، طلبًا لراحة الآخرين أو منفعتهم، وهو ما يُعبَّر عنه بالإيثار والتضحية والرحمة ونكران الذات. فالأمّ، مثلًا، تتنازل عن كثيرٍ من راحتها لتوفّر الخير لأبنائها، والعالِم قد يضحّي براحته ونومه لخدمة المجتمع.

ولا شكّ أنّ مظاهر هذا السخاء والإيثار تظهر بأجلى صورها في حياة الأنبياء والأئمّة، بوصفهم أكمل الناس. وعلى هذا النحو تُفهم الآية محلّ البحث. فقد ذكر بعض المفسّرين أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله امتنع. إرضاءً لبعض زوجاته. عن شرب العسل،

١ . مكارم شيرازي, ناصر، تفسير نمونة، ذيل آية شريفه؛ طباطبايي، سيد محمدحسين،تفسيرالميزان.

وهو أمرٌ مباحٌ كان يتناوله عند زوجته زينب بنت جحش. غير أنّ هذا الامتناع جاء استجابةً لطلب بعض زوجاته، بدافع الغيرة، فكان فيه نوع إيذاء للنبيّ، فنزلت الآية تعاتب في ظاهرها النبيّ، وفي حقيقتها تُوجّه العتاب إلى زوجاته، وتأمر النبيّ بالانتفاع بما أحلّ الله له. ومن هنا قيل إنّ الآية مدحٌ أُلبس لباس الذمّ.

النتيجة

يتبيّن ممّا تقدّم أنّ النبيّ الأكرم ﷺ معصومٌ قطعًا، ولم يُحرِّم حلالًا إلهيًّا واجبًا بحيث تصدر منه معصية تُنافي عصمته، وإنّما امتنع عن أمرٍ مباحٍ بدافع الشفقة والرحمة، ووفقًا لأحكام الشريعة، إرضاءً لبعض زوجاته. ومثل هذا الفعل ليس مستغربًا من نبيٍّ هو رحمةٌ للعالمين.

المصادر للمزيد من الدراسة

كتب التفسير، كتفسير الميزان، وتفسير نمونه، والمبين، ومجمع البيان، ذيل الآية الأولى من سورة التحريم.

تعليم العقائد، الجزء الأوّل.

١٠) هل تدلّ الآية الكريمة: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ **(الأعلى: ٦-٧) على أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله كان يُصاب بالنسيان؟**

إنّ المراد من النسيان في هذه الآية هو ذهاب المعنى عن الذهن، وهو بعينه معنى السهو، ومقابلهما الذِّكر والحفظ. وقد ذهب بعض أهل اللغة إلى أنّ النسيان هو ذهاب المعنى بفعلٍ من الله تعالى، أي إنّ الله قد يُحدِث النسيان بسبب عوارض خاصّة.[١]

تفسير موجز للآية

إنّ قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ وعدٌ إلهيّ صريح للنبيّ صلى الله عليه وآله بأن يمنحه علم القرآن وحفظه، بحيث يكون حافظًا لما نزل عليه على الدوام، لا يعتريه نسيان، ويقرؤه كما أُنزِل، وهذا هو الأساس في تبليغ الرسالة والوحي على وجهه الصحيح.[٢]

وتتضمّن الآية، إضافةً إلى نفي النسيان، تأكيدًا على مصونيّة النبيّ صلى الله عليه وآله من السهو أيضًا. وهذا الأسلوب معروف في المحاورات العرفيّة؛ كما لو قال متديّن ملتزم: «لا مكان للنجس في المسجد، إلّا أن أشاء»، والمقصود أنّ إدخال أحد بيده هو وحده، وهو في الواقع لا يُدخل إلّا الطاهر. فالاستثناء هنا ليس لإخراج شيء من الحكم، بل لتأكيد عمومه وإرجاع الأمر إلى القدرة المطلقة.[٣]

١. الرازي، محمد، تفسير مجمع البيان، طهران: انتشارات فراهاني، ط ٢، ١٣٥٩، ج ٢٧، ص ١٩.
٢. العلامة طباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، ترجمه سيد محمد باقر موسوي همداني، طهران: اميركبير، ط ٤، ١٣٧٠، ج ٢٠، ص ٦٢٧.
٣. جوادي الآملي؛ عبدالله، تفسير تسنيم، قم: انتشارات اسري، ط ١، ١٣٨١، ج ٤،

وقد جاء في تفسير نمونه في بيان هذه الآية: لا تُعجِل عند نزول الوحي، ولا تخشَ نسيان الآيات الإلهيّة؛ فإنّ الذي أنزل هذه الآيات العظيمة لهداية البشر هو نفسه الكفيل بحفظها، وتثبيتها في صدرك الطاهر، بحيث لا يعلوها غبار السهو والنسيان أبدًا.[1]

وقد ورد نظير هذا المعنى في آيات أُخرى، كقوله تعالى: ﴿فتعالى الله الملك الحقّ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه وقل ربّ زدني علمًا﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿لا تُحرّك به لسانك لتعجل به * إنّ علينا جمعه وقرآنه﴾.[3]

فبعد بيان قدرة الله المطلقة، وأنّ كلّ خيرٍ وبركةٍ من عنده، يصرّح بأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لا ينسى شيئًا من آيات الله، ﴿إلّا ما شاء الله﴾. وليس المراد من هذا الاستثناء أنّ النبيّ ينسى فعلًا بعض الآيات، إذ لو كان كذلك لسقط الوثوق بكلامه، بل المقصود بيان أنّ حفظ القرآن موهبةٌ إلهيّة خالصة، وأنّ الله. لو شاء. لسلبها، غير أنّ مشيئته تعلّقت بإدامتها. وبعبارة أخرى، فالآية تهدف إلى إبراز الفرق بين العلم الذاتيّ الأزليّ لله تعالى، والعلم الموهوب والفيض الإلهيّ للنبيّ صلى الله عليه وآله.

وعلى أيّ حال، فإنّ من معجزات النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه كان

ص ٢٣٩.

١. مكارم شيرازي، ناصر، تفسير نمونة، طهران: داراكتاب الاسلامية، ١٣٥٣هـ ش، ج ٢٦، ص ٣٩٢.

٢. سورة طه، آية ١١٤.

٣. سورة القيامت، آيات ١٦، ١٧.

يحفظ الآيات والسور الطويلة من أوّل تلاوةٍ لجبريل، ويبقى حافظًا لها أبدًا، دون أن ينسى شيئًا منها.[1]

كيف يتلقّي النبيّ الوحي ويتلقّاه الناس وما هو الفرق بينهما؟

إنّ الفارق الجوهريّ بين تلقّي رسول الله صلى الله عليه وآله للوحي من الله تعالى أو من الملَك، وبين تلقّي الإنسان العاديّ للقرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله، يتجلّى في عدّة أمور:

أوّلًا: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله معصوم في تلقّي الوحي وحفظه، فلا يتطرّق إلى إدراكه نقصٌ ولا زيادة، بل يتلقّى الوحي مطابقًا للواقع، بخلاف الإنسان العاديّ الذي قد تعترضه خواطر شيطانيّة أو أخطاء في الفهم والحفظ.

ثانيًا: إنّ تلقّي النبيّ صلى الله عليه وآله للوحي هو من قبيل العلم الحضوريّ الشهوديّ، أمّا تلقّي الإنسان العاديّ عن النبيّ فهو علمٌ حصوليّ.

ثالثًا: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله يحفظ ما تلقّاه شهودًا وحضورًا حفظًا معصومًا، مصونًا من آفة النسيان، بينما الإنسان العاديّ لا يكون معصومًا لا في التلقّي ولا في الحفظ، فيُحتمل عليه السهو والنسيان.[2]

---

١ . مكارم شيرازي؛ ناصر، تفسير نمونة، طهران: دارالكتب الاسلامية، ط ١٩، ١٣٧٨، ج٢٦، ص٣٩٣.

٢ . جوادي الآملي؛ عبدالله، تفسير موضوعي قرآن، تفسير قرآن به قرآن، قم: انتشارت اسري، ط ٢، ١٣٧٨، ج١، ص٦٢.

إنّ النبيّ ﷺ تلقّى القرآن من مقام «لـدُن»[1]، فعلمه علمٌ لـدنّيّ، ومـن هنا لا مـجال للجهل أو النسيان في ساحته. فالنسيان منفيّ عن النبيّ ﷺ بنصّ قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ﴾، ولا يمكن أن يتخلّف هذا الوعد الإلهيّ. وببركة العصمة، لا سبيل للجهل أو النسيان إليه.

وعصمة رسول الله ﷺ تعني أنّه يحفظ ما فهمه وتلقّاه من الله حفظًا تامًّا صحيحًا، ولا يدخل السهو والنسيان في دائرة حفظه، كما قال الله سبحانه في شأنه: نحن نقرئك القرآن، وأنت لست من أهل النسيان.[2]

وعليه، فإنّ ما يُستفاد من تفسير القرآن بالقرآن، ومن كلمات المفسّرين، أنّ النبيّ ﷺ. بدليل العقل والنقل. معصوم في تلقّي الوحي، وفي تبليغه، وفي حفظه وصيانته، ولا يُتصوّر في حقّ المعصوم خطأٌ ولا نسيان. ويؤيّد ذلك قوله تعالى في سورة طه:﴿قال علمها عند ربّي في كتاب لا يضلّ ربّي ولا ينسى﴾.[3]

ومن هنا، فإنّ الله تعالى إنّما يبلغ غايته من خلال الأنبياء والرسل، ولا بدّ أن يكونوا معصومين في تلقّي الوحي وحفظه وتبليغه، وهـذا هو برهان الحكمة الـذي أشـار إليه العلّامة

١ . سورة النمل، آية ٦.
٢ . جوادي الآملي؛ عبدالله، تفسير موضوعي قرآن، تفسير قرآن به قرآن، قم: انتشارت اسري، ط ٢، ١٣٧٨، ج ١، ص ٦٢.
٣ . سورة طه، آية ٥٢.

الطباطبائي في الميزان عند تفسيره للآية ٢١٣ من سورة البقرة.

وبناءً على ذلك، فإنّ النبيّ الأكرم ﷺ معصوم بدليل العقل والنقل، ومعصوم في تلقّي الوحي وإبلاغه وحفظه، ولا مجال لأيّ خطأ أو اشتباه أو نسيان في حقّه؛ لأنّ علمه علمٌ لدنّيّ شهوديّ حضوريّ، ولا يتطرّق النسيان أو الخطأ إلى هذا النوع من العلم. والآية محلّ البحث إنّما جاءت لتقرير هذه الحقيقة، ولتكون بشارةً ومعجزةً علميّة للنبيّ ﷺ، إذ تثبت أنّه لا ينسى الآيات والسور الطويلة، وأنّه مصون من النسيان.

المصادر للمزيد من الدراسة:

الميزان في تفسير القرآن، محمّد حسين الطباطبائي، ترجمة محمّد باقر الموسوي الهمداني، ج٢٠، ص ٤٣٨.

أحسن الحديث، السيّد علي أكبر القرشي، ج١٢، ص ١٩١.

خصائص النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله

١) بيان تفضيل النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله على سائر الأنبياء

يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.[١] فربّك أعلم بحال جميع من في السماوات والأرض، وقد فضّلنا بعض النبيّين على بعض. وفي هذا التفضيل الإلهي كان الأنبياء أولو العزم أفضل من سائر الأنبياء، وكان خاتم النبيّين، محمّد صلى الله عليه وآله، في طليعة أولي العزم، بل أفضلهم جميعًا.[٢]

نعم، لقد اختصّ الله تعالى نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله بمرتبة «حبيب الله»، وفضّله على سائر الأنبياء. وقد ورد في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «فُضِّلتُ على الأنبياء بستّ: أُعطيتُ جوامع الكلم، ونُصرتُ بالرعب مسيرة شهر، وأُحلّت لي الغنائم،

---

١ . سورة الأسراء، آية ٥٥.

٢ . طيب، عبدالحسين، اطيب البيان في تفسير القرآن، طهران: نشر اسلام، ١٣٧٨ش، ج٨، ص٢٧١.

وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطَهورًا، وأُرسلتُ إلى الخلق كافة، وخُتم بي النبيّون.»[1]

ويروي أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «ما خلق الله خلقًا أفضل ولا أكرم عنده منّي». قال أمير المؤمنين: فقلتُ: أنت أفضل أم جبرئيل؟ فقال صلى الله عليه وآله: «إنّ الله تبارك وتعالى فضّل أنبياءه على ملائكته المقرّبين، وفضّلني على جميع النبيّين والمرسلين».[2]

كما رُوي عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه أجاب يهوديًّا سأله عن وجه تفضيل رسول الله صلى الله عليه وآله على سائر الأنبياء، فقال: إنّ الله تعالى إذا كان قد أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، فقد أعطى رسول الإسلام ما هو أعظم من ذلك، وهو أنّه جلّ شأنه صلّى عليه بنفسه، وأمر ملائكته وجميع المؤمنين إلى يوم القيامة بالصلاة عليه. وقد قال في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.[3] إنّ الله وملائكته يصلّون على النبيّ، يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا.

وقد جعل الله تعالى استجابة دعاء عبده مشروطة بتقديم

١ . تفسير هدايت (ترجمه تفسير من هدي القرآن)، مشهد، نشر آستان قدس رضوي، ١٣٧٧ش، ج٦، ص٢٤٦.
٢ . لاهيجي، محمد، تفسير شريف لاهيجي، طهران: نشر داد، ١٣٧٣ش، ج٢، ص٨١٢.
٣ . سورة الأحزاب، آية ٥٦.

الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله، وجعل لمن صلّى عليه عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيّئات.[1]

ويكفي في بيان فضل رسول الإسلام صلى الله عليه وآله على سائر الأنبياء أنّ شريعته باقية إلى يوم القيامة من غير تحريف ولا انحراف، وأنّ الأئمّة المعصومين هم خلفاؤه وأوصياؤه، وهم جميعًا أصحاب مقام الإمامة الإلهيّة.

المصادر للمزيد من الدراسة:

الشيخ المفيد، جواب الكرماني في فضل النبيّ صلى الله عليه وآله على سائر الأنبياء.

محمّد بن علي القطيفي، تفضيل نبيّنا وآله الطاهرين على جميع الأنبياء والمرسلين.

١ . نوري، حسين، مستدرک الوسائل، قم: نشر موسسة آل البيت، ط ٢، ١۴٠٨ق، ج۵، ص٣٣٣، باب٣١.

٢) في تاريخ الأمم، وفي زمان الأنبياء السابقين، كانت العذابات الإلهية تنزل على المشركين والكافرين. لكن لماذا لم تنزل هذه العذابات الإلهية على مشركي زمان النبي محمد صلى الله عليه وآله ؟

للإجابة على هذا السؤال، يجب أولاً أن نفهم من هم الذين تنزل عليهم العذابات الإلهية.

أول نقطة يمكن الإشارة إليها هي أنه طالما لم يبعث الله رسولًا إلى قوم، ولم يتم الحجة عليهم، فلن ينزل عليهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[١]، أي إنه لا يعذب قومًا إلا بعد أن يبعث لهم رسولًا. كما أشار العلامة الطباطبائي إلى أن الله استخدم في هذه الآية كلمة "رسول" بدلاً من "نبي"، لأن الرسالة هي منصب خاص يؤدي إلى إتمام الحجة على الناس، وفي أعقاب ذلك، إما أن يعاقبوا بعذاب دنيوي (كالاستئصال)، أو يُسمح لهم بالتمتع بالحياة الدنيا إلى أجل معين[٢]، كما يقول تعالى: ﴿يُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾.[٣]

النقطة الثانية التي يجب ذكرها في هذا السياق هي يأس الأنبياء من هداية قومهم، كما ورد في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا يَئِسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ

١. سورة الأسراء، آية ١٥.
٢. طباطبايي، سيد محمد حسين، الميزان، قم: موسسة اسماعيليان، ط ٥، ١٣٧١، ج ١٣، ص ٥٨.
٣. سورة ابراهيم، آية ١٠.

﴿وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾[1]. هذه الآية تشير إلى أن الأنبياء كانوا قد أعلنوا دعوتهم وحذروا أقوامهم من العذاب الإلهي، ولكنهم لم يقبلوا حتى وصل الأمر إلى أن اليأس قد استحوذ على الأنبياء، واعتقد القوم أن الأنبياء قد كذبوا في وعدهم بالعذاب، فرفضوا الإيمان. عندها نزل العذاب من الله تعالى.

تتكرر هذه الفكرة في آيات سورة هود (الآية ٣٦) وسورة نوح (الآية ٢٧)، حيث يشير الله إلى يأس الأنبياء من هداية الكافرين، وفي الآية ٢٧ من سورة نوح، يُصرح بأن أبناء هؤلاء الكافرين في المستقبل سيكونون أيضًا فجارًا وكفارًا. كما ذكر العلامة الطباطبائي أن هذه المسألة من يأس الأنبياء تأتي في قصص الأنبياء هود وصالح وشعيب وموسى وعيسى عليهم السلام.[2]

وقد ورد عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه عندما أرسل الله الوحي إلى النبي نوح عليه السلام، علم أن قومه لن يؤمنوا، وأشار إلى آية ٣٦ من سورة هود التي تقول: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ مَن آمَنَ وَمَن كَذَّبَ فَإِنَّهُ لَا يُؤْمِنُ﴾.[3]

إذا نظرنا إلى تاريخ صدر الإسلام، نجد أن النبي صلى الله عليه وآله لم ييأس من إيمان أهل مكة، بل استغل كل فرصة لدعوتهم

١. سورة يوسف، آية ١١٠.
٢. طباطبايي، الميزان، ج١١، ص٢٧٩.
٣. المجلسي، محمد باقر، بحار الانوار، بيروت، دار الاحياء التراث العربي، ١٤٠٣ ق، ج٣، ص٢٨٣.

إلى الإسلام، ونتيجة لذلك، وبعد فتح مكة، أسلم معظم أهل مكة، حتى أن بعض كبار قريش مثل أبو سفيان أظهروا إسلامهم. وهذا كان كافيًا لدرء العذاب الدنيوي عنهم. بالإضافة إلى ذلك، كان من الممكن أن يُؤمن نسل هؤلاء المشركين في المستقبل، ومن هنا لم يعذبهم الله تعالى.

وقد ورد في الآية ٣٣ من سورة الأنفال تفسير لذلك، حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. وقد نقل العلامة الطباطبائي عن بعض المفسرين أن هذه الآية تتعلق بالعذاب الدنيوي، إذ أنه ما دام النبي ﷺ فيهم، وكذلك ما دام الاستغفار مستمرًا بين الأمة، فإن العذاب لا ينزل عليهم. ولكن مع اقتراب الزمن، فإن هذه الأمة ستصل إلى مرحلة تتوقف فيها عن الاستغفار، وعندها سيحل بهم العذاب الإلهي.[١]

وتُظهر الآية ٤٩ من سورة يونس أن كل أمة لها أجل محدد، وعندما ينقضي هذا الأجل، ينزل العذاب. وفي الآية ١٢٣ من سورة النساء، يتم تفنيد الفكرة التي تقول بأن الأمة لن تُعذب بسبب وجود النبي فيهم، مما يثبت أن العذاب سيأتي حتمًا إذا تركوا الاستغفار.[٢]

وتؤكد الآية ٨ من سورة هود أن الله قد أخَّر العذاب، وفي ردّ على استهزاء الكفار الذين يسألون عن سبب تأخر العذاب،

١ . طباطبايي، سيد محمد حسين، الميزان، ج٩، ص٧١.
٢ . طباطبايي، سيد محمد حسين، الميزان، ج١٠، صص٧٠-٧٤.

يقول الله: ﴿يُؤْتِيهِمْ لَيْسَ مُصْرَفًا عَنْهُمْ﴾، أي أن العذاب لن يرد عنهم يومًا ما.[1]

وفي رد على استفسار عن وقت نزول العذاب، يبين الله تعالى في هذه الآية أن العذاب مؤكد الحدوث، ويدعو النبي صلى الله عليه وآله إلى القول للكفار: ﴿إِنَّنِي لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾.[2]

وأخيرًا، في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام يُذكر أن هذا العذاب سينزل في آخر الزمان على بعض من أهل القبلة الذين يكذبون بنزول العذاب الإلهي.[3]

الخلاصة هي أن نزول العذاب على المجرمين من هذه الأمة أمر حتمي، لكنه تأجل احترامًا لوجود النبي محمد صلى الله عليه وآله واحتمال إيمان الأجيال القادمة.

ويجب التنبيه إلى أن ما كان محل الحديث هو عذاب الاستئصال الذي يعم الجميع ويكون مدمّرًا، وهو لا يتعارض مع العذاب الجزئي، مثل القتل والأسر الذي تعرض له المشركون على يد النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه، وهو أيضًا ما سماه الله في الآية ٥٢ من سورة التوبة عذابًا، ولا يتعارض مع عذاب بعض المشركين مثل أبي لهب وأبي جهل.[4]

١. طباطبايي، سيد محمد حسين، الميزان، ج١٠، ص١٥٥.
٢. طباطبايي، سيد محمد حسين، الميزان، ج١٠، ص٧٢.
٣. طباطبايي، سيد محمد حسين، الميزان، ج١٠، ص٧٨.
٤. طباطبايي، سيد محمد حسين، الميزان، ج٩، ص٦٨.

المصادر للمزيد من الدراسة:

١. درسنامه تاریخ تحلیلی دشمن شناسی، جمعی از نویسندگان.

٢.اهل البیت علیهم السلام فی الکتاب المقدس، کاظم نصیری.

٣.احمد موعود انجیل، جعفر سبحانی.

٣) في الآية ٥٣ من سورة الأحزاب، لماذا يمنع الله سبحانه وتعالى الزواج من زوجات النبي صلى الله عليه وآله بعد وفاته؟

يمكن أن يُطرح هذا السؤال بشكل أوسع؛ إذ أن هذه الآية لا تقتصر على تحريم الزواج من زوجات النبي بعد وفاته فحسب، بل إن الإشارة إلى الزمن في الآية قد تشمل حتى النساء اللواتي قد طلقهن النبي صلى الله عليه وآله، وبالتالي لا يجوز لأي شخص أن يتزوج حتى من الزوجات اللواتي طلقهن النبي.[١]

بعد أن أعلن الله سبحانه وتعالى أنه لا يجوز لأحد بعد النبي صلى الله عليه وآله الزواج من زوجاته، ذكر سبب هذا التحريم بقوله: "إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا"، أي أن هذا الفعل يُعدُّ عند الله سبحانه وتعالى ذنبًا عظيمًا. ولتوضيح هذه الجملة، يمكننا الرجوع إلى آية مشابهة في القرآن الكريم: في سورة النور (الآية ١٥)، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾، حيث يتحدث عن تهمة وبهتان وقع بين المسلمين، ويظهر هنا أيضًا أن أمرًا كان يُعتقد أنه صغير وغير ذي أهمية، لكنه عند الله أمر عظيم.[٢]

هذه الآية نزلت في سياق التهمة التي وُجهت إلى إحدى زوجات النبي صلى الله عليه وآله، مما يبيّن أن الزنا أو التهمة الباطلة في حقهن هو أمر عظيم عند الله. من هذا المنطلق، يمكننا

١ . واعظ كاشفي، حسين، تفسير مواهب عليه، طهران: انتشارات اقبال، ط ١، ١٣١٧هـ ش، ج٣، ص٤٨٨.

٢ . حسيني همداني، محمد، انوار درخشان در تفسير قرآن، طهران: كتابفروشي لطفي، ١٣٨٠هـ ق، ج١١، ص٣٤١.

أن نفهم أن الـزواج من زوجـات النبي ﷺ يُعدُّ أمـرًا مشابهًا للبهتان، مما يدل على عظم مكانتهن وحرمة أزواج النبي.

مكانة النبي ﷺ عند الله عظيمة للغاية، ورسالة النبي ﷺ كذلك لها من الأهمية ما يجعل أي انتقاص من احترامه يُعد انتقاصًا من احترام الله سبحانه وتعالى. وبالتالي، فإن تحريم الـزواج من زوجات النبي بعد وفاته يعود إلى العظمة البالغة للنبي ﷺ.[1] فكما أن الـزواج من امـرأة الأب بعد وفاته حرام ويعد من كبائر الذنوب، فكذلك يجب أن يكون تحريم الزواج من زوجات النبي ﷺ.

قد يثار تساؤل آخر هنا: كيف يُمكن أن يُحرم الله زوجات النبي ﷺ، مع أن بعضهن كنّ ما زلن في سن الشباب نسبياً عند وفاتـه؟ والـجـواب هـو أن المسؤولية الكبرى تأتي مع الامتيازات الكبيرة. إن كرامة ومقام زوجات النبي ﷺ تقتضي فـداءً وتضحية، فالاحتفاظ بمقام "أم المؤمنين" يتطلب التضحية بالمزايا الشخصية.

لكن الله سبحانه وتعالى جبر هـذا الـحرمان ومنحهن مكافأة عظيمة، إذ جعل لقب "أم المؤمنين"[2] عنوانًا لهن، مما يعكس رفعة مقامهن واحترامهن بين المسلمين. لذلك، رغم محرمات معينة، هنّ يعتبرن في قمة الاحترام، وكان ذلك بمثابة تعويض وكرامة لهن في مقابل التضحية.[3]

١ . سورة النساء، آية ٢٢.
٢ . سورة الأحزاب، آية ٦.
٣ . مكارم شيرازي، ناصر، تفسير نمونة، طهران: دارالكتاب السلاميه، ١٣٥٣هـ ش، ج١٧، ص ٤٠٤.

وتدعم الأحاديث التي تروي سبب نزول هذه الآية هذا المعنى، حيث يُذكر أن بعض الأشخاص قد تعهدوا بالانتقام من النبي صلى الله عليه وآله عبر الزواج من زوجاته بعد وفاته. وفي حديث آخر، يُذكر أن النبي صلى الله عليه وآله قد بيّن أن الزواج من زوجة الرجل بعد وفاته يُحرَّم على ابنه، كما هو الحال في تحريمه من زوجات النبي صلى الله عليه وآله، وذلك على اعتبار أن احترام النبي أكبر وأعظم من احترام الأب.[1]

المصادر للمزيد من الدراسة:

محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، (بيروت: مؤسسة الأعلى للمطبوعات، الطبعة الثالثة، ١٣٩٣ هـ)، ج ١٦، ص ٣٤٠، ٣٣٧.

الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن (بيروت: دار المعرفة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ)، ج ٨، ص ٥٨٣، ٥٧٣.

الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ج ٨، ص ٣٥٣، ٣٥٩.

١ . حسيني البحراني، سيدهاشم، البرهان في تفسير القرآن، قم: نشر مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان، ط ٢، ١٣٧٥هـ ق، ج ٣، ص ٣٣٤، روايت ٥.

٤) هل كان معراج النبي ﷺ جسديًا أم روحانيًا؟

فيما يتعلق بجودة معراج رسول الله ﷺ، هناك أربعة آراء بين المفسرين:

كان معراج النبي ﷺ في جميع مراحله روحانيًا، بمعنى أن الروح، باعتبارها خالية من الجسد، قد سافرت عبر هذه العوالم.

كان معراج النبي ﷺ روحانيًا، ولكن ليس بمعنى التجرد عن الجسد، بل كان بشكل رؤيا وبرزخي، حيث سافر في جميع هذه العوالم بشكل رؤيا.

كانت رحلة النبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى جسدية وروحانية، ومن ثم كانت روحية بعد ذلك. وهذا الرأي اختاره ابن شهرآشوب، ونسبه إلى علماء الإمامية.[١]

كانت رحلة النبي ﷺ في جميع مراحلها جسدية وروحانية، حيث سافر بكل من الجسد والروح. وهذا هو الرأي الأكثر شهرة بين العلماء الشيعة، وتؤيد القرائن التالية صحته:

أ: يتضح من لفظ "عبد" في الآية أن المقصود هو الشخصية الحقيقية التي تتكون من الجسد والروح، وعليه إذا كان المعراج روحانيًا فقط، لكان من الضروري أن يُقال "بروحه"، ومن الآيات التي ورد فيها لفظ "عبد" يمكن أن نذكر: ﴿أَرَأَيْتَ

١. ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، نجف، حيدرية، ١٣٧٦هـ ق، ج١، ص ١٥٣.

الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾[1]، و﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[2]. وفي آية أخرى، ورد لفظ "عبد" بمعناه الواسع، ويشمل الكائنات المجردة من المادة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَانِ عَبْدًا﴾[3]، حيث أن العبودية لا تخص البشر فحسب، بل تشمل أيضًا الملائكة والجنيّات.

ب: في سورة النجم، يتحدث عن الشهود والقلب والرؤية، حيث يقول: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾[4]، ولو كان المعراج روحانيًا فقط، لكان الحديث عن تكذيب القلب لما رآه لا معنى له.

ج: قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾[5] – أي أن العين لم تنحرف ولم تزل عن مسارها.

تدعم هذه القرائن الثلاثة إلى جانب إجماع علماء الإسلام (باستثناء القليل منهم) بأن هذه الرحلة الملكوتية قد تمت بالجسد العنصري. ولا يوجد فرق بين بداية ونهاية هذه الرحلة. وبناءً عليه، فإن ما نقله التفتازاني صاحب "المقاصد" أو ما رواه عن عائشة من أن معراج النبي كان روحانيًا أو ما روي عن معاوية أن المعراج كان من عالم الرؤيا، جميعها تتعارض مع ظواهر الآيات المذكورة، ولا تحمل قيمة علمية.

١. سورة العلق، آية ٩-١٠.
٢. سورة الجن، آية ١٩.
٣. سورة مريم، آية ٩٣.
٤. سورة النجم، آية ١١.
٥. سورة النجم، آية ١٧.

في "مناقب" ابن شهرآشوب، يقول: "الخوارج ينكرون المعراج من أساسه، والجهمية يقولون: كان معراج النبي روحانيًا، بشكل رؤيا، بينما يقول الإماميون والزيدية والمعتزلة: كان معراجه حتى المسجد الأقصى جسديًا وروحانيًا، أما المجموعة الرابعة فتقول: كان المعراج بالكامل جسديًا وروحانيًا، حيث صعد النبي بكل من جسده وروحه من المسجد الأقصى إلى السماء."[1]

ومن العجيب أن ابن شهرآشوب كيف نسب هذه التفاصيل حول معراج النبي إلى الإمامية، رغم أن الرأي الشائع بينهم هو أن الرحلة كانت متناسقة في جميع مراحلها.

في تفسيره "الميزان"، يقول العلامة الطباطبائي رحمه الله: "لا مانع من القول بأن هذا العروج (من بيت المقدس إلى السماوات) كان روحانيًا، ولكن ليس بالطريقة التي يعتقد بها القائلون بالمعراج الروحاني بشكل رؤيا صادقة، لأنه إذا كان رؤيا، لما كان هناك ضرورة لإعطاء القرآن هذا القدر من الأهمية والتأكيد، حيث أن أي شخص، سواء كان صالحًا أو فاسقًا، يمكنه أن يرى مثل هذه الرؤيا. وعلاوة على ذلك، لا يتناسب مع الرؤيا أن ينكرها قريش بشدة عندما سمعوا عنها، كما أن المشاهد التي رآها النبي في طريقه لا تتوافق مع فكرة أن المعراج كان رؤيا."

١ . ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، نجف، حيدرية، ١٣٧٦هـ ق، ج١، ص١٥٣.

ويكمن الهدف من القول بأن المعراج كان روحانيًا في أن روح النبي المقدس صعدت إلى ما وراء هذا العالم المادي، أي إلى الأماكن التي يقيم فيها الملائكة المقربون، حيث تنتهي أعمال العباد، وهناك رأى آيات ربه، وتجلت له حقائق الأشياء ونتائج الأعمال، وقد التقى بأرواح الأنبياء العظام عليهم السلام. وتحدث معهم، ورآى الملائكة وتفاعل معهم...

من المهم أن نتجنب الإفراط في تفسير المعراج الجسدي بحيث يتم تبرير جميع الجوانب الروحية والمعنوية بشكل مادي. بل يجب أن نحتفظ بحدود كل من المعراج الجسدي والروحاني، حيث أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان دائمًا في جميع حالات العروج والإسراء في جسده، مع أن جميع أفعاله كانت تحدث في حالة يقظة، ومن ثم كان انتقال جسده، سواء في الإسراء أو المعراج، لا يتجاوز عالم الطبيعة ولم يدخل في ما وراء الطبيعة.

النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وأصحابه

١) فيما يتعلق بالشخص الذي كان مع النبي صلى الله عليه وآله في غار ثور أثناء الهجرة، يرجى تقديم إجابة علمية؟

الجواب الذي يقدمه القرآن الكريم هو أدق وأوضح جواب علمي، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[١]. وبناءً على ما ورد في المصادر التاريخية، عندما خرج النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من مكة متوجهًا إلى المدينة في هجرته، رافقه أبو بكر، ولم يُمانع النبي من مرافقته.

وقد اختبأ النبي صلى الله عليه وآله وأبو بكر في غار ثور بالقرب من مكة لحين انطفاء مؤامرات المشركين الذين كانوا يسعون لقتل النبي أو القبض عليه. وفي تلك الأثناء كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يرقد في فراش النبي صلى الله عليه وآله، فظن الأعداء أن النبي صلى الله عليه وآله لا يزال في منزله، فهاجموا المنزل معتقدين أنهم

١. سورة التوبة، آية ٤٠.

سيقتلون النبي، لكن النبي ﷺ هاجر بدعم من الله عز وجل ونجا من تلك المؤامرة. عند اختبائهم في الغار، كان أبو بكر يشعر بالقلق والخوف، وكان يقول للنبي ﷺ: "أنا أخشى أن يصل المشركون إلى مخبأنا". من خلال مضمون هذه الآية، يمكن استخلاص عدة نقاط وتقديم ملاحظات حول أبو بكر:

إن الله تعالى كان يوجه مسار الهجرة وفقًا لحكمته وبرامجه، وكان جبريل عليه السلام يتوسط بين الله والنبي ﷺ ليُبلغه بكل التفاصيل.

وبفضل إيمان النبي ﷺ الكامل، كان واثقًا تمامًا في دعم الله له، فلم يكن يشعر بأي قلق، بل سلك الطريق بثبات وأمل، وكان يدرك تمامًا أن المشركين لا يمكنهم الوصول إليه.

أما أبو بكر الذي كان يرافق النبي ﷺ، فقد كان يشعر بالخوف والقلق الشديدين إلى درجة أن قلقه تم ذكره في القرآن الكريم. وقد أتى قلقه بسبب عدة عوامل:

أولًا: لم يكن إيمان أبو بكر قويًا بما يكفي، فكان يعاني من الوساوس، ويخشى أن يصل المشركون إليهما ويقتلوهما.

ثانيًا: لم يكن يدرك تمامًا دعم الله للنبي ﷺ، مما جعله يشعر بالقلق، حيث كانت قناعته بأن الله سيؤيد النبي ﷺ ليست كاملة، إما بسبب عدم إيمانه الكامل برسالة النبي ﷺ أو لعدم إيمانه بوعد الله بتقديم الدعم للنبي.

إذا كان الإنسان يشك في وعد الله أو في يقين مساندة الله له، فإن عمله هذا قد يثير الشكوك في الآخرين أيضًا، وقد يتساءل الناس كيف لشخص يرافق النبي الذي يوحى إليه أن يشعر بالخوف في مثل هذه اللحظات، وهو الذي يملك دعم الله عز وجل؟ هذا القلق ناتج عن ضعف الإيمان، ويمكن أن يؤدي إلى شك خفي في الشخص، حيث يجب على الإنسان ألا يسمح لأي شك أو تردد أن يدخل في إيمانه أو توكله على الله، إذ أن أي تردد سيظهر في سلوكياته ومظهره. فعلى سبيل المثال، عندما يشعر الإنسان بالخوف، غالبًا ما ينظر حوله بقلق، وهذا الانعكاس يكون نتيجة لما يشعر به داخليًا. في حين أن الله الذي يملك مقاليد السماوات والأرض، وهو الذي يدير الكون بإرادته، لا ينبغي للإنسان أن يشك في قدرته ووعوده.

المصادر للمزيد من الدراسة:

الصحيح من سيره النبى الأعظم، سيد جعفر مرتضى، ترجمة دكتر سپهرى.

عبقات الأنوار، ميرحامد هندى.

٢) هل تصحّ الدعوى القائلة بأنّ أبا بكر هو الذي تولّى تجهيز ودفن الجسد الطاهر للنبيّ صلى الله عليه وآله، وأنّ أمير المؤمنين عليًّا عليه السلام كان في تلك الأثناء مغشيًّا عليه من شدّة الحزن؟ وهل لهذه الدعوى أساس من الواقع أم لا؟

إنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، بعد ثلاثة وعشرين عامًا من تبليغ الرسالة والدعوة إلى التوحيد والتقوى، ونشر دين الإسلام في أرجاء جزيرة العرب، انتقل إلى جوار ربّه يوم الاثنين الثامن والعشرين من شهر صفر سنة إحدى عشرة للهجرة، عن عمر ناهز ثلاثًا وستين سنة.

وبحسب الروايات التاريخية المنقولة عن علماء أهل السنّة، فإنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أسلم الروح إلى بارئها ورأسه الشريف مستقرٌّ على صدر عليّ بن أبي طالب عليه السلام، كما أنّ مراسم التجهيز من الغسل والتكفين والصلاة والدفن قد قام بها عليّ بن أبي طالب عليه السلام، بمعاونة نفرٍ من بني هاشم.

ويروي ابن سعد أنّ كعب الأحبار سأل يومًا الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عن آخر ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله في حال الاحتضار، فأشار عمر إلى عليّ عليه السلام. وكان حاضرًا في المجلس. وقال: اسألوه. فقال عليّ عليه السلام: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول، ورأسه على كتفي: «الصلاة الصلاة...». ثم عاد كعب فسأل: من الذي غسّل رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال عمر: سلوا عليًّا. فقال عليه السلام: أنا الذي غسّلته، وكان العباس جالسًا، وكان أسامة وشُقران يصبّان الماء.[1]

١. ابن سعد، محمّد، الطبقات الكبرى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٠ق، ج٢، ص٢٠٢.

ويذكر ابن هشام أنّ الذين تولّوا غسل جسد النبيّ صلى الله عليه وآله هم: عليّ بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، وقثم بن العباس، وأسامة بن زيد، وشُقران مولى رسول الله صلى الله عليه وآله. كما أنّ أوس بن خولي. وهو من الأنصار. نادى قائلًا: يا عليّ، أنشدك الله أن تشركنا في هذا الشرف، فقال له عليّ عليه السلام: ادخل، فدخل وجلس في ناحية من البيت.

وكانت كيفية الغسل على النحو الآتي: إنّ عليًّا عليه السلام كان قد وضع جسد النبيّ صلى الله عليه وآله على صدره، وكان العباس والفضل وقثم يعينونه في تقليب الجسد وتحريكه، بينما كان أسامة وشُقران يصبّان الماء، وكان عليّ بن أبي طالب عليه السلام يغسّل النبيّ صلى الله عليه وآله من تحت قميصه، وهو يقول: بأبي أنت وأمّي، ما أطيبك حيًّا وميتًا. فلمّا فرغوا من غسله، كفّنوه بثلاثة أثواب من صحارى، وبثوب بُرد حِبرة.[1]

وفيما يتعلّق بكيفية دفنه صلى الله عليه وآله، يذكر أيضًا أنّ الذين نزلوا في قبره وتولّوا أمر دفنه هم: عليّ بن أبي طالب، والفضل بن العباس، وقثم بن العباس، وشُقران.[2]

وإلى جانب هذه الكتب، وهي من أقدم وأوثق مصادر أهل السنّة في سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وتاريخ صحابته، فقد أشار ابن الأثير

١ . ابن هشام، عبدالملك، السيرة النبوية، بيروت، دارالمعرفة، ج٢، ص٦٢٢ - ٦٦٣.

٢ . ابن هشام، عبدالملك، السيرة النبوية، بيروت، دارالمعرفة، ج٢، ص٦٦٤.

الجزري في «أسد الغابة»[1]، وابن كثير في «البداية والنهاية»[2]، والبيهقي في «دلائل النبوّة»[3]، وعشرات المصادر الأخرى من علماء أهل السنّة، إلى هذه الحقيقة، وهي أنّه لم يشارك في تجهيز النبيّ صلى الله عليه وآله ودفنه أحدٌ سوى عليّ عليه السلام ومن كان معه من بني هاشم.

وأوّل من صلّى على النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله هو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ثمّ صلّى بعده الصحابة والأصحاب على جنازته الشريفة جماعاتٍ متعاقبة.

وقد نقل ابن كثير عن ابن مسعود أنّه ورد في وصيّة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أنّ يتولّى رجال أهل بيته غسله وتكفينه، ثمّ يصلّون عليه، وبعدهم يصلّي الناس عليه، ثمّ تصلّي النساء على جسده الشريف بعد الرجال.[4]

ثمّ وقع الخلاف بين الناس بشأن موضع دفن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله؛ فقال بعضهم: يُدفن في البقيع، وقال آخرون: يُدفن إلى جوار المسجد، وقال فريق ثالث: يُدفن في بيته. وفي نهاية المطاف استقرّ الرأي على أن يُدفن جسده الشريف في الحجرة التي توفّي فيها.

١ . ابن اثير الجزري، علي بن محمد، اسد الغابة في معرفة الصحابة، بيروت، دارالفكر، ١٤٠٩ق، ج٢، ص٣٨٨.
٢ . ابن الكثير، اسماعيل بن عمر، البدآية و النهآية، بيروت، دارالفكر، ١٤٠٧ق، ج٥، ص٢٦٩.
٣ . البيهقي، احمد بن حسين، دلائل النبوة و معرفة احوال صاحب الشريعة، بيروت، دارالكتب العلمية، ١٤٠٥ق، ج٧، ص٢٥٤.
٤ . ابن الكثير، پيشين، ج٥، ص٢٦٤٥-٢٦٦.

وقد قام أبو عبيدة الجرّاح وزيد بن سهل بحفر القبر وإعداده، أمّا مراسم الدفن فقد تولّاها أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، بمساعدة الفضل بن العباس، والعباس بن عبد المطلب، وقثم بن العباس.[1]

وعلى هذا، يتّضح أنّ الغالبية الساحقة من المصادر التاريخية والروائية لأهل السنّة. التي تبلغ عشرات المؤلّفات، وقد دوّنها مؤرّخون متقدّمون ولا تزال متداولة إلى يومنا هذا، بل بلغت حدّ الشهرة بل والتواتر. تُجمع على أنّه لم يتولّ أمر تجهيز النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، من الغسل والتكفين والدفن، أحدٌ غير عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وأمّا ما نُقل من روايات تخالف ذلك، فهي إمّا مخالفة لصريح ما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وآله، كما تقدّم ذكره، أو أنّها رُويت بدافع العناد والعداء لعليّ بن أبي طالب عليه السلام.

١ . الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الامم و الملوک، بيروت، موسسة الأعلمي، ج٢، ص٤٥٢.

٣) من هو أوّل من آمن برسالة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ؟

باتّفاق المؤرّخين وأصحاب كتب السّير والتراجم، وبعد جمع آرائهم والموازنة بينها، يمكن القول إنّ أوّل من آمن بالنبيّ صلى الله عليه وآله من الرجال هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ومن النساء خديجة عليها السلام زوج النبيّ الكريم.[١]

وقد ذهب بعضهم إلى أنّ عليًّا عليه السلام آمن قبل خديجة عليها السلام، بل هو أوّل من دخل في الإسلام على الإطلاق[٢]، وأنّ خديجة عليها السلام آمنت بعده. وهذا القول له وجاهته لأسباب عدّة، منها ما رُوي عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: «كنتُ في صغري، إذ كنتُ أُربّى في كنفه، يذهب بي معه إلى جبل حراء، ولم يكن أحد غيري يعلم بمكانه، وكنتُ دائمًا ملازمًا له». وبناءً على ذلك، فإنّ عليًّا عليه السلام كان حاضرًا عند نزول الوحي، وشاهدًا له، الأمر الذي يجعله أسبق الناس إلى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله.

كما أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال مخاطبًا عليًّا عليه السلام: «إنّك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلّا أنّك لست بنبيّ».[٣] والمقصود من ذلك سماع الوحي، والأصوات الغيبية، ومشاهدة ما يتعلّق بالحقائق والمعارف التي يشير إليها النبيّ صلى الله عليه وآله، وقد صرّح بأنّ

١ . ابن عبدالبر، يوسف بن عبد الله، الاستيعاب في معرفة الاصحاب، بيروت، دار الجيل، ج٤، ص١٨١٩- ١٨٢٠.

٢ . ابن عبدالبر، همان، ج٣، ص١٠٩٠، ١٠٩٥ ابن اثير الجزري، اسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٣، ص٥٩٣.

٣ . نهج البلاغة، ترجمه شهيدي، سيد جعفر، ط ٥، طهران: انتشارات انقلاب اسلامي، ١٣٧٣ش، ص٢٢٠، ص١٠١.١٠٣.

هذه المنزلة لم يذكرها لأحدٍ غير عليّ. وقد نقل ابن سعد في «الطبقات»، وابن قتيبة الدينوري في «الإمامة والسياسة»، وابن أعثم الكوفي في «الفتوح»، وابن حجر العسقلاني في «الإصابة»، روايةً عن النبيّ صلى الله عليه وآله مفادها أنّ عليًّا هو أوّل من آمن به، وأوصى بملازمته وعدم مفارقته.[1] كما أورد البلاذري روايةً صريحة تفيد بأنّ أوّل المؤمنين هو عليّ عليه السلام.[2]

وعليه، فإنّ بعض التقارير التاريخية تُعرّف خديجة عليها السلام بأنّها أوّل من آمن بالنبيّ صلى الله عليه وآله، فيما تُعرّف تقارير أخرى عليًّا عليه السلام بذلك، غير أنّ هذه الروايات ليست متعارضة، بل يمكن الجمع بينها بالقول إنّ عليًّا هو أوّل المؤمنين من الرجال، وخديجة هي أوّل المؤمنات من النساء. ويؤيّد ذلك ما ورد في بعض الروايات من أنّ عليًّا وخديجة والنبيّ صلى الله عليه وآله كانوا يصلّون معًا قبل سائر الناس بسبع سنوات. كما توجد قرائن أخرى تدلّ على سبق إيمانهما برسول الله صلى الله عليه وآله دون غيرهما.

المصادر للمزيد من الدراسة:

«القرآن والمعصومون في مرآة علويّة»، أمير علي حسنلو.

«تاريخ النبيّ الإسلامي»، محمد إبراهيم آيتي.

١ . ابن الحجر العسقلاني، الاصابة في تمييز الصحابة، بيروت، دارالكتب العلمية، ١٤١٥ق؛ طبقات ابن سعد، ج١٣، ص١٥ الدينوري، الامامة و السياسة، بيروت دارالاضواء ١٤١، ج١، ص٢٢، ابن عثم، الفتوح، ج٣، ص١٦٩.

٢ . البلاذري أنساب الاشراف، ج١، ص١١٢.

النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله والخلافة

هل يُعدّ طلب النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله للقلم والقرطاس في الساعات الأخيرة من عمره الشريف دليلًا على أنّه لم يكن قد عيّن خليفةً له إلى ذلك الوقت؟

تُعدّ مسألة خلافة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله من أبرز الوقائع التاريخية في الإسلام، وقد شكّل البحث في شرعيّة هذه الخلافة وتولّي زمام شؤون المسلمين بعد رحيل النبيّ صلى الله عليه وآله محورًا واسعًا للحوار والنقاش بين المفكّرين والمتكلّمين المسلمين، من الشيعة والسنّة على حدّ سواء. ومن الطبيعي أنّ الجواب عن هذا السؤال، وفق الرؤية الشيعيّة، هو جوابٌ سلبي؛ إذ إنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله قد بادر في أزمنةٍ وأمكنةٍ متعدّدة إلى التعريف بخليفته من بعده. وسيُشار لاحقًا إلى شاهدٍ قرآنيّ ودليلٍ روائيّ في هذا الشأن. غير أنّه قبل ذلك لا بدّ من كشف الستار عن سرّ تصرّف النبيّ صلى الله عليه وآله في تلك اللحظات الأخيرة، وبيان سبب عزمه على التأكيد مجدّدًا على مسألة الخلافة، وهل تمكّن من تبليغ ما أراده بالفعل أم لا.

إنّ ما كان يجري من تحرّكاتٍ سرّيّة ونشاطاتٍ خفيّة لبعض الصحابة، إلى جانب تخلّفهم عن الامتثال لأمر النبيّ ﷺ بالالتحاق بجيش أسامة، هو الذي دفعه ﷺ إلى الإقدام على خطوةٍ تهدف إلى إحباط تلك التحرّكات الغامضة. ولذلك، وعلى الرغم من شدّة الحمّى التي كانت تعتريه، خرج إلى المسجد وخاطب الناس بصوتٍ عالٍ قائلًا: «أيّها الناس، لقد أُضرمت الفتنة، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وليس لكم عليّ من حجّة. لم أُحلّ إلّا ما أحلّه القرآن، ولم أُحرّم إلّا ما حرّمه القرآن».[1]

وفي ظلّ هذا الواقع، كان المتربّصون ينتظرون رحيل النبيّ ﷺ ليضعوا أيديهم على مقاليد الحكم في الأمّة الإسلاميّة. أمّا النبيّ الأكرم ﷺ، وقد كان شديد القلق على مصير الإسلام وخائفًا من تفرّق المسلمين، فقد طلب القلم والدواة من أجل الحيلولة دون الانحراف في مسألة الخلافة، وإتمام الحجّة على الناس، ليؤكّد للمرّة الأخيرة. بوثيقةٍ مكتوبة. خلافة أمير المؤمنين وأهل بيته، وليملي ما يحفظ الأمّة الإسلاميّة من الضلال أبدًا.

وفي تلك اللحظة، وإن اعترض بعضهم واتّهموا النبيّ ﷺ بالهَذَيان، فإنّه ﷺ بلّغ مضمون ما كان يريد كتابته بأسلوبٍ آخر. وتشهد كتب التاريخ أنّه، وهو يعاني آلام المرض ومعاناته

١ . ابن هشام، عبد الملک، السيرة النبوية، ج٢، ص٦٥٤، طبقات ابن سعد، محمد، الطبقات الكبري، ج٢، ص٢١٦، به نقل از: سبحاني، جعفر، فروغ ابديت، ط سيزدهم، قم: دفتر تبليغات اسلامي، ١٣٧٦ش، ج٢، ص٨٥٥.

الشديدة، دخل المسجد واضعًا يدًا على كتف عليّ عليه السلام، واليد الأخرى على كتف ميمونة خادمته، ثمّ صعد المنبر وقال: «إنّي تاركٌ فيكم الثقلين». فقام رجلٌ وسأل: وما الثقلان؟ فغضب النبيّ صلى الله عليه وآله وقال: «دعني أُبيّن، فليس هذا موضع السؤال»، ثمّ قال: «أحدهما كتاب الله، والآخر عترتي».[1]

أمّا الأدلّة التي تدلّ على إمامة عليّ عليه السلام قبل الطلب الأخير الذي صدر عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فمنها ما يأتي:

آية التبليغ:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[2]

وعند التأمّل والتدبّر في هذه الآية الكريمة، يبرز سؤالٌ جوهريّ: ما هو الأمر الذي، بعد ثلاثة وعشرين عامًا من رسالة النبيّ صلى الله عليه وآله، لم يُطرح رسميًّا إلى الأيام الأخيرة من عمره الشريف، وها هو الآن عازم على تبليغه؟ وما مدى خطورته وأهميّته حتّى جُعل بمنزلة الرسالة نفسها، بحيث إنّ ترك تبليغه يُعدّ كأنّه تركٌ لتبليغ أصل الرسالة؟ ثمّ ما هو هذا الأمر الذي بلغ من الأهميّة حدًّا جعل بعض الناس. بحسب ذيل الآية. مستعدّين للتعرّض لشخص النبيّ صلى الله عليه وآله نفسه؟

١ . المجلسي، محمد باقر، بحارالانوار، ج٢٢، ص٤٧٦، به نقل از: سبحاني، همان، ص٨٦٢.

٢ . سورة المائدة، آية ٦٧.

ومن الواضح أنّ المسلمين كانوا قد أدّوا الصلاة منذ أكثر من عشرين سنة، وأنّ الصيام فُرض بعد الهجرة، وأنّ الجهاد شُرع منذ السنة الثانية للهجرة، كما أُعلن وجوب الحجّ على الناس. وبذلك، لا يبقى أمرٌ بهذه الخطورة والعظمة، بحيث يـوازي النـبوّة ويعادلها في الأهـميّـة، سـوى مسألة الإمامة والـولايـة وخلافة النبيّ صلى الله عليه وآله. ومع أنّ ولايـة عليّ عليه السلام كانت قد أُعلنت في مناسباتٍ وأمكنةٍ متعدّدة، إلّا أنّها لم تُطرح قطّ على هذا النحو الواسع والرسميّ، كما وقع في حجّة الوداع، وفي ذلك المشهد الفريد حيث اجتمع الناس في صحراء ملتهبة من مناطق متعدّدة، من اليمن والمدينة وغيرها، في مكانٍ واحد.

ومـن الـشـواهـد عـلـى أنّ الآيـة تشير إلـى مـسـألـة خلافة النبيّ صلى الله عليه وآله، وأنّ المقصود بهذه الخلافة ليس سوى عليّ عليه السلام، ما نُقل من إظهار اعتراضاتٍ شديدة في ذلك الموقف. فقد ورد في بعض الروايات أنّ رجلًا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله محتجًّا وقال: إن كان ما قلته اليوم من عند الله، فاسأل الله أن يُنزل عليّ عذابًا من السماء فيهلكني.[1]

وشاهدٌ آخر على ذلك ما ذكره فخر الدين الرازي، وهو من كبار علماء أهل السنّة ومن الموثوقين لديهم، حيث قال في تفسيره للآية الكريمة: إنّ هذه الآية نزلت في عليّ بن أبي طالب. فلمّا نزلت، أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيد عليّ عليه السلام وقال: «من

١ . الطبرسي، فضل بن حسن، مجمع البيان، ج٩، ص٣٥٢، به نقل از: مكارم شيرازي، ناصر، آيات ولايت در قرآن، ط١، قم: انتشارات نسل جوان، ص٤٥.

كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهمّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه». ثمّ لقي عمر عليًّا عليه السلام وقال له: هنيئًا لك يا ابن أبي طالب، لقد أصبحت اليوم مولاي ومولى كلّ رجلٍ وامرأةٍ من المسلمين.[1]

ومن جملة الروايات التي تدلّ على خلافة عليّ عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله حديثُ المنزلة. فقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: «أنتَ منّي بمنزلةِ هارونَ من موسى، إلّا أنّه لا نبيّ بعدي». أي: يا عليّ، إنّ لك بالنسبة إليّ المنزلة نفسها التي كانت لهارون بالنسبة إلى موسى، غير أنّه لا نبوّة بعدي. ووفقًا لمقتضى هذا الحديث الشريف، فإنّ عليًّا عليه السلام يتمتّع بجميع مقامات النبيّ صلى الله عليه وآله ومراتبه، باستثناء مقام النبوّة.

ومن أوضح المقامات التي كانت لهارون بالنسبة إلى موسى عليه السلام: مقام الوزارة، والمشاركة في شؤون الرسالة، ووجوب طاعة الناس له. وقد ورد ذلك صريحًا في الآيات من سورة طه، حيث دعا موسى ربّه قائلًا: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾. كما قال له في الآية ١٤٢ من سورة الأعراف: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾، أي: كن خليفتي في قومي، وأصلِح، ولا تسلك طريق المفسدين.

١ . فخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، ج١١، ص٤٩، مكارم شيرازي، جمعي از نويسندگان، تفسير نمونة، دارالكتب الاسلامية، ط ١٢، ج١٣، ص٣٣. آية اكمال الدين، سورة المائدة، آية ٣؛ آية ولايت، سورة المائدة، آية ٥٥؛ آية اولي الامر سورة النساء، آية ٥٩؛ آية صادقين، سورة التوبة، آية ١١٩؛ آية تطهير، سورة الأحزاب، آية ٣٣ و....

ويكتب العلّامة السيّد شرف الدين الموسوي، صاحب الكتاب القيّم «المراجعات»، أنّ من يتأمّل في كلام النبيّ صلى الله عليه وآله هذا، وينظر في ما ورد في تفسير الآية السابعة والستّين من سورة المائدة: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، يدرك أنّ كلا النصّين يسعيان إلى هدفٍ واحد، ويؤكّدان حقيقةً واحدة.[1]

غير أنّه قد يخطر ببال القارئ إشكالٌ مفاده أنّ حديث المنزلة قد ورد في واقعة غزوة تبوك، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله إنّما جعل عليًّا عليه السلام نائبًا عنه في تلك المرحلة الزمنيّة الخاصّة فحسب، وبناءً عليه لا يمكن الاستدلال من هذا الحديث على عموميّة خلافة عليّ عليه السلام وشمولها لما بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله.

وفي الجواب عن هذه الشبهة يُقال: إنّ حديث المنزلة لم يصدر عن رسول الله صلى الله عليه وآله في واقعة غزوة تبوك وحدها، بل ورد عنه في مناسباتٍ أخرى أيضًا، ونشير هنا إلى نموذجين من ذلك:

حديث أمّ سليم:

كانت أمّ سليم من النساء اللواتي تحمّلن في سبيل الإسلام أنواعًا من الأذى والشدائد، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله يحدّثها أحيانًا. وفي أحد الأيّام قال لها: «يا أمّ سليم، لحمُ عليٍّ من لحمي، ودمُه من دمي، وهو منّي بمنزلة هارون من موسى». ولا يخفى على القارئ الكريم أنّ هذا الحديث لم يُقَل في

١. شرف الدين الموسوي، سيد عبد الحسين، المراجعات، ص١٣٦-١٥٤.

سياق ظرفٍ عسكريّ خاصّ، ولا في مناسبةٍ استثنائيّة، بل ورد لمحض بيان المنزلة والقيام بوظيفة الإرشاد والنصيحة، وإيضاح مقام عليّ عليه السلام.[1]

حديث بحضور أبي بكر وعمر وأبي عبيدة:

كما رُوي أنّ أبا بكر، وعمر، وأبا عبيدة الجرّاح كانوا يومًا عند النبيّ صلى الله عليه وآله، فوضع النبيّ يده على كتف عليّ عليه السلام، ثمّ قال: «يا عليّ، أنت أوّل المؤمنين إيمانًا، وأوّل المسلمين إسلامًا، وأنت منّي بمنزلة هارون من موسى».[2]

وفضلًا عن هذين الحديثين الشريفين، فإنّ الحديث الذي صدر في غزوة تبوك نفسه يدلّ على العموم، ولا يختصّ بتلك الواقعة وحدها؛ إذ إنّ صدوره في موردٍ خاصّ. وهو استخلاف عليّ عليه السلام في المدينة إبّان غزوة تبوك. لا يمنع من شموله وعموميّته. ولتوضيح ذلك، لو أنّ طبيبًا نهى مريضًا له، كان يأكل التمر، عن أكل الحلوى، فإنّ العرف لا يفهم من نهي الطبيب أنّ المنع يختصّ بالتمر وحده، بل يفهم منه النهي عن جميع أنواع الحلوى. وحديث المنزلة يجري على هذا النحو نفسه، ومن ثمّ فإنّه يدلّ على عموميّة خلافة عليّ عليه السلام، حتّى لما بعد رحيل النبيّ صلى الله عليه وآله.

١ . متقي الهندي، علي، كنز العمال في سنن الاقوال و الافعال و الاحوال، حديث ٢٥٥٤، ص ١٥٤، به نقل از: شرف الدين موسوي، المراجعات، ص ١٤٦.

٢ . متقي الهندي، علي، كنز العمال في سنن الاقوال و الافعال و الاحوال، حديث ٢٥٥٤، ص ١٥٤، به نقل از: شرف الدين موسوي، المراجعات، ص ١٤٦.

وعليه، وبالاستناد إلى الآية الكريمة وحديث المنزلة، يتّضح أنّ الوصيّة والخلافة قد تقرّرتا قبل وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله. غير أنّ الظروف التي نشأت آنذاك، مع ترصّد بعض الخصوم لاغتصاب زمام الخلافة من الأمّة، دفعت النبيّ صلى الله عليه وآله إلى تبليغ هذا الأمر بأسلوبٍ آخر يناسب تلك المرحلة.

المصادر للمزيد من الدراسة:

«ترجمة الغدير»، للعلّامة الأميني.

«الاجتهاد في مقابل النص»، لعلي دواني.

٢) لماذا لم يُقدم رسول الله صلى الله عليه وآله، قبل استشهاده، على القضاء على المنافقين واليهود الذين كانوا يستهدفون الخلافة، مستعينين بما يُسمّى اليوم «الطابور الخامس»، مع أنّهم كانوا قد كشفوا عن حقيقتهم؟ وهل يُعدّ ذلك قصاصًا قبل وقوع الجريمة؟

إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يكن ليُعاقب أحدًا قبل ارتكابه الجريمة؛ فالنبيّ الذي يصفه القرآن الكريم بأنّه على خُلُقٍ عظيم، ويقدّمه بوصفه أُسوةً حسنة، كانت جميع أفعاله وسلوكه محلّ تأييدٍ إلهيّ. ولم يكن من منهجه، ولا من برنامجه الرساليّ، أن يتعامل مع الناس على أساس ذواتهم ونواياهم الباطنة، لأنّ الإنسان. في أصل فطرته. قابلٌ للإصلاح والهداية.

وقد عبّر أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عن هذا الأصل بوضوحٍ في عهده المشهور لمالك الأشتر (المقطع ٥٣ من نهج البلاغة)، حيث أكّد على أنّه لا يجوز معاقبة أحد قبل ارتكاب الجريمة، ولا يصحّ الاحتجاج بأنّه عدوٌّ في الباطن أو يُضمر الشرّ في الخفاء. وكذلك كان النبيّ صلى الله عليه وآله، امتثالًا لآيات القرآن، لا يتعامل مع الناس على أساس ما في سرائرهم، بل على وفق ظواهرهم، وكان يُغَلِّب حسن الظنّ ما لم يظهر خلافه.

وبمقتضى العدل الإلهيّ وتعاليم القرآن الكريم، لا يجوز عدّ إنسانٍ مجرمًا قبل وقوع الفعل الإجراميّ، ولا إنزال العقوبة به قبل ذلك؛ فالثواب والعقاب إنّما يكونان على أساس العمل، لا على أساس الظنّ أو الاحتمال. ومن ثمّ، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله،

بوصفه أوّل الداعين إلى الله، ومظهر العدل الإلهيّ، لم يكن ليقتصّ من أحدٍ على جريمةٍ لم يرتكبها.

وحين كان اليهود يعيشون في جوار النبيّ صلى الله عليه وآله، عقد معهم عهودًا ومواثيق، وكان يعلم أنّ فيهم من يضمر العداء، غير أنّه لم يتعرّض لهم ما داموا لم يُظهروا جرمًا صريحًا، ولم يرد في شأنهم أمرٌ إلهيّ. فلمّا تكشّف سلوكهم العدائيّ، وجاء الوحي الإلهيّ ببيان حقيقتهم، وقعت وقائع معروفة كغزوة خيبر، حيث أُزيل خطرهم، وصودرت أراضيهم.

وبحسب مسار التاريخ الإسلاميّ، ووفق الأحكام الإسلاميّة العليا، فإنّ المداراة تُعدّ من أنجع أساليب التعامل مع الآخرين؛ ما داموا لم يُعلنوا العداء، فهم متساوون في الحقوق والواجبات. وهذا ما أكّد عليه أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، حيث أوصى مالك الأشتر بالمداراة وحسن المعاشرة مع الناس.

ثمّ إنّ قضيّة الخلافة لم تكن من صنع فئةٍ محدودة فحسب، بل شارك فيها جمهور من الناس الذين اجتمعوا في السقيفة وبايعوا، فهل يُعقل. وفق هذا المنطق. أن يُعامل النبيّ صلى الله عليه وآله الجميع معاملة المجرمين؟ وهل كان عليه أن يُعدم جميع المشركين بعد أسرهم، أو أن يُنفّذ القتل بأبي سفيان وبني أميّة واحدًا بعد آخر؟ إنّ مثل هذا الأسلوب لا يمتّ إلى منطق الإسلام بصلة.

ولو كان النبيّ صلى الله عليه وآله يتصرّف على أساس علمه الباطنيّ بالأحداث والمآلات، لما بقي إلّا القليل، ولأُهلك أكثر الناس. غير أنّه صلى الله عليه وآله كان رحمةً للعالمين، ومأمورًا باتّباع ما يُوحى إليه من الله تعالى، لا بما قد يراه الناس. بظنّهم القاصر. صوابًا. وقد عبّر أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عن هذا المعنى بقوله في نهج البلاغة: إنّ عنده علومًا وأسرارًا تعلّمها من رسول الله صلى الله عليه وآله، ولو أفصح عنها لارتعد الناس من شدّة الدهشة، غير أنّه لا يُظهرها جميعًا؛ خوفًا من الغلوّ فيه، ولئلّا يُظلم رسول الله صلى الله عليه وآله.[1]

وعلى هذا الأساس، ينبغي التسليم بأنّ تحليل وقائع صدر الإسلام، ولا سيّما مواقف النبيّ صلى الله عليه وآله وإجراءاته، يقتضي ملاحظة جملةٍ واسعة من الاعتبارات والمعايير، وعدم الاكتفاء بنظرةٍ جزئيّة أو انفعاليّة.

المصادر للمزيد من الدراسة:

«القرآن والمعصومون في المرآة العلويّة»، أمير علي حسنلو.

«السيرة الصحيحة للنبيّ»، جعفر مرتضى العاملي.

«تاريخ الخلفاء»، رسول جعفريان.

١. نهج البلاغة، خ٩٣ وخ١٨٩ وخ١٧٥.

٣) هل كان رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليّ عليه السلام يشهدان في الأذان والإقامة برسالتهما وولايتهما؟

الأذان في اللغة بمعنى الإعلام، وفي الشريعة الإسلاميّة يُقصد به ألفاظٌ مخصوصة تُقال قبل الصلوات اليوميّة الواجبة. أمّا الإقامة، فهي في اللغة بمعنى الإقامة والإنهاض، وفي الاصطلاح الشرعيّ ألفاظٌ تُقال بعد الأذان وقبل الشروع في كلّ صلاةٍ واجبة. ولعلّ سبب تسميتها بالإقامة أنّ المصلّي، بقولها، يتهيّأ لنيّة الصلاة، ويمتنع عن الكلام، ويقوم بإقامة الصلاة فعليًّا.

وقد ذكر العلّامة المجلسي، في بيان تشريع الأذان، أنّ جميع الشيعة متّفقون على أنّ الأذان شُرّع عن طريق الوحي ونزل به جبريل على النبيّ صلى الله عليه وآله.[١] كما وردت روايات متعدّدة عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام تُثبت هذا المعنى. ففي حديثٍ صحيح عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام أنّه قال: «لمّا عُرج بالنبيّ صلى الله عليه وآله إلى المعراج وبلغ بيت المعمور، حان وقت الصلاة، فأذّن جبريل وأقام، فصلّى النبيّ صلى الله عليه وآله». ثمّ بعد أن يذكر الإمام الباقر عليه السلام كيفيّة الأذان والإقامة، يقول: «ثمّ أمر النبيّ صلى الله عليه وآله في الأرض أن يكون بلال مؤذّنًا، فكان يؤذّن إلى أن تُوفّي رسول الله صلى الله عليه وآله».[٢]

وبحسب الروايات المتعدّدة، فإنّ مجموع ألفاظ الأذان

١ . المجلسي، روضه المتقين، انتشارات بنياد، فرهنک اسلامي، ج٢، ص٢١٣.
٢ . حر العاملي، وسائل الشيعه، قم: انتشارات موسسة آل البيت الاحياء، التراث، ج٥، ص٣٦٩.

والإقامة التي نزل بها الوحي على النبيّ صلى الله عليه وآله، وكان يتلفّظ بها في الأذان، يبلغ خمسًا وثلاثين جملة: ثماني عشرة جملة في الأذان، وسبع عشرة جملة في الإقامة.[1] ومن هذه الجمل، التي لا خلاف فيها بين الشيعة والسنّة، قول: «أشهد أنّ محمّدًا رسول الله». ومن الواضح أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يذكر هذه الجملة ويشهد برسالته، وكان المسلمون يتعلّمون ذلك منه.

أمّا السؤال عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وهل كان يشهد بولايته في الأذان والإقامة، فينبغي التنبيه إلى أنّ الشهادة بولاية عليّ عليه السلام، بقول: «أشهد أنّ عليًّا وليّ الله»، ليست جزءًا من الأذان ولا من الإقامة، ولم تَرِد ضمن الأذان الذي نزل به الوحي على النبيّ صلى الله عليه وآله. غير أنّه، استنادًا إلى بعض الروايات، وإلى ما أقرّه النبيّ صلى الله عليه وآله من عمل كبار الصحابة، كأبي ذرّ وسلمان، فإنّ التلفّظ بها في الأذان والإقامة أمرٌ مطلوب من حيث الرجاء.

فقد نقل الشيخ عبد الله المراغي المصري، وهو من علماء أهل السنّة المحقّقين، أنّ سلمان الفارسي، بعد واقعة غدير خمّ، كان يشهد في الأذان والإقامة. بعد الشهادتين بالتوحيد والرسالة. بولاية عليّ عليه السلام. فبلغه ذلك أحد الصحابة، فأخبر النبيّ صلى الله عليه وآله وقال: يا رسول الله، إنّي سمعت اليوم أمرًا لم

١ . حر العاملي، وسائل الشيعه، ج٥، ص ٤١٣، حديث ٦، ١٤، ٩، ١.

أسمعه من قبل، وهو شهادة سلمان بولاية عليّ في الأذان والإقامة. فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «سمعتم خيرًا».[1]

كما نُقل أنّ أبا ذرّ الغفاري كان يشهد بولاية عليّ عليه السلام في الأذان والإقامة، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله حين سُئل عن ذلك، أقرّ عمله واعتبره صحيحًا.[2]

وعلى هذا الأساس، ذهب علماء الشيعة إلى أنّ هذه الشهادة ليست جزءًا من الأذان ولا من الإقامة، ولا يجوز الإتيان بها بقصد الجزئيّة، لكن لا إشكال في ذكرها بقصد رجاء المطلوبية، بل هو أمرٌ مرغوبٌ فيه ومحبّذ.[3] وقد عدّ السيّد باقر الشيرازي الشهادة بولاية أمير المؤمنين عليه السلام روح الأذان ومكمّله[4]، كما اعتبر السيّد محسن الحكيم هذه الشهادة من شعارات الإيمان وعلامات التشيّع.[5]

ومن مجموع ما تقدّم، يمكن استخلاص النتائج الآتية:

إنّ الأذان والإقامة شُرّعا عن طريق الوحي، وبلّغا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله في مكّة.

أوّل مؤذّنٍ في السماء من بين الملائكة هو جبرئيل، وأوّل

١. عبدالحليم الغزّي، الشهاده الثالثه المقدسه، انتشارات هيئت القمر بني هاشم، ص ٣٢٣.
٢. عبدالحليم الغزّي، الشهاده الثالثه المقدسه، انتشارات هيئت القمر بني هاشم، ص ٣٢٣.
٣. امام خميني، آداب الصلوة، ص ١٤٠.
٤. النجفي، محمد حسن، مجمع الرسائل، ط مشهد، ص ٢٢٦.
٥. الحكيم، السيد محسن، مستمسک عروه الوثقي، انتشارات اسماعيليان، ج٥، ص ٥٤٥.

مؤذّنٍ في الأرض من بين البشر هو بلال الحبشي.

إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يشهد في أذانه وإقامته برسالته.

إنّ الشهادة بولاية عليّ عليه السلام ليست جزءًا من الأذان ولا من الإقامة، ولا يجوز الإتيان بها بنيّة الجزئيّة، لكن ذكرها بقصد الرجاء لا إشكال فيه، بل هو أمرٌ مستحبّ ومحبوب، ومن شعارات الإيمان وعلامات التشيّع.

وبما أنّ هذه الشهادة ليست جزءًا من الأذان والإقامة، فمن المتيقّن أنّ أمير المؤمنين عليًّا عليه السلام لم يكن يأتي بها في أذانه وإقامته على أنّها جزءٌ منهما.

المصادر للمزيد من الدراسة:

«الأذان شعار الإسلام»، محمّد إسماعيل نوري.

«أهميّة الأذان والإقامة»، محمّد محمّدي الاشتهاردي.

٤) هل كان رسولُ الإسلام ﷺ ضعيفًا في إدارته، بحيث لم يتمكّن من تثبيت أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في موقع الخلافة والولاية من بعده؟ وهل لم يكن يعرف الناس حقّ المعرفة؟ ولماذا لم يُبيّن منزلة عليّ عليه السلام بوضوحٍ يمنع انحراف الناس؟

تمهيدًا للجواب، لا بدّ من التذكير بعدّة نقاط، يتّضح من خلالها وجه المسألة على نحوٍ كامل:

إنّ نجاح أيّ قائدٍ في المجتمع لا يتوقّف على عنصرٍ واحد، بل يحتاج إلى مجموعة من الشروط، من قبيل كفاءة القيادة، وعمق المعرفة بالمجتمع، وحُسن تفهيم البرامج والمواقف، ومن أهمّ هذه الشروط. بل لعلّه أخطرها. قابليّة الناس أنفسهم، في مختلف الأبعاد؛ من الاستجابة لأوامر القيادة، وإزالة العوائق النفسيّة والداخليّة، وغير ذلك. فمهما بلغ القائد من الوعي والإدارة، إذا لم يُرافقه الناس، ولم يتعاونوا معه، فإنّ تحقيق أهدافه يصبح متعذّرًا. ويُضاف إلى ذلك دور المعارضين والمنافقين، الذين قد يؤدّي نشاطهم إلى إحباط جهود القائد وتعطيل مسيرته.

إنّ النفس الإنسانيّة، إذا لم تُضبط وتُهذَّب، قادرة على أن تُحدث أعظم الأخطار؛ ولذا قال النبيّ ﷺ: «أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك»، فالنفس الأمّارة قد تجعل الإنسان أعمى وأصمّ عن الحقائق. كما رُوي عن النبيّ ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام أنّ أعظم الجهاد هو جهاد النفس.[1]

١ . صابري، عليرضا، الحكم الزاهره، مكتب الاعلام اسلامي، ط ١، ١٤١٥ هـ ق،

للمعصية آثارٌ خطيرة، منها أنّ الذنب يجرّ إلى ذنبٍ آخر، وقد ينتهي بالإنسان إلى درك الكفر؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1]. وإنّ سُكر المعصية أشدّ من سُكر الخمر.[2]

بعد هذه المقدّمات، يمكن الإجابة عن جزأي السؤال على نحوٍ مستقلّ:

أمّا الجزء الأوّل، وهو: هل كان النبيّ صلى الله عليه وآله ضعيفًا في إدارته، أو غير عارفٍ بالمجتمع والناس؟ فالجواب: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن ضعيفًا البتّة، بل كان على درجةٍ عالية من الإدارة والوعي، ويشهد على ذلك أمورٌ ثلاثة:

عصمة النبيّ صلى الله عليه وآله، المستفادة من آية التطهير[3] ونظائرها، تمنع أصلًا وقوع الخطأ والضعف في مقام التبليغ والتدبير. كما أنّ علمه صلى الله عليه وآله كان مستندًا إلى الوحي الإلهيّ، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.[4] بل إنّ القرآن يُشدّد في تحذير النبيّ صلى الله عليه وآله من نسبة أيّ شيء إلى الله بغير حقّ، ويُبيّن شدّة العاقبة لو وقع ذلك، ممّا يدلّ على كمال الضبط الإلهيّ لمسيرته.[5]

١٣٧٣ هـ ش، ج٢، ص٣٨٦.

١. سورة الروم، آية ١٠.
٢. الحكم الزاهرة، ج٢، ص٤٣١.
٣. سورة الأحزاب، آية ٣٣.
٤. سورة النساء، آية ١١٣.
٥. سورة الالحاقة، آية ٤٤.

إنّ الأداء العمليّ للنبيّ ﷺ خلال السنوات العشر التي قضاها في المدينة بعد الهجرة يُظهر بوضوحٍ قوّة إدارته؛ فقد تمكّن في بيئةٍ غريبة من إقامة عقد المؤاخاة بين قبيلتين متخاصمتين، الأوس والخزرج، وبناء المسجد بوصفه نواة الدولة الإسلاميّة[1]، وصناعة رجالٍ عظام من أولئك الأعراب، كالمقداد وعمّار وبلال، وخوض الحروب والانتصار فيها، ثمّ العودة فاتحًا إلى مكّة.[2] وكلّ ذلك شاهدٌ لا يُنكر على حُسن الإدارة وقوّتها.

إنّ القرآن نفسه يثني على أخلاق النبيّ ﷺ وسلوكه، بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3]، ويُقرّ بإتمامه للرسالة، كما في آية التبليغ، حيث جعل عدم تبليغ ولاية عليّ عليه السلام مساويًا لعدم تبليغ الرسالة[4]، ومفهوم الآية أنّه إذا بلّغها فقد أدّى الرسالة. وقد شهد التاريخ أنّ النبيّ ﷺ أدّى هذا التبليغ في غدير خمّ.

وأمّا الجزء الثاني من السؤال، وهو: هل قصّر النبيّ ﷺ في تعريف الناس بعليّ عليه السلام وبيان منزلته؟ فالجواب: كلا، لم يكن هناك أيّ تقصير، لا من جهة القرآن ولا من جهة السنّة.

أمّا القرآن، فقد جعل ولاية عليّ عليه السلام شرط كمال الدين في

١. سبحاني، جعفر، فروغ ابديت، نشر عمار، ج٢، ص٣٦٧-٣٨٥.
٢. سبحاني، جعفر، فروغ ابديت، نشر عمار، ج٢، ص٣٦٧-٣٨٥.
٣. سورة القلم، آية ٤.
٤. فروغ ابديت، ج٢، ص٨٣١

آية الإكمال[1]، ومساويةً لأداء الرسالة في آية التبليغ[2]، وبيّن عصمته في آية التطهير[3]، وجعله بمنزلة نفس النبيّ صلى الله عليه وآله في آية المباهلة[4]، وصرّح بولايته في آية الولاية[5]، وبطاعته في آية أولي الأمر[6]، كما أشار إلى فضائله في آياتٍ أخرى، كآية ٢٠٧ من سورة البقرة، وآية ٢٣ من الأحزاب، وآية ٢٣ من الشورى، وسورة الإنسان، وغيرها.

وأمّا السنّة، فقد عرّف النبيّ صلى الله عليه وآله عليًّا عليه السلام في حديث الغدير[7] وليًّا، وفي حديث إنذار العشيرة خليفةً[8]، وفي حديث المؤاخاة[9] أخًا، وفي حديث المنزلة[10] وصيًّا، وفي تبليغ سورة براءة بقوله: «عليٌّ منّي»[11]، وفي حديث خيبر بأنّه حبيب الله ورسوله[12]، فضلًا عن عشرات الفضائل الواردة في روايات ردّ الشمس، والطير المشويّ، وغيرها.[13]

١. سورة المائدة، آية ٥.
٢. سورة المائدة، آية ٦٧
٣. سورة الأحزاب، آية ٣٣.
٤. سورة آل عمران، آية ٦١.
٥. سورة المائدة، آية ٥٥.
٦. سورة النساء، آية ٥٩.
٧. العلامة الأميني، الغدير، ج١، ص١١.
٨. محمد بن جرير الطبرسي، تاريخ الامم و الملوک، مصر، ط ١، ج٢، ص٢١٦ و ص٢١٧.
٩. حافظ أبي عبدالله محمد حاكم نيشابوري، مستدرک، حيدر آباد كن، ١٣٢٤، ج٣، ص١٤.
١٠. ابن هشام، السيرة النبوية، مصر، ١٣٥٥، ج٤، ص١٦٣.
١١. احمد بن حنبل، مسند احمد، مصر، ١٣١٣، ج١، ص٣.
١٢. آيتي، محمد ابراهيم، التصحيح دكتر ابوالقاسم كرجي، تاريخ پيامبر اسلام، ط دانشكاه طهران: ١٣٦٦ ش، ص٥٠٢.
١٣. الحكم الزاهره، ج٢، ص٩٨-١٤٣ مفصل فضائل علي مساله خلافت و....

بل وردت نصوصٌ شديدة الدلالة، منها قول النبيّ صلى الله عليه وآله: «من نازع عليًّا في الخلافة بعدي فهو كافر، محاربٌ لله ولرسوله»، وقوله: «من شكّ في حقّ عليّ فقد كفر»[1]، وقوله: «من اغتصب خلافة عليّ بعدي فهو كافر».[2] ولا بيان بعد هذا البيان.

وممّا يزيد الأمر وضوحًا أنّ هذه الروايات وصلت إلينا رغم أنّ الحكومات المتعاقبة. من الخلفاء الأوائل، ثمّ الأمويّين والعبّاسيّين. بذلت جهدًا كبيرًا في كتمان فضائل أمير المؤمنين عليه السلام؛ فوصول هذا الكمّ من النصوص دليلٌ على أنّ تأكيد النبيّ صلى الله عليه وآله كان أعظم وأوسع.

وعليه، فإنّ موضع الخلل لا يكمن في إدارة النبيّ صلى الله عليه وآله، ولا في عدم تعريفه بعليّ عليه السلام، بل يجب البحث عنه في موضعٍ آخر؛ فحين يسلك الإنسان طريق المعصية ولا يتدارك نفسه بالتوبة، قد ينتهي به الأمر إلى الكفر. وشاهد ذلك ما جرى في كربلاء، حيث إنّ عمر بن سعد لم يكن في البداية يريد القتال، لكنّه لمّا دخل في المعصية ارتكب أفظع الجرائم.

وكذلك الحال في اغتصاب الخلافة؛ فقد كان الغاصبون عالمين بحقّ عليّ عليه السلام، بل هنّؤوه بالخلافة[3]، غير أنّ الأهواء

١ . المجلسي، محمد باقر، بحار الانوار، طهران: منشورات المكتبه الاسلامية، ج٣٨ ص١٣٥.

٢ . حر العاملي، محمد بن الحسن، اثباه الهداه، قم: ناشر مطبعه علمية، ج٢، ص٢٣١.

٣ . اميني، الغدير، دار الكتب الاسلامية، ط ٢، ١٣٦٦، ج١، ص١١؛ شيخ المفيد،

النفسيّة والذنوب المتراكمة قادتهم إلى ذلك، من الفرار في أُحد[1]، ومخالفة النبيّ صلى الله عليه وآله، والاعتراض في الحديبية[2]، والتخلّف عن جيش أسامة[3]، ورفض إحضار القلم والدواة في اللحظات الأخيرة، واتهام النبيّ صلى الله عليه وآله بالهذيان[4]، ثمّ الهجوم على دار فاطمة عليها السلام[5]، وسوق عليّ عليه السلام مقيّدًا[6]، وغصب فدك.[7] وكان أصل ذلك كلّه الأهواء غير المنضبطة.

وقد نقل أمير المؤمنين عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إنّي أخاف عليكم بعدي ثلاثًا: الضلالة بعد المعرفة، واشتباك الحقّ بالباطل، وشهوة الفرج والبطن».[8] وقال عليه السلام أيضًا: «أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتّباع الهوى، وطول الأمل، فإنّ اتّباع الهوى يصدّ عن الحقّ».[9]

ولا يُنكر كذلك دور الحقد الكامن[10]، والخوف من الارتداد،

الأمالي، تحقيق علي اكبر غفاري حسين استاد ولي، مؤسسة النشر الاسلامي جامعه مدرسين، قم: ص١٩، ح٧.

١. فروغ ابديت، ج٢، ص٤٦٧.
٢. فروغ ابديت، ج٢، ص٦٠٠.
٣. فروغ ابديت، ج٢، ص٨٥٠.
٤. فروغ ابديت، ج٢، ص٨٥٠.
٥. سبحاني، جعفر، زندگي امام علي (ع)، ناشر جهان آرا، ط١، ص٢٤٣.
٦. نهج البلاغة، نامه ٢٨.
٧. زندگي امام علي (ع)، ص٢٦٠.
٨. الأمالي، ص١١١ حديث ١. امير المؤمنين (ع) قال: «و نحن احق بهذاالامر منكم ماكان فينا القاري لكتاب الله الفقيه في دين الله العالم بسنن رسول الله المضطلع بامر الرعيه و الله انه لغبثا فلا تتبع الهوي فتضلوا عن سبيل الحق فتزدادوا من الحق بعداً؛ الامامة و السياسة، ابن قتيبه الدينوري، ج١، ص٢٩.
٩. نهج البلاغة، فيض الاسلام، خ ٤٣، ص ١٢٧.
١٠. زندگي امام علي (ع)، ص٢٠٠.

وهاجس الحفاظ على وحدة المسلمين[1]، وعدم تعاون بعض الناس، كما عبّر أمير المؤمنين عليه السلام عن حاله بقوله: «ابتُليتُ بأقوامٍ لا يطيعون إذا أمرت، ولا يُجيبون إذا دعوت... أليس لكم دينٌ يجمعكم؟ أو غيرةٌ تُغضبكم؟».[2]

وخلاصة القول:

إنّ نجاح القائد لا يتوقّف على كفاءته وحدها، بل يحتاج إلى قابليّة الناس وتعاونهم.

إنّ النفس إذا لم تُهذَّب قادت الإنسان إلى كبائر الذنوب.

وإنّ الذنب إذا استمرّ قد ينتهي بصاحبه إلى الكفر.

أمّا الجواب الموجز عن شقّي السؤال، فهو: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يكن ضعيفًا في إدارته، بل عصمته، وتأسيسه للدولة في المدينة، وفتوحه وانتصاراته، وتزكية القرآن لأخلاقه وأدائه، كلّها شواهد قاطعة على قوّة إدارتـه. كما أنّه عرّف بعليّ عليه السلام وإمامته بأوضح بيان، قرآناً وسنّةً، وإنّما كان سبب الانحراف هو اتّباع الأهواء، والحقد، وعدم تعاون بعض الناس.

١. زندگي امام علي (ع)، ص٢١١.
٢. نهج البلاغة، خطبة ٣٩.

المصادر للمزيد من الدراسة:

جعفر سبحاني، بحثٌ عميق في حياة عليّ عليه السلام، نشر جهان آرا.

مرتضى مطهّري، الإمامة والقيادة، انتشارات صدرا.

إبراهيم أميني، دراسة المسائل الكلّيّة للإمامة، نشر مكتب الدعاية الإسلاميّة بقم.

جعفر سبحاني، فروغ الأبدية، ج ٢، نشر عمّار.

هادي نجفي، الولاية والإمامة، دار الذخائر، قم.

الإمام أمير المؤمنين من وجهة نظر الخلفاء، مجمع الغدير، مشهد.

النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله ومخالِفوه

١) ما معنى الرفق والمداراة في السيرة النبويّة؟

المداراة تعني تحمّل الأعداء والتعايش مع أولئك الذين يُخفون عداوتهم.[١] ومن حيث إنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله كان رحمةً للبشريّة[٢]، فإنّه لم يُعرف عنه عنادٌ أو خصومة مع أحد، بل كان يلاطف الناس ويُدارِيهم ما استطاع، ابتغاءَ هدايتهم وإرشادهم.

جملة من الملاحظات:

١. المداراة مع الناس في الرؤية النبويّة

وصف النبيّ صلى الله عليه وآله المداراة مع الناس في كلامٍ له بقوله: «مداراةُ الناس نصفُ الإيمان، والرفقُ بهم نصفُ العيش...».[٣] فالمداراة مع الناس تمثّل نصف الإيمان، واللطف بهم نصف

١. الكليني، محمد بن يعقوب، كافي، طهران: دارالكتب الاسلامية، ١٣٦٥ش، ج٢، ص١١٦.
٢. سورة الأنبياء، آية ١٠٧.
٣. الكليني، محمد بن يعقوب، كافي، ج٢، ص١١٧.

الحياة. وقال في موضعٍ آخر: «غايةُ العقل بعد الإيمان بالله مداراةُ الناس».[1] وفي قولٍ ثالثٍ يثني فيه على هذه الخصلة: «أعقلُ الناسِ أشدُّهم مداراةً للناس».[2]

٢. المداراة مع أعداء الله تعالى

تظهر المداراة مع أعداء الله بجلاءٍ في السيرة النبويّة؛ إذ إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله في بدايات الدعوة عاملهم بكثيرٍ من الحلم والصبر، وتحمل أذاهم وتعذيبهم من غير أن يغضب أو يفقد سعة صدره في سبيل هدايتهم. ولم يُعرف عنه أنّه دعا على المشركين أو على قومه، بل كان يواظب على الدعاء لهم بالهداية. وقد رُوي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: إنّ المداراة مع أعداء الله هي أفضل صدقةٍ يقدّمها المرء لنفسه ولإخوانه. ومن شواهد ذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان في منزله حين استأذن عبد الله بن أُبيّ بن سلول—وكان من ألدّ أعدائه—فأذن له بالدخول، واستقبله ببشاشةٍ ولين. واستنادًا إلى هذه السيرة، عدّ الإمام الصادق عليه السلام هذا السلوك من أفضل الأعمال.[3]

٣. المداراة مع الذين حاربوه صلى الله عليه وآله

قاد أبو سفيان لسنواتٍ طويلة مشركي مكّة في حروبهم وسعيهم للقضاء على النبيّ صلى الله عليه وآله، ولم يدّخر جهدًا في محاربة

١ . شيخ الصدوق، الفقيه، ج٤، ص٣٨٤.
٢ . شيخ الصدوق، الفقيه، ج٤، ص٣٩٤.
٣ . نوري، مستدرک، آل البيت، ١٤١٧ق، ج٩، ص٣٦.

الإسلام والمسلمين. وهاجم المدينة المنوّرة مرارًا بسبب وجود النبيّ وأصحابه فيها، وتسبّب في استشهاد أعزّ المقرّبين إلى رسول الله ﷺ في بعض الوقائع، ومنهم حمزة عمّ النبيّ ﷺ، الذي كان أحبّ أعمامه إليه. ومع ذلك، فإنّ رسول الله ﷺ عند فتح مكّة لم يكتفِ بمنح الأمان لأبي سفيان وأهل بيته، بل جعل داره ملجأً آمنًا لكلّ من احتمى بها، ثم أطلق سراحهم بعد الأسر.[1] ويُعدّ هذا الموقف من أوضح الشواهد على أسمى مراتب المداراة النبويّة مع الأعداء، حتى إنّه ﷺ خصّهم بنصيبٍ أوفر من الغنائم تحت عنوان «المؤلّفة قلوبهم»، بقصد استمالة قلوبهم إلى الإسلام وصرفهم عن العناد.

٤. المداراة مع النساء

تجلّى المداراة مع النساء بوضوحٍ في سيرة النبيّ ﷺ وأهل بيته، بحيث تُعدّ نموذجًا يُحتذى به. فقد لقي النبيّ ﷺ من بعض زوجاته أذىً كثيرًا بنصّ آياتٍ من القرآن الكريم[2]، مع أنّه كان قادرًا على تطليقهنّ والزواج بغيرهنّ ممّن هو أفضل. غير أنّه تحلّى بسعة صدرٍ عظيمة وصبرٍ بالغ، فاحتمل ذلك الأذى وداراهنّ. وكانت عائشة وحفصة ممّن تحمّلهنّ النبيّ ﷺ وتعامل معهنّ بالحلم والرفق.[3]

١. شيخ الطوسي، التهذيب، طهران: دارالكتب اسلامية، ١٣٦٥ش، ج٦، ص١١٤ و ج٦، ص١٣٦؛ الراوندي، الالقصص الأنبياء، مشهد، بنياد پژوهش‌هاي آستان قدس، ١٤٠٩ق، ص٣٤٨؛ الطبري، تاريخ، بيروت دارالتراث، ١٣٨٧ش، ج٣، ص٥٤. ٥٥.

٢. سورة التحريم، آية ٣.

٣. سورة التحريم، آية ٥.

خلاصة القول

إنّ أثر المداراة في السيرة النبويّة بلغ أعلى مراتبه، حتى أصبحت سيرة النبيّ ﷺ مرجعًا يحتجّ به الأئمّة من بعده. كما أنّ أمير المؤمنين عليه السلام وأبناءه ساروا على نهجه، مقتدين بسيرة رسول الله ﷺ في مداراة الأعداء والتعامل معهم بالحكمة والصبر.

المصادر للمزيد من الدراسة:

الصحيح من سيرة النبي، جعفر مرتضى العاملي، ترجمة محمد سپهري.

فروغ أبديّت، جعفر سبحاني.

٢) هل كان مبدأ النبيّ صلى الله عليه وآله في التعامل مع المخالفين هو إقصاؤهم والقضاء عليهم؟

لم يكن منهج النبيّ صلى الله عليه وآله في مواجهة المخالفين والأعداء قائمًا على الإقصاء أو الاستئصال، بل اتّسم طوال حياته الشريفة بأرقى صور الحكمة والإنصاف. فقد عاش معهم في إطار الصلح والمداراة ما دام ذلك لا يحول دون انتشار رسالة الحقّ ووصول نداء الهداية إلى الناس. ولم يلجأ إلى المواجهة العسكريّة إلا في الحالات التي شكّل فيها الخصوم عائقًا مباشرًا أمام الدعوة، أو اعتداءً صريحًا على الجماعة الإسلاميّة.

وفيما يأتي عرضٌ لأنماط تعامله صلى الله عليه وآله مع الأعداء، على النحو الذي ورد في المصادر التاريخيّة:

١. انتهاء معظم حروب النبيّ صلى الله عليه وآله دون إراقة دماء

فُرضت على رسول الله صلى الله عليه وآله خلال عمره المبارك قرابة ثمانٍ وعشرين معركة، كبرى وصغرى، انتهت سبع عشرة منها إمّا بالصلح أو من دون قتال، وهو أمرٌ نادر في تاريخ القادة العسكريّين. ويُعدّ هذا من أبرز الدلائل على نزوعه إلى السلم؛ إذ إنّ عشر معارك فقط من أصل ثمانٍ وعشرين شهدت مواجهة عسكريّة، ومع ذلك فإنّ جميعها اتّخذ طابع الدفاع عن الأمّة الإسلاميّة وردّ العدوان عنها.[1]

١. اسلام وآیین نبرد، احمد حسینیان، ص ١٠٧–١٣٣.

٢. أسلوبه ﷺ في التعامل مع الأسرى

في غزوة بدر، وقع سبعون رجلًا من جيش العدو في الأسر. وعلى الرغم من أنّ أكثرهم كانوا مستحقّين للعقوبة، فإنّ النبيّ ﷺ، بعد تنفيذ الحكم في اثنين منهم، استجاب لطلب المسلمين وقَبِل من بقيّة الأسرى الفداء المالي ثم أطلق سراحهم.[١] وعقب فتح مكّة، توجّه ﷺ إلى أهلها قائلًا: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[٢]، مع أنّهم لم يدّخروا جهدًا، قبل الهجرة وبعدها، في إيذائه وإيذاء المسلمين. غير أنّه قابل ذلك كلّه بعفوٍ عظيم وسماحةٍ نادرة. وكان يأمر أصحابه بإكرام الأسرى، حتى إنّهم كانوا يقدّمونهم على أنفسهم عند الطعام.[٣] كما أنّه، في شأن أسرى بني قريظة الذين صدر بحقّهم حكم القتل، لم يسمح بأن يُحتجزوا تحت شمس الصيف الحارقة، مراعاةً للجانب الإنسانيّ حتى في أشدّ الظروف.[٤]

٣. عدم المبادرة إلى القتال

لم يكن النبيّ ﷺ يومًا بادئًا بالحرب؛ فقد أكّد هذا المبدأ في تعليماته لأصحابه قبل معركة بدر، إذ أوصاهم ألّا يكونوا هم من يبدأ القتال، تأكيدًا على أنّ الحرب عنده لم تكن خيارًا أوّلًا، بل ضرورة تُفرض عند الاعتداء.[٥]

١. تفسير القمي، ج١، ص٢٧٠.
٢. تاريخ الطبري، ج٣، ص٦١.
٣. تفسير القرآن العظيم، ابن الكثير الدمشقي، ج٤، ص٤٤٥.
٤. تاريخ الطبري، ج٣، ص٦١.
٥. تفسير القمي، ج١، ص٢٦٢.

٤. استنفاد سبل المودّة والدعوة إلى الصلح قبل الحرب

ومن أوضح الشواهد على سلميّته صلى الله عليه وآله حرصه الدائم على إتمام الحجّة وبذل أقصى درجات اللين والدعوة إلى الصلح قبل أي مواجهة. وتشهد الوقائع التاريخيّة أنّه لم يقطع علاقاته السياسيّة مع أشدّ خصومه عنادًا، بل كان يستقبل رسلهم، ويجيب على رسائلهم، ويتحاور معهم في القضايا السياسيّة والعسكريّة، واستمرّ هذا النهج حتى في أيّام الحرب نفسها.[١]

٥. تحريم قتل النساء والأطفال والأبرياء[٢]

وعلى الرغم من هذا الميل الواضح إلى السلم، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يكن يقبل بالذلّ أو يرضخ للظلم. فكان ما استطاع يلجأ إلى الحوار والأخلاق والمداراة، فإذا استُنفدت هذه الوسائل وبقي الخصوم معتدين معرقلين لمسار الدعوة، اختار المواجهة دفاعًا عن الحقّ. وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا المبدأ بوضوح في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٣]، فجعل القتال مقيّدًا بالدفاع، ونهاه عن كلّ صور الاعتداء والتجاوز.

---

١. http://www.rasekhoon.net/article/show٦٢٦٨١-.aspx.
و ابن اشعث، محمد بن محمد، الجعفريات (الأشعثيات)، ١جلد، مكتبه النينوى الحديثه - طهران: ط:١، بى تا، ص ٧٧.

٢. البرقي، احمد بن محمد بن خالد، المحاسن، ٢جلد، دار الكتب الاسلامية - قم: ط:٢، ١٣٧١ق، ج٢، ص ٢٢٧.

٣. سورة البقرة، آية ١٩٠.

٣) لماذا وقّع النبيّ الأكرم ﷺ صلح الحديبية مع المشركين؟

كانت السنة السادسة للهجرة توشك أن تنقضي بما حملته من أحداثٍ مريرة وأخرى باعثة على الأمل. وفي تلك الأثناء رأى النبيّ الأكرم ﷺ في منامه رؤيا صادقة، رأى فيها المسلمين وهم يؤدّون مناسك بيت الله الحرام في المسجد الحرام. فقصّ رؤياه على أصحابه، واستبشر بها خيرًا، وعدّها بشارةً بقرب تحقّق أمنيتهم العزيزة في دخول مكّة وأداء العمرة.

وبحكم معرفته العميقة بنفسيّة العدوّ، أدرك رسول الله ﷺ أنّ قريشًا، بعد الهزيمة القاسية التي مُنيت بها في غزوة الأحزاب، لن تُقدِم على حربٍ جديدة ضدّ المسلمين، وأنّها بلغت من النضج السياسي ما يجعلها تدرك أنّ الحرب بهدف استئصال الإسلام لم تعد في متناول قدرتها، وأنّ التفكير في الصلح بات خيارًا مطروحًا لديها. ومن هنا عزم النبيّ ﷺ، في شهر شوّال من السنة السادسة للهجرة، على التوجّه إلى مكّة لأداء العمرة، وكان منشأ هذا القرار ما رآه في منامه من دخوله الحرم، وحلق رأسه، وإمساكه بمفتاح الكعبة.

خرج رسول الله ﷺ في هذا السفر ومعه ألفٌ وأربعمائة من أصحابه، ودعا في الطريق بعض الأعراب إلى مرافقته، غير أنّهم امتنعوا عن ذلك، ويبدو أنّ خوفهم نبع من ظنّهم أنّ

المسلمين يُقدِمون على خطوة غير محسوبة، إذ لم يحملوا من السلاح سوى سلاح المسافر، أي السيوف في أغمادها. وكان كثير من العرب يعتقدون أنّ هذه الجماعة لن تعود، لأنّها تتّجه إلى قومٍ مسلّحين لم تبرح أذهانهم بعدُ ذكريات بدر الأليمة.[1]

وحين بلغ خبر اقتراب المسلمين قريشًا، تشاوروا فيما بينهم وقـرّروا منع النبيّ ﷺ من دخـول مكّة. فقد رأوا أنّ السماح له بالدخول، ولو لأداء العمرة، في ظلّ حالة العداء القائمة، سيُعدّ مساسًا بهيبة قريش ومكانتها، وسيجعل العرب يظنّون أنّ المسلمين بلغوا من القوّة ما يمكّنهم من دخول مكّة متى شاءوا. ولهذا استنجدوا بحلفائهم من ثقيف والأحابيش، وأرسلوا مئتي فارس بقيادة خالد بن الوليد إلى منطقة غميم، ونشروا العيون على رؤوس الجبال، وتمركزوا عند الطريق المؤدّي من مكّة إلى الحديبية.

ولمّا بلغ ذلك رسول الله ﷺ، استشار أصحابه، فاستقرّ الرأي على النزول في منطقة الحديبية، الواقعة على بُعد اثنين وعشرين كيلومترًا غرب مكّة، على طريق جدّة.[2]

وكان الموقف في الحديبية على النحو الآتي: النبيّ ﷺ وعـدد من المسلمين خرجوا قاصدين أداء عمرة مفردة، من غير أن يحملوا سلاحًا سوى السيوف المغمدة، ولم

١ . الواقدي، المغازي، بيروت، موسسة أعلمي، ط ٣، ١٤٠٩ق، ج٢، ص٦١٩.
٢ . الواقدي، المغازي، بيروت، موسسة أعلمي، ط ٣، ١٤٠٩ق، ج٢، ص٥٨٨.

تكن لهم نيّة حرب ولا رغبة في الإقامة بمكّة. وفي المقابل، منعتهم قريش بشدّة من الدخول، إذ لم تكن مطمئنّة إلى أنّ قدومهم يقتصر على العمرة فحسب، مع أنّها هي الأخرى لم تكن ترغب في بدء حربٍ جديدة. ومن ثمّ غدا التفاوض ضرورةً لا مفرّ منها، للوصول إلى حلٍّ يقبل به الطرفان. وكان الصلح، في واقع الأمر، السبيل الوحيد الممكن، وإن كان قبوله شاقًّا على قريش.[1]

وأبدى رسول الله ﷺ، من أجل تليين موقف قريش والحصول على الإذن بأداء العمرة، استعدادًا لقبول جملة من الشروط، فطرح اقتراحًا حكيمًا انتهى بتوقيع اتفاقٍ بين الطرفين، عُرف في التاريخ باسم صلح الحديبية، وتضمّن البنود الآتية:

تلتزم قريش والمسلمون بترك الحرب والعدوان والسرقة وسائر أشكال الإجرام مدّة عشر سنوات، بما يضمن الأمن الاجتماعي والسلام العام في أنحاء شبه الجزيرة العربيّة.

إذا فرّ رجل من قريش إلى المسلمين من غير إذن وليّه وأسلم، وجب على محمد ﷺ إرجاعه إلى قريش، أمّا إذا فرّ رجل من المسلمين إلى قريش، فلا تُلزَم قريش بإعادته.

يحقّ للمسلمين وقريش أن يتحالف كلٌّ منهما مع من يشاء من القبائل.

١ . ابن هشام، السيرة النبوية، بيروت، دار المعرفة، ج٢، ص٣٠٨.

يعود محمد ﷺ وأصحابه هذا العام إلى المدينة من دون دخول مكّة، على أن يُسمح لهم في الأعوام اللاحقة بدخولها لأداء العمرة، شرط ألّا تتجاوز إقامتهم ثلاثة أيّام، وألّا يحملوا من السلاح سوى سلاح المسافر. ويكون للدين الإسلاميّ أن يظهر في مكّة، ويُعبد الله جهرًا، من دون إكراهٍ أو أذى أو سخرية من أحد بسبب دينه.[1]

يُسمح للمسلمين المقيمين في مكّة بممارسة شعائرهم الدينيّة بحرّية، ولا يحقّ لقريش إيذاؤهم أو إجبارهم على ترك دينهم أو الاستهزاء بعقيدتهم.

تقييم صلح الحديبية

أُبرم الصلح بين النبيّ ﷺ وزعماء الشرك، وبعد تسعة عشر يومًا من الإقامة في أرض الحديبية عاد المسلمون إلى المدينة، وعاد المشركون إلى مكّة.

ويظهر من بنود هذا الاتفاق أنّ فيه، في الظاهر، امتيازين لرسول الله ﷺ، كانت قريش تشاركه أحدهما. الأوّل هو الأمن لعشر سنوات، وهو ما أتاح لقريش مواصلة تجارتها، وفي الوقت نفسه منح النبيّ ﷺ فرصةً ثمينة لتوسيع نطاق دعوته في سائر أرجاء الجزيرة العربيّة، بل وخارجها. أمّا الامتياز الثاني فهو السماح بدخول مكّة لأداء العمرة، وإن كان ذلك

١ . ابن سعد، الطبقات الكبري، بيروت، دارالكتب العلمية، ط ١، ١٤١٠ق، ج٢، ص٧٧

مؤجّلًا إلى العام التالي. وبذلك أصبح المسلمون قادرين على دخول مكّة من غير حرب، يؤدّون مناسكهم، ويُظهرون للعرب احترامهم للكعبة، ويدحضون ادّعاءات قريش التي كانت تصوّرهم على أنّهم فئة من الصعاليك والهمج.

غير أنّ الأهمّ من هذين الامتيازين أنّ الصلح مثّل انتقالًا نوعيًّا إلى مرحلةٍ جديدة؛ إذ اعترفت قريش، للمرّة الأولى، بالوجود السياسي لدولة المدينة. فبعد أن كانت تفكّر في القضاء على المسلمين، غدت ترى أنّ استئصال الإسلام ليس بالأمر الهيّن، وأنّ عليها التعامل معه بوصفه واقعًا قائمًا. وقد أدرك رسول الله ﷺ، ببصيرته الثاقبة، أنّ هذا الصلح هو بداية فتح مكّة، وهو ما أكّده القرآن الكريم حين وصف هذا الحدث بالفتح المبين. وقد رُوي عن جابر قوله: «ما كنّا نعدّ فتح مكّة إلا يوم الحديبية».[1] وقيل إنّ سورة الفتح نزلت في شأن هذا الصلح، وفي بعض آياتها إشارة إلى بيعة الرضوان، حيث يقول تعالى في مطلعها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾.[2]

وقد اعتبر القرآن مجموع التطوّرات من صلح الحديبية إلى فتح مكّة مقدّمةً لفتحٍ ظاهر ونصرٍ قريب. ونُقل عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: إنّ الإسلام بعد الصلح نما وتوسّع إلى حدٍّ كاد معه أن يسيطر على مكّة، إذ اختلط المسلمون

١. الطبرسي، تفسير مجمع البيان، ج٩، ص١٦٦.
٢. سورة الفتح، آية١.

بالمشركين، ونفذ الإسلام إلى قلوبهم، فدخل خلال ثلاث سنوات، حتّى السنة الثامنة للهجرة، عددٌ كبير من الناس في الإسلام، ما أدّى إلى ازدياد قوّة المسلمين وعددهم.[1]

النتيجة

إنّ التأمّل في آثار ونتائج صلح الحديبية، وما أبداه رسول الله ﷺ من حنكةٍ وبعد نظر في إبرامه، يُظهر بجلاء أنّ هذا الصلح كان مكسبًا خالصًا للإسلام، وضمانةً أكيدة لانتصاره. ومن أبرز نتائجه:

تهيئة أجواءٍ مناسبة لنشر الدعوة الإسلاميّة في ظلّ الأمن والاستقرار الذي وفّره الصلح.

اطّلاع المشركين عن قرب على تعاليم الإسلام وبرامجه البنّاءة من خلال تردّدهم على المدينة.

انحلال كثير من العقد النفسيّة لدى المشركين في تعاملهم المباشر مع شخص النبيّ ﷺ، بفضل خُلُقه العظيم.

تمكّن النبيّ ﷺ من مراسلة ملوك العالم وسلاطينه، ونشر دعوته ونبوّته على نطاقٍ عالمي، في ظلّ الهدوء السياسيّ الذي أتاحه الصلح، إضافةً إلى سائر الآثار التي تقدّم ذكرها في المتن.

١ . ابن هشام، السيرة النبوية، بيروت، دار المعرفة، ج٢، ص٣٢٢.

المصادر للمزيد من الدراسة:

التاريخ السياسي للإسلام (سيرة رسول الله ﷺ)، رسول جعفريان.

فصول من تاريخ النبيّ الإسلاميّ ﷺ، جعفر سبحاني.

٤) مع أنّه لا إكراه في اعتناق الدِّين، فلماذا كان النبيّ ﷺ يأخذ الجِزية من أتباع الديانات الأخرى؟

إنّ لكلّ دينٍ ولكلّ نظامٍ حاكمٍ منظومةً من المبادئ والقواعد، لا يتحقّق النظام والأمن العامّان إلا بالالتزام بها والعمل في إطارها. ودين الإسلام، بوصفه شريعةً ومنهجًا للحياة، يقوم على أصولٍ وموازين تُعدّ محورًا لإقامة الأمن الاجتماعي، وصيانة الحقوق، وتحقيق العدالة بين الأفراد. وتندرج الجِزية ضمن هذه المنظومة التشريعيّة، إذ لم تُشرَع بوصفها أداةَ إكراهٍ ديني، بل باعتبارها مقابِلًا للحماية السياسيّة والاجتماعيّة والأمنيّة والرفاهيّة التي توفّرها الدولة الإسلاميّة للأقليّات الدينيّة المقيمة في ظلّها.

فالقرآن الكريم يصرّح بوضوح: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، أي إنّ الدخول في العقيدة الدينيّة لا يقوم على الإجبار، ومن ثمّ تُضمَن لغير المسلمين حريّة الاعتقاد، وحرّيّة العمل وفق كتبهم السماويّة، وحرّيّة ارتياد دور عبادتهم كالكُنُس والكنائس وغيرها. أمّا المحاسبة على المعتقدات الباطلة، فإنّما تكون في الآخرة لا في الدنيا.

وغير المسلمين ليسوا فئةً واحدة، بل ينتمون إلى جماعات وأصناف متعدّدة، ويقيمون في دار الإسلام إمّا بعقد الذمّة أو بعقد الأمان، ويُطلق عليهم تبعًا لذلك وصف الذمّيّين أو المستأمنين، ولكلٍّ منهم شروطه وأحكامه الخاصّة. ودفع الجِزية يُعدّ فسحةً شرعيّةً تتيح لهم البقاء

على معتقدهم السابق في إطارٍ قانونيّ آمن، كما تمثّل فرصةً للتأمّل والتفكير الحرّ في الإسلام، من غير ضغطٍ أو قسر؛ ولذلك أكّد القرآن أنّ الإيمان لا يتحقّق إلا عن قناعةٍ وتعقّلٍ واختيار. وبهذا المعنى، فإنّ الجِزية ليست عقوبة، بل هي في جوهرها إطارٌ تنظيميّ يهيّئ مناخًا ملائمًا للتعايش، وقد تكون في الوقت نفسه مدخلًا اختياريًّا للتعرّف إلى الإسلام.[1]

ولو كانت الجِزية وسيلة تهديدٍ أو إكراه، لَفُرِضت على جميع أهل الذمّة بلا استثناء، بما في ذلك الشيوخ الكبار، والنساء، والأطفال، في حين أنّ الشريعة أعفت هؤلاء من أدائها. كما أنّها تسقط عن غير المسلمين إذا شاركوا المسلمين في الدفاع عن دار الإسلام؛ إذ لا يُعقَل الجمع بين الإعفاء من الواجب العسكري وفرض ضريبةٍ بدلًا عنه.[2]

ولم تخلُ البلاد الإسلاميّة في أيّ عصرٍ من وجود غير المسلمين، كما لم يُجبر الإسلام أحدًا على اعتناق عقيدته، ولم يمنع المسلمين من العيش المشترك مع غيرهم، وإن اختلفوا معهم في الدِّين والعقيدة؛ لأنّ الجميع في نظر الإسلام عبادٌ لله تعالى. وليس من مقتضيات الإيمان أو الإسلام قطع العلاقات مع غير المسلمين، بل إنّ الشريعة، كما وضعت للمسلمين أحكامًا تنظّم شؤونهم، وضعت أيضًا لغير المسلمين المقيمين في ديار الإسلام قوانينَ

١ .ماوردي، الاحكام السلطانيه، ص١٤٢.

٢ .عبدالكريم زيدان، احكام الذمّيين والمستأمنين في دارالاسلام، ص١٢٩.

وأحكامًا تنظّم علاقتهم بالمسلمين وببعضهم بعضًا، ما داموا يعيشون في ظلّ هذا النظام. وهذا شبيهٌ بما يلتزم به المسلمون المقيمون في الدول غير الإسلاميّة من احترام قوانين تلك البلدان والخضوع لها.

ومن الجدير بالذكر أنّ فرض الضرائب أو الرسوم الماليّة على الأقليّات الدينيّة ليس أمرًا خاصًا بالإسلام، بل كان معمولًا به قبل ظهوره، حيث كانت الدول ذات الغالبيّة المسيحيّة، على سبيل المثال، تفرض ضرائب على غير المسيحيّين. وفي عصرنا الحاضر، يدفع المسلمون، بوصفهم أقليّات دينيّة في كثير من الدول الغربيّة، مبالغ ماليّة للدولة تحت مسمّيات مختلفة. أمّا في الزمن المعاصر، فإنّ الجِزية لا تُؤخَذ في معظم البلاد الإسلاميّة، وقد يُفسَّر ذلك شرعًا بأنّ غير المسلمين يشاركون اليوم، شأنهم شأن المسلمين، في الدفاع عن أوطانهم، ولا يرغبون في التمييز بينهم وبين المسلمين في هذا الواجب العامّ.[1]

ولا يمكن، من الناحية العمليّة، أن تمتلك كلّ أقلّيّةٍ دينيّة جهازًا أمنيًّا مستقلًّا يحميها؛ إذ إنّ الدولة الإسلاميّة، بكلفةٍ أقلّ وتنظيمٍ أشمل، تتولّى توفير الأمن بجميع مستوياته. ولو أُتيح لكلّ جماعةٍ أن تتسلّح بحجّة حماية نفسها، لأدّى ذلك إلى الفوضى، واختلال النظام العامّ، وتفكّك السلطة، وهو ما يتعارض مع مبدأ الأمن الشامل الذي تقوم عليه الدولة.

١ . عبدالكريم زيدان، احكام الذميين في دار الاسلام، ص١٣٢.

وقد ورد في القرآن الكريم تشريعٌ واضحٌ بشأن الجِزية، في قوله تعالى: ﴿... مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[1]، ومفاد الآية أنّه متى قبل أهل الكتاب بدفع الجِزية، وجب إبرام العهد معهم، على أن تكون قيمة الجِزية متناسبةً مع قدرتهم الماليّة؛ إذ يدلّ تعبير ﴿عَنْ يَدٍ﴾ على الدفع بحسب الاستطاعة والتمكّن.[2] كما يستفاد من الآية أنّ الإسلام لا يفرض العقيدة عليهم، بل يكتفي بتنظيم علاقتهم بالدولة الإسلاميّة من خلال التزامٍ ماليٍّ محدود، يُعفَون منه إذا عجزوا عن أدائه.

وخلال ثلاثٍ وعشرين سنةً من الرسالة، لم يكن النبيّ صلى الله عليه وآله مبتدئًا بحربٍ أو عنف، بل إنّه عند قدومه إلى المدينة عقد مع اليهود ميثاقًا للتعايش السلمي، فآمن به كثيرٌ منهم عن قناعةٍ واختيار. ومن ثمّ، فإنّ الإسلام، بوصفه دين الرحمة، شمل غير المسلمين برعايته ولطفه في مقابل التزامٍ ماليٍّ يسير، ما داموا يعيشون في كنف الدولة الإسلاميّة ويتمتّعون بأمنها. وفي هذا الإطار يُفهَم قوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، أي خاضعون للنظام العامّ وقوانينه، لا مُكرَهون على تغيير معتقداتهم.

وعقد الذمّة، في جوهره، عقدٌ قانونيّ له شروطه وأحكامه[3]،

١. سورة التوبة، آية ٢٩.
٢. عميد زنجاني، عباسعلي، حقوق اقليت ها، ص١٠٠.
٣. امام خميني، تحرير الوسيله، ج٢، ص٤٤٨-٤٥٢.

تتغيّر بتغيّر الزمان والمكان والظروف، وبحسب ما يحقّق مصلحة الطرفين. ومن المهمّ التنبيه إلى أنّ الأقليّات الدينيّة الخاضعة لهذا العقد لا تُجبَر في شؤون الأحوال الشخصيّة، كالزواج والطلاق والإرث، على الاحتكام إلى الشريعة الإسلاميّة، بل يُترَك لكلّ جماعةٍ أن تعمل وفق أحكام دينها، وإن خالفت تلك الأحكام ما يراه الإسلام حقًّا.[1] وفي المقابل، تُراعى حقوقهم الأساسيّة، ويُؤخَذ بعين الاعتبار إعفاؤهم من الأعباء الماليّة والعسكريّة التي لا تُلزِمهم الشريعة بها، مع الحفاظ في الوقت نفسه على حقّ سيادة الإسلام ونظامه العامّ.[2]

النتيجة

إنّ نفي الإكراه في قبول الدِّين، كما ورد في القرآن الكريم، لا يتعارض مع تشريع الجِزية، بل ينسجم معه ضمن منظومةٍ تشريعيّةٍ متكاملة. فالآية الكريمة تؤكّد حرّيّة الاعتقاد، وتبيّن في الوقت نفسه أنّ طريق الرشد والهداية واضحٌ متميّز عن الضلال، وأنّ الالتزام بقوانين الشريعة وموازينها من أبرز مصاديق هذا الرشد، وهو ما التزم به النبيّ ﷺ والمسلمون الصادقون عبر التاريخ.

١. عميد زنجاني، عباسعلي، حقوق اقليت ها، ص٩٦.
٢. سبحاني، جعفر، پرسش ها و پاسخ ها، ص١٣٤.

المصادر للمزيد من الدراسة:

التاريخ السياسي للإسلام – سيرة رسول الله ﷺ، رسول جعفريان.

الفقه السياسي في الإسلام، عميد زنجاني.

٥) لماذا مَنَّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله على أبي سفيان يوم فتح مكّة وأطلق سراحه؟

وقع فتح مكّة في السنة الثامنة للهجرة[١]، وكان هذا الفتح العظيم من أبرز المحطّات المفصليّة في تاريخ الإسلام؛ إذ تحقّق فيه الانتصار الداخليّ لرسول الله صلى الله عليه وآله، واتّسعت بعده رقعة انتشار الإسلام في جزيرة العرب انتشارًا ملحوظًا، وفي تلك الأيّام بشّر الله نبيَّه بإتمام النصر والفتح التامّ.[٢]

وكان من أهمّ عناصر هذا النجاح في مسيرة النبيّ صلى الله عليه وآله واتساع دعوته خُلُقه العظيم وسعة صدره، وهي خصلة أقرّها القرآن الكريم وأثنى عليها.[٣] كما أنّ سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله الشخصيّة، وسابقته الطويلة في مكّة، وسمعته في الأمانة والاستقامة، شكّلت رصيدًا حاسمًا في تحقيق أهدافه العليا؛ إذ إنّ كثيرًا من المهاجرين الذين اجتمعوا حوله قبل الهجرة إنّما انجذبوا إلى صدقه ونزاهته، ولم يُعرف عنه أنّه كذب قطّ، فكانوا يرون فيه مثال الأمانة والوفاء.[٤]

وقد صرّح القرآن بأنّه مظهر للرحمة الإلهيّة، وامتدح لين جانبه وحسن سياسته للناس، فقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا

١. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، بيروت، موسسة الأعلمي للمطبوعات ١٤١٣ق، ج١، ص٣٧٦.
٢. سورة الفتح؛ ابن هشام، سيرة، بيروت، دارالكتب العربي، ١٤١٨ق، ج٣، ص٢٦٦.
٣. سورة القلم، آية ٤.
٤. العاملي، مرتضي، جعفر، الصحيح من سيرة النبي الاعظم.

مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.[1] ومعنى ذلك أنّ رحمة الله المتجلّية في شخصه جعلته ليّنًا قريبًا من الناس، ولو كان غليظًا قاسيًا لانفضّوا من حوله، ثم أُمر بالعفو والاستغفار لهم ومشاورتهم وإكرامهم بإعطائهم موقعهم في الشأن العامّ.

غير أنّ أبا سفيان قابل هذه الصفات النبويّة بالعداء والمواجهة زمناً طويلاً. وحين كان رسول الله ﷺ يسير بجيشٍ عظيم نحو مكّة في السنة الثامنة للهجرة، وبعد واحدٍ وعشرين عامًا من المقاومة والصراع وإشعال الحروب والعداوات، قرّر أبو سفيان—وقد رأى تمدّد الإسلام بلا مانع—أن يستسلم، وكان ذلك بتأثير وساطة العبّاس عمّ النبيّ ﷺ. ولما صار جيش الإسلام على مشارف مكّة، جاء أبو سفيان إلى النبيّ ﷺ بوساطة العبّاس، فأظهر الإسلام ونطق بالشهادتين فصار مسلمًا.[2]

وعندئذٍ أعلن النبيّ ﷺ أنّ «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن».[3] وهذه الليونة مع رجلٍ وقف عمرًا في وجه الدعوة، لم تكن تفضُّلًا شخصيًّا مجرّدًا، بل كانت سياسةً نبويّة مقصودة ذات أهداف متعدّدة، من أبرزها:

١. سورة آل عمران، آية ١٥٩.
٢. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج١، ص٣٧٧.
٣. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج١، ص٣٧٧.

أن يُظهر أنّ الإسلام دين الرحمة والرأفة، وأنّ الله يغفر الماضي بشرط الإصلاح، وأنّ من أقبل على الحقّ مُقبلًا عليه صار موضع كرامةٍ لا موضع إهانة.

أنّ النبيّ ﷺ كان يقدّم المسار الثقافيّ والتربويّ في نشر الدين، ويتجنّب الصدام العسكريّ ما أمكن. وقد أوصى جيشه عند دخول مكّة أن يتجنّب القتال قدر المستطاع، وأن يكون الفتح سِلْمًا وأمنًا، وألّا تُستعمل القوّة إلا ضدّ من يختار المواجهة ويُصرّ على القتال. فكانت معاملته لأبي سفيان شاهدًا عمليًّا على مركزيّة العمل السلميّ والثقافيّ في مشروعه.

أنّه ﷺ كان مُحكمًا لوسائل السياسة والحرب معًا؛ فمكّة كانت مدينة الخصوم، وكان محتملًا أن تتحوّل بيوتُها إلى كمائن وأن تُستعمل السطوح مواضعَ للهجوم، وأن تُجعل الدور حصونًا للمقاومة. فجاء إعلان الأمان لمن دخل دار أبي سفيان ليُحدث تفكيكًا نفسيًّا وسياسيًّا في صفوف المكيّين، ويُفاجئ أنصار أبي سفيان بهذا المسلك، فيميلوا إلى الأمان بدل القتال، وإلى الإسلام بدل الإصرار على الكفر. وقد وقع ذلك بالفعل، إذ اندفع كثيرون إلى الاستفادة من هذا الأمان.

أنّ النبيّ ﷺ مَنَّ على أبي سفيان وعلى جمهور المشركين فعفا عنهم بعد الاستسلام، فصاروا يُعرفون بـ«الطلقاء»، أي

المُعتَقين من الأسر والعقوبة. وقد استُعمل هذا الوصف لاحقًا في الخطاب التاريخيّ للتنبيه إلى أنّ إسلام بعضهم لم يكن ثمرة رغبةٍ صافية، بل جاء في سياق الغلبة والعفو بعد القدرة؛ ولهذا قوبلوا في الوعي الإسلاميّ بوصفٍ يميّزهم عن فئةٍ دخلت الإسلام عن طواعيةٍ كاملة كالمهاجرين، وعن فئةٍ نصرت الدعوة عن رغبةٍ عميقة كالأنصار.

أنّه ﷺ أراد بهذه السياسة إزالة الأحقاد القديمة من قلوبهم، ودعوتهم إلى الدين عن اقتناعٍ لا عن قسر؛ ولتحقيق هذا المقصد كان يعطي بعضهم من المال والغنائم تحت عنوان «المؤلّفة قلوبهم» تثبيتًا لهم على الإسلام، وفتحًا لباب المشاركة الإيجابيّة في بناء الجماعة الجديدة، ومنعًا من العودة إلى التعطيل والعرقلة.

أنّه ﷺ أراد أن يبيّن لأبي سفيان ولسائر المشركين أنّ تصوّراتهم السابقة عن دين الله وعن شخص النبيّ كانت خاطئة، وأنّ عليهم أن يندموا على ماضيهم ويتوبوا، وأن يدخلوا في الإسلام عن رغبةٍ واختيار. وقد تغيّر كثيرون بالفعل، غير أنّ بعضهم—ومنهم أبو سفيان—لم يثبت أنّه أسلم عن ميلٍ قلبيٍّ صادق، بل بقيت في نفوسهم قسوةٌ تحول دون الإيمان الراغب.

أنّ هذا العفو كان أيضًا إتمامًا للحجّة عليهم، لئلّا يبقى لهم طريقٌ للاعتذار أو ذريعة للعودة إلى الصراع؛ فإذا عادوا

إلى العناد بعد أن شاهدوا هذا اللطف والرحمة، قامت عليهم الحجّة أمام الله وأمام التاريخ، وظهرت مسؤوليتهم الأخلاقيّة بجلاء: كيف يُقابلون هذا العفو بالخصومة؟

المصادر للمزيد من الدراسة:

السيرة الصحيحة للنبيّ الأعظم ﷺ، جعفر مرتضى العاملي، ترجمة سپهري.

سيرة النبيّ، باقر شريف القرشي.

٦) لماذا كان المسلمون في صدر الإسلام يتعرّضون لقوافل المشركين، وما التبرير التاريخيّ والشرعيّ لذلك؟

لمّا رأى رسول الله ﷺ في المدينة المنوّرة بيئةً صالحة لنشر الدين الإلهيّ وتعاليمه الهادية والمنقذة للبشر من الجهل والضلال، أصدر أمره بهجرة المسلمين إليها.[١] وقد استقبل الأنصارُ إخوانهم المهاجرين استقبالًا كريمًا، وأقام النبيّ ﷺ بينهم رابطة الأخوّة[٢]، فكان ذلك تدبيرًا حكيمًا مهّد لتشكّل المجتمع الإسلاميّ والدولة الإسلاميّة الناشئة. ولم تكن هذه الأخوّة رابطةً شكليّة، بل تعبيرًا عن وحدة الهدف والرسالة، وعن استعدادٍ جماعيّ للتضحية وبذل النفس دفاعًا عن الإسلام في مواجهة أيّ اعتداء أو تهديد.

غير أنّ هذا التحوّل لم يكن موضع قبولٍ لدى المشركين؛ إذ أدركوا أنّهم فقدوا القدرة على الوقوف في وجه الحقّ، فراحوا يتربّصون بالدعوة الإسلاميّة، ويفكّرون في المؤامرات والعوائق التي تحول دون انتشارها. ومن هنا، فإنّ رسول الله ﷺ، منذ دخوله المدينة وتأسيسه المجتمع الدينيّ، انتهج سياسةً واعية تقوم على إرسال السرايا الاستطلاعيّة، ومراقبة تحرّكات المشركين والقبائل غير الإسلاميّة، وبناء علاقاتٍ مع القبائل التي لم تكن في حالة عداء مع المسلمين، كلّ ذلك بقصد حماية الكيان الإسلاميّ الوليد من المفاجآت

١ . الطبري، تاريخ الامم والملوک، بيروت، دارالكتب العلمية، ج٢، ص٣٦٩.
٢ . مباركفوري، الصفي الرحمان، السيرة النبوية، دمشق، دارالمعاصر، ط ١، ١٤٢٧ق، ص١٢٥.

العسكريّة والاجتماعيّة. أمّا الغزو والسلب والقتل، حتى بحقّ المشركين المتشدّدين، فلم يكن له موضعٌ في هذه السياسة.[1]

وانطلاقًا من هذا الفهم، يمكن رسم أبرز الأهداف التي سعت الدولة الإسلاميّة، بقيادة النبيّ صلى الله عليه وآله، إلى تحقيقها من خلال تلك التحرّكات العسكريّة المحدودة على النحو الآتي:

١. الاستطلاع الاستراتيجيّ للمنطقة

إنّ أيّ دولةٍ تواجه أعداءً عنيدين تحتاج إلى معرفة دقيقة بجغرافيّة المنطقة، وبطرائق نفوذ العدوّ وممرّاته، وبالأماكن المحتملة لوقوع المواجهات. ولهذا كانت الدوريات العسكريّة للمسلمين حول المدينة، وعلى الطرق التجاريّة التي تسلكها قوافل مكّة، وسيلةً لاكتساب هذه المعرفة الحيويّة، بما يتيح الاستعداد المناسب لأيّ طارئ عسكريّ.[2]

٢. التدريب والتهيئة العسكريّة

تُعدّ المناورات العسكريّة في عصرنا من أهمّ وسائل إعداد الجيوش، حتى في غياب حربٍ وشيكة، إذ تتيح اختبار الجاهزيّة، ومعرفة نقاط القوّة والضعف. وقد كان إرسال النبيّ صلى الله عليه وآله للسرايا، سواء بقيادته المباشرة أو بقيادة من

١ . بينش، عبدالحسين، شيوه فرماندهي پيامبر، تحقيقات سپاه، ط ١، ١٣٧٨ش، ص٩٥.

٢ . بينش، عبدالحسين، شيوه فرماندهي پيامبر، تحقيقات سپاه، ط ١، ١٣٧٨ش، ص١٠٣.

يختارهم من أصحابه، يهدف إلى تعويد المسلمين على مشقّات الحرب وظروفها، من غير الانزلاق إلى مواجهةٍ فعليّة. ومن يتتبّع هذه التحرّكات يلحظ أنّ المسلمين كانوا يقتربون أحيانًا من مناطق قريش ثم يعودون من غير قتال. ومن ذلك: – خروج النبيّ ﷺ في السنة الثانية للهجرة مع مئتي رجل نحو قافلةٍ لقريش، حتّى بلغ موضع بُوَاط—وهو جبل يبعد نحو تسعين كيلومترًا عن المدينة—ثم عاد من دون اشتباك.[1] – وكذلك خروجه في مناسبةٍ أخرى بعد أن استخلف سعد بن عبادة على المدينة، فسار مع جماعةٍ من المهاجرين حتّى بلغ منطقة الأبواء، وهناك عوضًا عن القتال عقد صلحًا مع قبيلة بني ضمرة، ثم عاد إلى المدينة.[2]

٣. التواصل مع القبائل المحيطة وعقد معاهدات الصلح

إنّ القراءة المتأنّية لهذه التحرّكات تُظهر أنّ نتيجتها العمليّة كانت عقد معاهدات سلام مع القبائل المجاورة للمدينة. فقد أراد النبيّ ﷺ أن يعلن من خلالها أنّ الإسلام دين سلمٍ وحرّيّة، وأنّه مستعدّ للتعايش مع الجميع، حتى مع عبدة الأصنام، ما لم يباشروا العدوان على الدعوة الإسلاميّة. كما هدفت هذه المعاهدات إلى فتح باب التواصل والاختلاط السلميّ بين المسلمين وغيرهم، ليُطرح الإسلام في أجواءٍ

١ . البلاذري، احمد، أنساب الاشراف، بيروت، دارالفكر، ط١، ١٤١٧ق، ج١، ص٢٨٧، ابن الكثير، دمشقي، البدآية و النهآية، بيروت، دارالفكر، ج٣، ص٢٤٦.

٢ . شيوه فرماندهي پيامبر، ص٩٧، ابن اثير، الكامل، ترجمه خليلي، عباس، طهران: انتشارات علمي، ج٧، ص١٢٥.

حرّة قائمة على الحوار والبرهان، فيختار من شاء الدخول فيه عن قناعةٍ تامّة. ومن أمثلة ذلك معاهدة النبيّ ﷺ مع بني ضمرة أثناء تعقّبه إحدى قوافل قريش.[1]

ويُذكر كذلك أنّه خرج في مرّةٍ أخرى مع مئتي رجل لتعقّب قافلةٍ لقريش يقودها أبو سفيان، حتّى بلغ منطقة العُشيرة قرب ينبع، فأقام هناك شهرًا كاملًا بعد أن كانت القافلة قد مرّت، وخلال هذه المدّة عقد صلحًا مع قبائل مثل بني مدلج، تعهّد فيه الطرفان بعدم الاعتداء المتبادل.[2] ولو كان الهدف نهب الأموال، لما أقام المسلمون شهرًا في المكان بعد فوات القافلة، ولا انصرفوا إلى عقد معاهدات السلام بدل الغارة والسلب.

٤. التصدّي للاعتداءات المحتملة

كانت الدولة الإسلاميّة الناشئة تعيش في ظلّ تهديدٍ دائم من المشركين، ولهذا كان النبيّ ﷺ يبعث بين الحين والآخر أفرادًا للاستطلاع وجمع المعلومات، يصلون أحيانًا إلى مشارف العدوّ. وقد ورد في المصادر أنّه في شهر ذي القعدة من السنة الأولى للهجرة بعث سعد بن أبي وقّاص مع ثمانية

١ . المشاط، حسن، اناره الدجي في مغازي خير الوري(ص)، جده، دارالمنهاج، ط ٢، ١٤٢٦ق، ص٩٦، دياربكري، حسين، تاريخ الخميس في احوال انفس النفيس، بيروت، دارالصادر، ج١، ص٣٦٣.

٢ . المشاط، حسن، اناره الدجي في مغازي خيرالوري(ص)، ص١٠٠، ابن سعد، محمد، طبقات الكبري، ترجمه مهدوي دامغاني، محمود، طهران: فرهنک انديشه، ج٢، ص٦.

رجال لاستكشاف أخبار قريش، فوصلوا إلى منطقة خرّار ثم عادوا من دون أن يلقوا قتالًا.[1]

ومن هنا يتّضح أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يكن يقصد الحرب، وإلّا لما أرسل مثل هذه السرايا القليلة العدد لمواجهة قوافل كبيرة محميّة. ولهذا أيضًا، حين خرج عبد الله بن جحش مع ثمانية رجال لتعقّب قافلةٍ لقريش، فقتلوا رجلًا في شهر رجب وغنموا بعض الأموال، أعلن النبيّ صلى الله عليه وآله عدم رضاه عن هذا التصرّف، ولم يتصرّف في الغنائم، حتّى نزل قوله تعالى في سورة البقرة (٢١٧) مبيّنًا أنّ القتال في الشهر الحرام إثم، لكنّ إثم المشركين أعظم؛ لأنّهم أخرجوا المسلمين من ديارهم، ومنعوا تبليغ الدين، وهو ما يبيّن أنّ أصل التشريع لم يكن دعوةً إلى القتال، بل ردًّا على عدوانٍ قائم.[2]

٥. إظهار القوّة أمام قريش

أراد النبيّ صلى الله عليه وآله من هذه التحرّكات أن يفهم المشركون أنّهم إن حالوا دون تبليغ الدعوة، أو فكّروا في مهاجمة المدينة، فإنّ مصالحهم الاقتصاديّة ليست بمنأى عن التأثّر، وأنّ طرق تجارتهم إلى الشام وغيرها تمرّ بمناطق تخضع لنفوذ

١. سبحاني، جعفر، فروغ ابديت، قم: بوستان كتاب، ط ٢١، ١٣٨٥ش، ص٤٦٠، ابن جرير الطبري، محمد، تاريخ الطبري، ترجمه پاينده، ابوالقاسم، طهران: انتشارات اساطير، ط ٥، ١٣٧٥ش، ج ٣، ص ٩٣٤.

٢. الطبري، ابن جرير، محمد، تاريخ الامم و الملوک، بيروت، دارالتراث، ط ٢، ١٣٨٧ش، ج٢، ص٤١٢، خضري بک، محمد، نورااليقين في سيرة سيد المرسلين، دمشق، دارالفيحاء، ط ٢، ١٤٢٥ق، ص٩٥.

المسلمين أو حلفائهم. كما أنّ عقد المعاهدات مع القبائل المحيطة بهذه الطرق كان رسالةً واضحة إلى قريش بأنّ حتى غير المسلمين من خارج المدينة لا يرغبون في الانخراط في حربٍ ضدّ الدولة الإسلاميّة.[1]

٦. الطابع الدفاعيّ الوقائيّ لهذه التحرّكات

كانت هذه المناورات ذات بُعدٍ دفاعيّ واستباقيّ أيضًا؛ إذ إنّ بعض جماعات قريش كانت تتسلّل إلى أطراف المدينة وتنهب أموال المسلمين. وقد حدث أنّ النبيّ ﷺ خرج مع مئتي رجل لتعقّب هؤلاء الغزاة حتّى وادي صفوان، فيما يُعرف أحيانًا بـ«بدر الأولى»، ثم عاد إلى المدينة بعد أن لم يدركهم.[2]

٧. مبدأ المعاملة بالمثل

أمّا حادثة بدر الكبرى، فقد نشأت في سياقٍ خاصّ. فقد كانت لقريش قافلةٌ تجاريّة ضخمة بقيادة أبي سفيان عائدة من الشام، وكان النبيّ ﷺ يترقّب عودتها. ولمّا بلغه خبر رجوعها، دعا المسلمين إلى الخروج، مبيّنًا أنّها أموال قريش التي صودرت من المهاجرين، وأنّ الله قد يرزقهم منها. فخرج معه أكثر من ثلاثمئة رجل. لكنّ أبا سفيان أفلت بالقافلة، واستنفر قريشًا، فخرجوا بجيشٍ لملاقاة المسلمين. وعند

١. جعفر، سيد المرسلين، قم: جامعه مدرسين، ط ٣، ١٤١٧ق، ج ٢، ص ٤١.
٢. صابري، حسين، خاتم پيامبران (ص)، مشهد، بنياد پژوهش‌هاي آستان قدس رضوي، ط ٣، ١٣٨٠ش، ج ٢، ص ٢٣٥، سپهري، محمد، سيرة جاودانه، طهران: پژوهشكاه فرهنك انديشه اسلامي، ط ١، ١٣٨٤ش، ج ١، ص ٥٨٣.

وصول المسلمين إلى بدر تبيّن أنّ القافلة قد نجت، لكنّ جيش قريش حضر للقتال، فاستشار النبيّ ﷺ أصحابه، ثم قرّر المواجهة، فكانت معركة بدر الفاصلة التي انتصر فيها المسلمون ونالوا الغنائم.[1] ويمكن تفسير هذا التحرّك على أنّه معاملة بالمثل، لأسبابٍ منها: – أنّ كُرز بن جابر الفهري أغار قبل ذلك على أطراف المدينة ونهب إبل المسلمين، فلاحقه النبيّ ﷺ ولم يدركه، فجاء التعرّض لقافلة قريش ردًّا على هذا الاعتداء.[2] – أنّ المهاجرين تركوا أموالهم في مكّة قسرًا عند هجرتهم، فاستولى عليها المشركون، وكان لهم حقّ المطالبة بالتعويض عمّا سُلب منهم.[3]

النتيجة

إنّ سياسة تعقّب القوافل في صدر الإسلام لا يمكن فهمها على أنّها غزوٌ أو سلب، بل كانت جزءًا من منظومةٍ دفاعيّة واستراتيجيّة تهدف إلى حماية الدولة الإسلاميّة، ومنع المباغتة العسكريّة، وتهيئة المسلمين نفسيًّا وميدانيًّا لأيّ مواجهة محتملة. ولو كان الهدف الغنيمة، لما خرج النبيّ ﷺ بسرايا قليلة العدد إلى مواجهة قوافل محميّة

١ . البدآية و النهآية، همان، ج٣، ص٢٥٦، تاريخ الامم و الملوک، ج٢، ص٤٢١، اليعقوبي، ترجمه تاريخ اليعقوبي، ج١، ص٤٠٤، و ترجمه كامل ابن الاثير، همان، ج٧، ص١٣١.

٢ . الميبدي، ابوالفضل، كشف الاسرار و عده الابرار، طهران: انتشارات امير كبير، ط١، ١٣٦٣ش، ج٤، ص٧.

٣ . مكارم شيرازي، ناصر، تفسير نمونة، طهران: دارالكتب الاسلامية، ط ١، ١٣٧٤ش، ج٧، ص٩٣.

بأقوى فرسان قريش، ولما انصرف المسلمون مرارًا إلى عقد الصلح بدل القتال، ولا أمر النبيّ صلى الله عليه وآله قادته بالاكتفاء بالمراقبة دون الاشتباك.

بل إنّ هذه التحرّكات كانت أحيانًا سببًا في إنقاذ مسلمين ضعفاء في مكّة، إذ كانوا ينضمون إلى السرايا في الطريق بحجّة التجارة، ثم يلتحقون بالمسلمين في المدينة بأمان. ومن هنا يتّضح أنّ هذه السياسة كانت في جوهرها سياسة حمايةٍ وبناءٍ، لا سياسة عدوانٍ وغزو.[1]

المصادر للمزيد من الدراسة:

تاريخ النبيّ الإسلاميّ صلى الله عليه وآله، د. آيتي.

التاريخ التحقيقيّ للإسلام، هادي يوسفي الغروي، ترجمة حسين علي عربي.

١ . ابن يعقوب، تاريخ اليعقوبي، ترجمه آيتي، محمد ابراهيم، طهران: انتشارات علمي و فرهنكي، ط ٦، ١٣٧١ش، ج١، ص ٤٣٢.

٧) لماذا قَتَل النبيّ ﷺ عددًا كبيرًا من الأعداء في معركة بدر؟

تُعَدّ معركة بدر من أعظم المواجهات العسكريّة بين المسلمين والمشركين في صدر الإسلام. ففي منتصف شهر جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة، بلغ رسولَ الله ﷺ خبرٌ مفاده أنّ قافلة قريش التجاريّة، بقيادة أبي سفيان، قد خرجت من مكّة متّجهةً إلى الشام.[١]

فتحرك النبيّ ﷺ لتعقّب هذه القافلة، وسار حتّى بلغ موضع «ذات العُشيرة»، حيث أقام هناك إلى أوائل الشهر التالي، غير أنّ القافلة أفلتت منه. غير أنّ موعد عودتها كان معروفًا تقريبًا؛ إذ جرت عادة قريش أن تعود قوافلها من الشام إلى مكّة في أوائل فصل الخريف.

وعند عودة القافلة، خرج النبيّ ﷺ من المدينة لمواجهتها، ونزل بمنزل يُسمّى «ذُقَران»، منتظرًا مرورها. وفي أثناء ذلك، وصلته أنباء تفيد بأنّ أهل مكّة قد خرجوا بجيشٍ كبير لحماية القافلة، وأنّ بطون قريش المختلفة قد شاركت في تشكيل هذا الجيش، وتمركزت في تلك الأنحاء.

وفي نهاية المطاف، اتّخذ النبيّ ﷺ والمسلمون مواقعهم القتاليّة بالقرب من آبار بدر، فوقعت المعركة في تلك المنطقة. وأسفرت المواجهة عن استشهاد أربعة عشر من

١ .الواقدي، المغازي، بيروت، موسسة الأعلمي، ج١، ص٢٨.

المسلمين، ومقتل سبعين رجلًا من قريش، وأَسْرِ سبعين آخرين.[1]

وكان الدافع الأساسيّ لتحرّك النبيّ ﷺ واعتراض قوافل المشركين هو ما مارسه هؤلاء من ظلمٍ فادح بحقّ المسلمين، ولا سيّما المهاجرين، من اضطهادٍ ومصادرةٍ للأموال وإخراجٍ قسريّ من الديار.[2] وقد أذن الله تعالى للمظلومين بالدفاع عن أنفسهم، ونزل في ذلك قوله تعالى في سياق الإذن بالقتال، ثم وصف حال المظلومين بقوله إنّهم الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلّا لأنّهم قالوا: ربّنا الله.[3]

وقد رُوي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنّ هذه الآيات نزلت في شأن المهاجرين.[4] وتذكر المصادر أنّ المسلمين في مكّة كانوا يتعرّضون للضرب والإيذاء، وكان الجرحى والمضروبون يأتون إلى رسول الله ﷺ يشكون ما يلقونه من قريش، فيقول لهم آنذاك إنّه لم يُؤذَن له بالقتال بعدُ. ثم جاءت آيتا الإذن بالقتال في سورة الحج (الآيتان ٣٩ و٤٠)، فأعطتا النبيّ ﷺ والمسلمين رخصة الدفاع المسلّح عن أنفسهم بعد طول صبر.[5]

١ . ابن هشام، سيرة ابن هشام، بيروت، دار المعرفة، ج٢، ص٧٠٦-٧٠٨.
٢ . سورة الحج: ٣٩.
٣ . سورة الحج: ٤٠.
٤ . الطبرسي، مجمع البيان، تحقيق رسولي محلاتي، سيد هاشم، طهران: المكتبه العلمية الاسلامية، ج٧، ص٨٧.
٥ . الطبرسي، مجمع البيان، تحقيق رسولي محلاتي، سيد هاشم، طهران:

وبـنـاءً عـلـى ذلـك، فـإنّ قـريـشًـا خـرجـت فـي مـعـركـة بـدر بجيشٍ مُجهّز وإمكاناتٍ كبيرة، قاصدةً توجيه ضربةٍ قاصمة للمسلمين، فكان لا بدّ للمسلمين من الدفاع عن أنفسهم، وانتهت المواجهة بانتصارهم وهزيمة المشركين. وإذا كان المقصود من السؤال هو القتل الذي وقع أثناء المعركة نفسها، فإنّ ذلك من طبيعة الحروب؛ إذ لا تخلو ساحة القتال من القتل والجرح والأسر، والدفاع عن النفس يقتضي ضرب العدوّ، وقتله أو إصابته أو إرغامه على الفرار أو الاستسلام.

وهـذا بالضبط ما جرى في معركة بـدر. ومع ذلـك، يُلحظ أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله، قبل انـدلاع القتال، أوصى المسلمين بتجنّب قتل بعض الأشخاص الذين كانت لهم مواقف سابقة في مكّة تخفيفًا عن المسلمين، أو أولئك الذين أُكرهوا على الخروج إلى بدر ولم يشاركوا طوعًا في الحرب.[1] وهـذا التوجيه يكشف عن عظمة أخلاقه، وسعة صدره، ونُبله الإنسانيّ حتّى في أجواء الحرب.

أمّا إذا كان المراد بالسؤال قتل الأسرى بعد انتهاء القتال، فـإنّ هـذا الادّعـاء غـير صـحـيـح، ولا شـاهـد لـه فـي المـصـادر التاريخيّة؛ إذ لم يُعرف عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قتل أسرى بدر. بل إنّ أكثرهم أُطلق سراحهم مقابل فدية، ومن لم يكن قادرًا على دفعها عفا عنه النبيّ صلى الله عليه وآله وأطلقه من غير مقابل، في صورةٍ أخرى من صور رحمته وسماحته.[2]

المكتبه العلمية الاسلامية، ج٧، ص٨٧-٨٨.

١ . ابن هشام، سيرة ابن هشام، ج١، ص٦٢٩.

٢ . ابن هشام، سيرة ابن هشام، ج١، ص٦٥٩-٦٦٠.

المصادر للمزيد من الدراسة:

فروغ أبديّت، جعفر سبحاني.

تاريخ النبيّ الإسلاميّ صلى الله عليه وآله، محمد إبراهيم آيتي.

٨) لماذا أصدر النبيّ ﷺ أمرًا بقتل أحد أعداء الإسلام؟

إنّ دراسة مفهوم «الاغتيال» بوصفه استعمالًا غير مشروع للقوّة من أجل القضاء على المخالفين، ومقارنته بحوادث القتل التي وقعت في زمن رسول الله ﷺ على أيدي بعض أصحابه، تُثبت بوضوح أنّ تلك الوقائع لا تنطبق عليها حقيقة الاغتيال. فهذه الحالات لم تكن سوى إزالةٍ لأشخاصٍ عُدّوا عناصرَ فاعلة في التآمر، ممن سعوا بوسائل مختلفة. إلى تقويض الأمن العامّ، من خلال التحريض العلنيّ، وتأليب الناس، ونظم الأشعار الهجائيّة والمثيرة التي كانت تهدف إلى تشويه سمعة النبيّ ﷺ، وإثارة الفتنة، بل والدعوة الصريحة إلى قتله.

فالاغتيال في معناه اللغويّ والسياسيّ يرتبط بإشاعة الخوف والرعب، أمّا «الإرهاب» فهو أسلوب حكمٍ قائم على الإكراه وبثّ الذعر.[١] كما أنّ الأعمال العنيفة وغير القانونيّة التي تمارسها بعض الحكومات لقمع معارضيها تُدرج ضمن ما يُسمّى «إرهاب الدولة».[٢] وقد ذهب بعض الفلاسفة السياسيّين المعاصرين إلى أنّ الاغتيال هو توظيفٌ غير مشروع للقوّة من أجل بلوغ غاية معيّنة، أمّا استخدام القوّة في إطارٍ مشروعٍ وقانونيّ فلا يُعدّ من مصاديق الاغتيال.[٣]

١ . طلوعي، محمود، فرهنک جامع سياسي، طهران: انتشارات سخن، ط ١، ١٣٧٢ش، ص٣٥٦.

٢ . عليزاده، حسين، فرهنک خاص علوم سياسي، طهران: انتشارات روزنه، ١٣٧٧ش، ص٢٧٤.

٣ . مصباح دباره، مصطفي، الارهاب، جامعه قارينوس، ١٩٩٠م، ص٤٤.

وعلى هذا الأساس، إذا ثبت أنّ ما وقع في السيرة النبويّة من قتل بعض الأفراد كان عملًا مشروعًا، صادرًا في إطار حفظ الأمن العامّ والدفاع عن المجتمع، فإنّ وصفه بالاغتيال يصبح وصفًا غير دقيق. وقد أُكّد هذا المعنى أيضًا في مقرّرات دوليّة، حيث نُصّ في إحدى جلسات الأمم المتّحدة (١٩٥٧م) على أنّ الأعمال التي لا تنطلق من دوافع شخصيّة، بل تُرتكب بدافع الشعور بالمسؤوليّة تجاه هدفٍ عامّ، كالمقاومة القانونيّة ضدّ قوى الاحتلال، لا تُعدّ من قبيل الأعمال الإرهابيّة.[١]

إنّ التأمّل المنصف في سيرة النبيّ ﷺ يقود إلى اليقين بأنّه لم يكن يتحرّك بدوافع شخصيّة أو ماديّة، بل كان هدفه الأساس دعوة الناس إلى تعاليم إلهيّة تكفل سعادتهم في الدنيا والآخرة.[٢] ومن أجل ذلك أقام رابطة الأخوّة بين المهاجرين والأنصار[٣]، وعقد معاهداتٍ مع يهود المدينة، كما أبرم مواثيق مع القبائل اليهوديّة الكبرى: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة.

وقد تضمّنت تلك المعاهدات التزاماتٍ صريحة، من بينها تعهّد اليهود بألّا يناصروا أعداء رسول الله ﷺ، لا باللسان ولا باليد ولا بالسلاح، سرًّا ولا علنًا، ليلًا ولا نهارًا. ونصّت على أنّه إذا خالفوا ذلك، كان لرسول الله ﷺ الحقّ في التصرّف

١. مصباح دباره، مصطفي، الارهاب، جامعه قارينوس، ١٩٩٠م، ص٨٢.
٢. البيهقي، دلائل النبوة، ترجمه مهدوي دامغاني، محمود، طهران: انتشارات علمي و فرهنكي، ط١، ١٣٦١ش، ج١، ص٢٧٨.
٣. ابن هشام، السيرة النبوية، بيروت، دار المعرفة، ج١، ص٥٠٥.

بما تقتضيه العدالة، من مواجهةٍ وحمايةٍ للمجتمع.[1] غير أنّ اليهود، وهم يعيشون في قلب المجتمع الإسلاميّ، ظلّوا يتربّصون الفرص لإيذاء النبيّ ﷺ والمسلمين، وشرعوا في أعمالٍ تجاوزت حدود المعارضة الفكريّة إلى التآمر والتحريض المباشر، الأمر الذي استدعى التعامل معهم بحزمٍ وعدل، بدل التساهل والعفو الذي قد يفضي إلى ندامةٍ لا تنفع.[2]

ومن بين من قُتلوا في هذا السياق امرأةٌ يهوديّة تُدعى عصماء بنت مروان[3]، كانت تنظم الأشعار المحرّضة[4]، وتدعو فيها صراحةً إلى قتل النبيّ ﷺ[5]، وتحرّض الأوس والخزرج على التمرّد عليه[6]، وتسخر من الإسلام والمسلمين[7]، وتؤذي النبيّ ﷺ بلسانها.[8] وقد بلغ من خطورة شعرها أنّه كان يهدّد الأمن العامّ ويؤجّج الصراع داخل المدينة. وليس خافيًا أنّ للشعر في المجتمع العربيّ آنذاك تأثيرًا بالغًا، بل كان يُعدّ

١ . احمدي ميانجي، احمد، مكاتيب الرسول، قم: دارالحديث، ط١، ١٤١٩ق، ج١، ص٢٦٠.
٢ . مرتضي العاملي، الصحيح من سيرة النبي الاعظم، بيروت، دارالهادي، ط ٤، ١٤١٥ق، ج٦، ص٣٤.
٣ . ابن هشام، همان، ج٢، ص٦٣٧.
٤ . العسقلاني، ابن الحجر، الاصابة في تمييز الصحابة، بيروت، دارالكتب العلمية، ط١، ١٤١٥ق، ج٤، ص٥٩٩.
٥ . ابن عبد البر، الاستيعاب، بيروت، دارالجيل، ط١، ١٤١٢ق، ج٣، ص١٢١٨، امتاع الاسماع، ج١، ص١٢٠.
٦ . احمدبن يحيي البلاذري، أنساب الاشراف، بيروت، دارالفكر، ط١، ١٤١٧ق، ج١، ص٣٧٣.
٧ . احمدبن يحيي البلاذري، همان، ج١، ص٣٧٣.
٨ . ابن الحجر العسقلاني، همان، ج٥، ص٢٦٤. ابن سعد، الطبقات الكبري، بيروت، دارالكتب العلمية، ط٢، ١٤١٨ق، ج٢، ص٢١.

في بعض الأحيان أشدّ أثرًا من السلاح، ولهذا قُرن في الثقافة العربيّة القديمة بالسحر من حيث النفوذ والتأثير.[1]

وكذلك قُتل أبو عفك، وهو شيخٌ طاعن في السنّ من بني عمرو بن عوف، وكان من المنافقين الذين جاهروا بهجاء النبيّ ﷺ[2]، وسعوا إلى تحريض الناس على عداوته[3]، لا سيّما بعد انتصار المسلمين في بدر. وقد نظم أشعارًا تسعى إلى التشكيك في شرعيّة القيادة النبويّة، وإثارة العصبيّات القبليّة، مع أنّه كان ملتزمًا.[4] بموجب العهد. بعدم التعرّض للمسلمين. وقد رأى بعض المسلمين أنّ السكوت عن هذا التحريض العلنيّ يُشكّل تهديدًا مباشرًا لأمن المجتمع، فكان ما كان.[5]

ومن بين من قُتلوا أيضًا أبو رافع سلام بن أبي الحقيق، الذي لعب دورًا محوريًّا في تحريض قريش والأحزاب والقبائل الأخرى على قتال المسلمين[6]، وسعى إلى تأليب قبائل كغطفان عبر الإغراء الماليّ. وقد أثبتت الوقائع أنّ أمثال هؤلاء لم يكونوا مجرّد معارضين فكريّين، بل قادةَ تآمرٍ عسكريّ

١ . جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، جامعه بغداد، ط ٢، ١٤١٣ق، ج٩، ص٦٩-٧٠.
٢ . مطهر بن طاهر المقدسي، البدء والتاريخ، كتبه الثقافه الدينية، ج٤، ص١٩٤.
٣ . مطهر بن طاهر المقدسي، البدء والتاريخ، كتبه الثقافه الدينية، ج٤، ص١٩٤.
٤ . ابن سعد، الطبقات، ج٢، ص٢١.
٥ . سيد جعفر مرتضي العاملي، الصحيح من سيرة النبي الاعظم، ج٦، ص٣٦.
٦ . الطبرسي، فضل بن حسن، اعلام الوري، طهران: انتشارات اسلامية، ط ٣، ١٣٩٠ق، ج٣، ص٩٣.

وسياسيّ، لولا العناية الإلهيّة لكانت نتائج تحريضهم في غزوة الأحزاب كارثيّة على المسلمين.[1]

النتيجة:

إذا كان الاغتيال يُعرَّف بأنّه استعمالٌ غير مشروعٍ وغير قانونيّ للقوّة بهدف القضاء على الخصوم، فإنّ ما جرى في زمن النبيّ ﷺ لا يندرج تحت هذا المفهوم. فهذه الوقائع كانت إجراءاتٍ دفاعيّة مشروعة، استهدفت أفرادًا مارسوا التحريض المباشر، وخرقوا العهود، وسعوا إلى زعزعة الأمن العامّ عبر حربٍ نفسيّة وثقافيّة، بل والدعوة الصريحة إلى القتل. وقد تحمّل النبيّ ﷺ أذاهم زمنًا طويلًا، وأمهلهم لعلّهم يرجعون، غير أنّ استمرارهم في سلوكهم العدائيّ جعل التصدّي لهم ضرورةً لحماية المجتمع. ومن ثمّ فإنّ هذه الأفعال لا تُعدّ اغتيالًا، بل كانت تطبيقًا للعدالة في مواجهة خطرٍ حقيقيّ هدّد كيان الدولة الإسلاميّة الناشئة.

المصادر للمزيد من الدراسة:

النبيّ ويهود الحجاز، مصطفى صادقي.

السيرة الصحيحة للنبيّ الإسلاميّ ﷺ، ترجمة د. سپهري.

فروغ أبديّت، آية الله جعفر سبحاني.

١ . برهان الدين حلبي، السيرة الحلبيه، بيروت، دارالكتب العلمية، ط ٣، ١٤٢٧ق، ج٣، ص٢٢٧.

٩) ماذا جرى بالضبط في حروب النبيّ ﷺ مع يهود بني النضير وبني قريظة؟ وهل انتُهكت حقوق اليهود في تلك الوقائع وسُفكت دماؤهم بغير حقّ، مع أنّ النبيّ ﷺ عُرف بالعفو وكونه رحمةً للعالمين؟ وكيف يمكن توجيه هذه الأحداث؟

قبل الخوض في الجواب، لابدّ من التنبيه على أمرٍ أساسٍ، وهو أنّ يهود المدينة لم يتعرّضوا في أيّ مرحلةٍ من المراحل لإبادةٍ جماعيّة، ومن ثمّ فإنّ السؤال ينبغي أن يُصاغ بدقّة بعد الإحاطة بجوانب القضيّة كلّها. فقد هاجرت قبائل يهوديّة كثيرة من مواطنها الأصليّة إلى يثرب، استنادًا إلى ما كان متداولًا في كتبهم من البشارة بظهور النبيّ الخاتم في الحجاز، فسكنوا داخل المدينة وحولها، وانتظروا ظهوره زمنًا طويلًا. ولمّا بُعث النبيّ ﷺ وواجه في مكّة معارضةً شديدة حالت دون أداء رسالته، هاجر إلى يثرب التي عُرفت بعد قدومه بـ«مدينة النبيّ».

وكان في المدينة عددٌ من القبائل اليهوديّة؛ بعضها كان يقيم داخل المدينة إلى جانب قبيلتي الأوس والخزرج، وبعضها الآخر كان يعيش في أطرافها، في حصونٍ وقلاعٍ محصّنة تحيط بها البساتين والمزارع. وكانت قبيلة بني قريظة من أبرز القبائل اليهوديّة المقيمة في المدينة، تمتلك الأراضي الزراعيّة وتعمل في الزراعة.

وعقب وصول النبيّ ﷺ إلى المدينة وتأسيسه الدولة

الإسلاميّة، كتب عهدًا جامعًا بين المسلمين. من مهاجرين وأنصار. وبين اليهود، كفل لهم فيه حريّة الدين وصيانة الأموال والأنفس، ورتّب على الطرفين التزاماتٍ متبادلة. ومن أهمّ بنود هذا العهد:

أن يعيش المسلمون واليهود في المدينة كجماعةٍ سياسيّة واحدة.

أن يتمتّع كلّ طرفٍ بحريّة ممارسة شعائره الدينيّة.

أن يتعاون الطرفان في حال وقوع حرب، ما دام أحدهما غير معتدٍ.

أن يشترك الجميع في الدفاع عن المدينة إذا تعرّضت لهجومٍ خارجيّ.

أن تُبرم المعاهدات والسِّلم مع الأعداء بالتشاور بين الطرفين.

أن تكون المدينة حرمًا آمنًا يُحرَّم فيه سفك الدماء.

أن يكون رسول الله ﷺ المرجع الأعلى في فضّ النزاعات والخلافات.

أن يلتزم الموقّعون على العهد بالنصيحة والبرّ وحسن المعاملة.[1]

١ . ابن اسحاق، سيرة النبي، بيروت، ط ١، ج٢، ص١١٩-١٢٣، حسن ابراهيم حسن، تاريخ سياسي اسلام، ترجمه پاينده، طهران: جاويدان، ط دهم، ج١، ص١٠٠ و١٠١.

وقد مثّل هذا العهد ضمانةً كاملة لحقوق اليهود، وحمايةً لأرواحهم وأموالهم في ظلّ الدولة الإسلاميّة. ولم يُعرف أنّ النبيّ ﷺ أو المسلمين انتهكوا بندًا واحدًا من بنوده. غير أنّ موقف بعض اليهود كان على النقيض من ذلك؛ إذ لم يقتصر عداؤهم على المناقشات العقديّة، بل تجاوزوه إلى التآمر على النبيّ ﷺ، والتنسيق مع المشركين، وإثارة الشبهات بقصد إضعاف الدعوة وتشويه الرسالة.[1] وقد نزل في شأنهم عددٌ كبير من آيات القرآن، حتى قيل إنّ نحو مئة آية من مطلع سورة البقرة تعالج مواقفهم وسلوكهم.

وتفاقم الأمر إلى حدٍّ أعلن فيه بعضهم نقض العهد صراحة، وتعاونوا مع مشركي مكّة للتحريض على الحرب ضدّ المسلمين. ومن أبرز الوقائع في هذا السياق ما قام به حيّي بن أخطب النضري، إذ توجّه إلى كعب بن أسد القُرَظي، سيّد بني قريظة، ليحرّضه على نقض العهد والدخول في صفّ الأحزاب. وقد امتنع كعب في البداية، لكنّه خضع في النهاية للتحريض، ونقض العهد، واستعدّ لقتال النبيّ ﷺ.[2]

وعلى الرغم من أنّ النبيّ ﷺ كان على علمٍ بهذه الخيانة، فإنّه. التزامًا بالإجراءات الظاهرة وإقامةً للحجّة. أرسل وفدًا

١ . ابن اسحاق، سيرة النبي، بيروت، ط ١، ج ٢، ص ١٠٠-١٠١، حسن ابراهيم حسن، تاريخ سياسي اسلام، ترجمه پاينده، طهران: جاويدان، ط دهم، ج ١، ص ١٣٨-١٤١-١٤٩.

٢ . ابن اسحاق، سيرة النبي، بيروت، ط ١، ج ٢، ص ١٥٢-١٧٦، حسن ابراهيم حسن، تاريخ سياسي اسلام، ترجمه پاينده، طهران: جاويدان، ط دهم، ج ١، ص ١٧٧-٢٢٠، (قرآن كريم، آيات ١ تا ١٠٠ سورة البقرة).

للتحقّق من الأمر، فعاد الوفد ليُعلن للمسلمين أنّ بني قريظة لم يكتفوا بنقض العهد، بل تجرّؤوا على رسول الله صلى الله عليه وآله بالسبّ والكلام الجارح. وكان لهذا الموقف أثرٌ بالغ الخطورة في المدينة؛ إذ استغلّ المنافقون الظرف للاستهزاء بالمسلمين، وشحذ المشركون سيوفهم استعدادًا للهجوم. فاضطرّ النبيّ صلى الله عليه وآله إلى اتخاذ إجراءاتٍ أمنيّة، فأرسل من يحرس المدينة لحماية النساء والأطفال من خطر بني قريظة، في وقتٍ كان المسلمون محاصَرين من الأحزاب.[1]

وكان الواجب، بحسب العهد، أن يقف بنو قريظة مع المسلمين في الدفاع عن المدينة، غير أنّهم اختاروا الخيانة، وسعوا إلى إسقاط الدولة الإسلاميّة بالتنسيق مع الأعداء.[2] وبعد أن انهزم الأحزاب وانتهت غزوة الخندق، نزل جبريل على النبيّ صلى الله عليه وآله وأمره بالتوجّه إلى بني قريظة. فأعلن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ صلاة العصر ستكون في ديارهم، وحمل الراية عليّ بن أبي طالب عليه السلام. ولمّا وصل المسلمون إلى حصونهم، سمعوا منهم عباراتٍ مسيئة للنبيّ صلى الله عليه وآله.

فُرض الحصار على حصون بني قريظة نحو خمسٍ وعشرين ليلة[3]، حتى استسلموا استسلامًا كاملًا.[4] وعندئذٍ طلبوا أن

١ . ابن سعد، الطبقات، بيروت، ١٣٧٦ق، ج٢، ص٦٧، حسن ابراهيم حسن، تاريخ سياسي اسلام، ص١٣٦ تا ص١٥٠.
٢ . البلاذري، فتوح البلدان، قم: منشورات مكتبه الارلروميه، ١٤٠٤ق، ص٣٤٠.
٣ . شيخ المفيد، الارشارد، قم: آل البيت، ط ١، ١٤١٣ق، ج١، ص١١٠-١١، الطبري، تاريخ، ترجمه پاينده، طهران: اساطير، ط ٤، ١٣٦٨ش، ج٣، ص١٠٨٢.١٠٩٣.
٤ . ابن هشام، السيرة، بيروت، ١٣٥٥، ج٣، ص٢٥٠.٢٤٨.

يكون الحكم فيهم لسعد بن معاذ، فقبل النبيّ صلى الله عليه وآله ذلك، مراعاةً لرغبتهم، ولاعتباراتٍ اجتماعيّة تتّصل بحلفهم القديم مع الأوس. وحين حضر سعد. وكان جريحًا من غزوة الخندق. حكم بأن يُقتل الرجال، وتُقسّم الأموال، وتُسبى النساء والذراري. فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات»[1]، دلالةً على أنّ هذا القضاء موافقٌ للحكم الإلهيّ.

ومن خلال هذا السياق، يمكن تلخيص أسباب ما جرى على النحو الآتي:

أنّ بني قريظة نقضوا العهد وخانوا الدولة الإسلاميّة في أخطر ظرفٍ واجهته.

أنّهم لم يكتفوا بالخيانة، بل أساؤوا إلى شخص النبيّ صلى الله عليه وآله، وحرّضوا عليه، وهو جرمٌ جسيم في منطق الدولة والمجتمع آنذاك.

أنّهم تعاونوا مع الأعداء في التخطيط لإسقاط المدينة، بدل الدفاع عنها كما يقتضيه العهد.[2]

أنّ سبّ النبيّ صلى الله عليه وآله والتحريض عليه كان فعلًا عدائيًّا لا يمكن التغاضي عنه[3]، ومع ذلك صبر النبيّ صلى الله عليه وآله طويلًا ولم يُعاجلهم بالعقوبة.

١ . ابن اسحاق، سيرة النبي، ص١٤٩، شيخ مفيد، الامالي، ص١١١.
٢ . سورة التوبة، آية ٦، و سورة الصف آية ٥.
٣ . سورة الصف/٥.

أنّهم لم يستسلموا ابتداءً، بل تحصّنوا واستعدّوا للقتال، حتى أُنهكوا بالحصار.

أنّ حصونهم كانت بؤر فتنةٍ مستمرّة، ولم يُبدوا أيّ استعدادٍ حقيقيّ للتعايش السلميّ أو الالتزام بالعهد.

أنّهم هم الذين طلبوا تحكيم سعد بن معاذ، والتزموا بقبول حكمه أيًّا كان.

أنّ سعدًا حكم بما رآه عدلًا وفق القوانين والأعراف السائدة آنذاك.

أنّ هذا الحكم قُبل من بني قريظة أنفسهم، ومن حلفائهم، ولم يُفرض عليهم قسرًا.

أنّ النبيّ ﷺ لم يُصدر الحكم بنفسه، بل أمضى حكم القاضي الذي ارتضوه، مؤكّدًا موافقته للحكم الإلهيّ.

وقد أيّد القرآن الكريم هذه الوقائع، فقال تعالى في سياق الحديث عن بني قريظة: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾[1]، فنسب الله سبحانه انتقال هذه الأموال والديار إلى المسلمين إلى قضائه وحكمه، دلالةً على مشروعيّة ما وقع.

وعليه، فإنّ ما جرى لم يكن ظلمًا ولا انتهاكًا لحقوق الأبرياء، بل كان تطبيقًا لأحكام العهد والعدالة في مواجهة

١ . سورة الأحزاب/٢٧.

خيانةٍ عظمى وحرابةٍ صريحة. ولم يُقتل جميع اليهود، بل عوقب من ثبتت خيانتهم وإصرارهم على العداء. أمّا النبيّ ﷺ، فقد ظلّ، في كلّ ذلك، ملتزمًا بالوحي، لا يُقدِم على فعلٍ إلّا بإذنٍ من الله، جامعًا بين الرحمة والحزم، وبين العفو حيث ينفع، والعدل حيث لا يقوم المجتمع إلّا به.

المصادر للمزيد من الدراسة:

التاريخ التحقيقي للإسلام، هادي يوسفي الغروي، ترجمة حسين علي عربي.

التاريخ التحليلي للإسلام، رسول جعفريان.

الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم ﷺ، السيّد جعفر مرتضى العاملي، ترجمة د. سپهري.

١٠) لماذا قام النبيّ صلى الله عليه وآله في بدر ــ بحسب ما يُنقل ــ بالسيطرة على آبار الماء وردمها ومنع المشركين من الشرب، مع أنّ أمير المؤمنين عليًّا عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام سقيا أعداءهما؟

ينبغي قبل كلّ شيء التحقّق من أصل الواقعة: هل استولى النبيّ صلى الله عليه وآله في معركة بدر على آبار الماء فعلًا أم لا؟ وإذا ثبتت السيطرة، فهل ردم تلك الآبار، فكان ذلك سببًا في منع خصومه من الماء أم لا؟

تذكر بعضُ المصادر التاريخيّة روايةً خلاصتها أنّ أحد أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله ــ وهو الحُباب بن المنذر ــ أشار عليه أن ينزل جيش المسلمين عند أحد آبار بدر، وأن تُردم سائر الآبار كي لا يجد جيش قريش ماءً ينتفع به. وتقول الرواية إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قبل رأيه ونُفِّذ الاقتراح.[١]

غير أنّ المصدر نفسه يذكر في موضعٍ آخر في سياق الحديث عن بدر أنّ مشركي قريش أرادوا أن يستقوا من آبار بدر، فمنعهم بعض المسلمين، فخاطبهم النبيّ صلى الله عليه وآله قائلًا: لا تمنعوا المشركين من شرب الماء، ودعوهم وشأنهم.[٢]

وهذان القولان لا ينسجمان؛ إذ لو كان النبيّ صلى الله عليه وآله قد رضي بردم آبار بدر ليُحرم منها المشركون، لما استقام أن يأمر

١. الواقدي، محمد بن عمر، المغازي، بيروت، مؤسسة للأعلمي للمطبوعات، ٣، ١٤٠٩، ج١، ص ٥٣ ـ ٥٤، و سيرة ابن هشام، دارالكتاب العربي، ١٤١٨، ج٢، ص٢٦٣.

٢. الواقدي، المغازي، ج١، ص٦١.

المسلمين بعد ذلك ألّا يمنعوهم من شرب الماء. ومن ثمّ: أوّلًا، من جهة النقل التاريخيّ، نحن أمام روايتين مختلفتين في المسألة.

وثانيًا، إنّ طائفةً من المؤرّخين المعاصرين لم تقبل أصل القضيّة، ومنهم العلّامة السيّد جعفر مرتضى العاملي[1]، إذ يقيم أدلّةً لردّها، وينتهي في خلاصة بحثه إلى أنّ آبار بدر لم تكن أصلًا في قبضة المسلمين.[2]

ويؤيّد هذا الاتجاه باحثٌ معاصرٌ آخر، فيذهب إلى أنّ هذه القصّة لا تنسجم مع دلالة آيات القرآن؛ لأنّ الآيات تُفيد أنّ الماء لم يكن ميسورًا للمسلمين، ولذلك طلبوا الغوث، فأنزل الله عليهم مطرًا بوصفه مددًا غيبيًّا كان نافعًا لهم من جهاتٍ متعدّدة.

وقد أكّد بعضُ مفسّري القرآن هذا المعنى اعتمادًا على الآيات، ومن ذلك أنّ الطبرسي والعلّامة الطباطبائي يريان أنّ السيطرة على ماء بدر كانت للمشركين. قال تعالى في سورة الأنفال (الآية ١١): «واذكروا إذ يغشاكم النعاس أمنةً منه وينزّل عليكم من السماء ماءً ليطهّركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبّت به الأقدام.»[3]

١ . نهج‌البلاغة، ترجمه محمد دشتي، قم: المهدي، ط ٣، ١٣٧٩، ص ٧٠٨، حكمت ٣٣٠.

٢ . مرتضي العاملي، سيد جعفر، الصحيح من سيرة النبي الاعظم، دارالهادي، دارالسيرة، ط ٤، ١٤١٥، ج٥، ص ٢٩-٣٠.

٣ . جعفريان، رسول، تاريخ سياسي اسلام، سيرة رسول خدا، انتشارات دليل،

ويذكر هذان العالمان في تفسير الآية أنّ المشركين سبقوا المسلمين إلى الماء، فاشتدّ العطش بالمسلمين، ووسوس لهم الشيطان: كيف تزعمون أنّكم أولياء الله والمشركون قد استولوا على الماء؟ ثم جاء المطر بقدرٍ كافٍ، فكان سببًا في تطهيرهم من الحدث والخبث، كما ثبّت الأرض الرمليّة تحت أقدامهم فاشتدّ موطئهم.[1]

وثالثًا، إنّ سيرة أمير المؤمنين عليه السلام في صفّين، حيث لم يمنع جيش معاوية من الماء، تُعدّ شاهدًا على أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله —على فرض امتلاكه آبار بدر— لم يتّخذ منع الماء عن خصومه نهجًا؛ لأنّ عليًّا عليه السلام كان شديد الالتزام بالسيرة النبويّة، فلا يُظنّ به أن يخالفها في أمرٍ من هذا النوع.

وعلى فرض التسليم بالروايتين معًا، فإنّ المستفاد من مجموعهما أنّ غاية النبيّ صلى الله عليه وآله كانت أن تكون الآبار تحت السيطرة والتنظيم العسكريّ للمسلمين، لا أن يُحرم المشركون من أصل الشرب مطلقًا؛ فإذا احتاجوا الماء شربوا بإذنٍ ومنعٍ للفوضى، لا منعًا للماء من حيث هو.

وبناءً على ما تقدّم، تُستخلص النتيجة التالية: أوّلًا، إنّ أصل الواقعة محلّ تردّد؛ لأنّها غير متيقّنة تاريخيًّا، ولوجود

ط ١٣٨٠، ١، ج١، ص ٤٩٣-٤٩٤.

١ . الطبرسي، فضل بن حسن، مجمع البيان، دارالاحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ١٤١٢، ج٤، ص ٢٥٠، و طباطبايي، سيد محمد حسين، تفسير الميزان، مؤسسة اسماعيليان، ج٩، ص٢٢.

نقلٍ آخر يدلّ على أنّ السيرة النبويّة في بدر لم تكن قائمة على منع الكفّار من الماء. وثانيًا، وفق ما ذهب إليه بعض المؤرّخين والمفسّرين، وبالاستناد إلى آيات القرآن، فإنّ آبار بدر كانت في يد مشركي قريش، وأنّ الماء الذي تيسّر للمسلمين إنّما كان بفضل المطر الذي أنزله الله عليهم.

١١) القصة الكاملة لمباهلة نجران بين النبيّ ﷺ ونصارى نجران

أمرَ القرآن الكريم النبيَّ ﷺ صراحةً بأن يسلك طريق المباهلة[١] مع من لا يذعنون للحجّة بعد قيام البرهان، ولا يسلّمون للحقّ بعد استنفاد أساليب الحوار والجدال العلمي. وقد ورد هذا الأمر الإلهيّ في قوله تعالى من سورة آل عمران (الآية ٦١)، وهو الأساس القرآنيّ لواقعة مباهلة نجران.

معنى المباهلة

المباهلة في أصل اللغة تدور حول معنى التخلية وترك الأمر، وتُستعمل في الدعاء بمعنى التضرّع إلى الله وتفويض الحكم إليه. أمّا في الاصطلاح القرآني الوارد في آية المباهلة، فهي أن يجتمع طرفان يختلفان في قضية دينيّة جوهريّة، فيدعو كلٌّ منهما اللهَ أن يُنزل لعنته وعقابه على الطرف الكاذب منهما، ليُظهر الحقّ ويفضح الباطل.[٢]

١ . سورة آل عمران، آية ٦١.

٢ . مكارم شيرازي، ناصر، تفسير نمونة، دار الكتب الاسلامية، طهران: ط بيست و ٤، ج ٢، ص ٤٣٧.

زمان ومكان مباهلة نجران

اتفقت كلمات العلماء على أنّ يوم المباهلة كان الخامس والعشرين من ذي الحجّة من السنة العاشرة للهجرة، وأنّ مكانها كان في ضواحي المدينة المنوّرة، عند أطراف الصحراء.

بداية قصّة المباهلة

كانت نجران، الواقعة على تخوم الحجاز واليمن، المنطقة المسيحيّة الوحيدة تقريبًا في جزيرة العرب عند بزوغ فجر الإسلام.[1] وبالتوازي مع مراسلات النبيّ صلى الله عليه وآله إلى ملوك العالم وزعمائه، بعث رسالةً إلى أسقف نجران، أبي حارثة، جاء فيها: «باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، من محمد رسول الله إلى أسقف نجران. أدعوكُم إلى الخروج من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ولاية الخلق إلى ولاية الخالق. فإن أبيتم فعليكم الجزية، وإن أبيتم فإني أُنبئكم بالحرب.»

وصلت الرسالة إلى نجران، فدعا الأسقفُ مجلسًا للتشاور. وكان فيهم رجلٌ يُدعى شرحبيل، اشتهر بالحكمة والدهاء، فقال: إنّا كنّا نسمع من علمائنا أنّ النبوّة ستنتقل يومًا من نسل إسحاق إلى نسل إسماعيل، ولا يُستبعَد أن يكون محمد، وهو من ولد إسماعيل، هو النبيّ الموعود. وانتهى الرأي إلى إرسال وفدٍ من ستّين رجلًا من علمائهم لمناقشة النبيّ صلى الله عليه وآله مباشرة.

١ . سبحاني، جعفر، فروغ ابديت، قم: انتشارات دفتر تبليغات اسلامي، ط پانزدهم، ١٣٧٧، ج٢، ص ٤٤٢.

وصول وفد نجران إلى المدينة

قدم الوفد إلى المدينة بلباسٍ فاخر من الحرير، متحلّين بالخواتم الذهبيّة، ومتقلّدين الصلبان، ودخلوا مسجد النبيّ وسلّموا عليه. غير أنّ مظهرهم هذا أثار استياء النبيّ صلى الله عليه وآله. ولمّا علموا بذلك، استفسروا عن سبب النفور، فأُشير عليهم بالرجوع إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فأرشدهم إلى أن يغيّروا هيئتهم ويتخلّوا عن مظاهر الترف. ففعلوا، فعندئذٍ قابلهم النبيّ صلى الله عليه وآله، وردّ سلامهم، وقَبِل هداياهم.[1]

الحوار العقديّ مع وفد نجران

دعاهم النبيّ صلى الله عليه وآله إلى التوحيد الخالص، فقالوا: إن كنتم تقصدون الإيمان بالله، فنحن مؤمنون به. فأجابهم بأنّ للإسلام لوازمَ لم يلتزموا بها، وعدّد منها: عبادتهم للصليب، وأكلهم لحم الخنزير، واعتقادهم ببنوّة عيسى لله.

واحتجّوا بأنّ عيسى عليه السلام وُلد بلا أب، فأجابهم النبيّ صلى الله عليه وآله بأنّ حال عيسى كحال آدم، بل إنّ آدم أولى — بحسب منطقهم — بأن يُدّعى له ما يدّعونه لعيسى، لأنّه خُلق من غير أبٍ ولا أم.

وحين لم يرضَ الوفد بهذا البيان، اقترحوا اللجوء إلى المباهلة، أو — بحسب بعض الروايات — عرضها النبيّ صلى الله عليه وآله عليهم، فنزل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ

١ . سبحاني، جعفر، منشور جاويد، قم: مؤسسة امام صادق عليه السلام، ط ١، ١٣٧٥، ج ٧، ص ٩٦.

الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.[1]

واتُّفِق على موعد المباهلة في اليوم التالي.

مشهد الخروج إلى المباهلة

تشاور قادة نجران فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض: إن خرج محمد بجنده وأصحابه، فاعلموا أنّه غير واثق من دعواه، أمّا إن خرج بأقرب الناس إليه، فذلك دليل صدقه ويقينه.

وفي الموعد المقرّر، خرج النبيّ صلى الله عليه وآله وهو يحمل الحسن والحسين عليهما السلام، ويتقدّمه عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وتتلوه فاطمة الزهراء عليها السلام. فلمّا رأى وفد نجران هذا المشهد، أُصيبوا بالدهشة، وأدركوا أنّ هذا الرجل لا يمكن أن يُقدِم على تعريض أعزّ الناس إليه للعنة إلهيّة إن لم يكن واثقًا من صدقه.[2]

تراجع نصارى نجران وعقد الصلح

عندئذٍ تشاور وفد نجران، وقرّر بالإجماع العدول عن المباهلة، وقَبِلوا بدفع الجزية سنويًّا، على أن تكفل الدولة الإسلاميّة أمنهم وحماية أموالهم وكنائسهم. فوافق النبيّ صلى الله عليه وآله، وقال إنّ العذاب كان قد أظلّهم، ولو دخلوا في المباهلة لهلكوا جميعًا، وامتدّ البلاء إلى نجران.

---

١. سورة آل عمران، آية ٦١.

٢. مكارم شيرازي، ناصر، تفسير نمونة، دار الكتب الاسلامية، طهران: ط بيست و ٤، ج ٢، ص ٤٤٠.

ونُقل عن أسقف نجران قوله: إنّي أرى وجوهًا لو سألوا الله أن يزيل جبلًا من مكانه لأزاله، فلا يجوز مباهلتهم.

نصّ الصلح

كُتبت وثيقة الصلح، وجاء فيها أنّ على أهل نجران أن يؤدّوا سنويًّا ألفي حلّة، لا تتجاوز قيمة كلّ واحدة منها أربعين درهمًا، وأنّ أموالهم وأنفسهم وكنائسهم في ذمّة الله ورسوله، على أن يمتنعوا عن الربا.[1]

دلالة المباهلة وفضل أهل البيت عليهم السلام

صرّح مفسّرو القرآن ومحدّثوه من الشيعة والسنّة بأنّ آية المباهلة نزلت في أهل بيت النبيّ ﷺ، وأنّ المقصود بـ«أبنائنا» هما الحسن والحسين، وبـ«نسائنا» فاطمة، وبـ«أنفسنا» عليّ بن أبي طالب عليه السلام. ولم يُدخل النبيّ ﷺ أحدًا غيرهم إلى ميدان المباهلة، فكانت الواقعة أعظم شاهدٍ قرآنيّ على مكانتهم وفضلهم.[2]

الخلاصة

المباهلة في المفهوم القرآنيّ دعاءٌ متبادل يُفَوَّض فيه الحكم إلى الله ليُظهر الكاذب من الصادق. وقد وقعت مباهلة نجران في الخامس والعشرين من ذي الحجّة سنة عشر

١. سبحاني، جعفر، منشور جاويد، ص٩٨.
٢. فخر الرازي، تفسير كبير، ج٨، ص ٨٥، و زمخشري، الكشاف، ادب الحوزة، ج١، ص٣٦٩.

للهجرة، بعد أن لم تُجدِ الحجج العقليّة مع وفد النصارى. ولمّا رأوا صدق النبيّ صلى الله عليه وآله ويقينه، امتنعوا عن المباهلة، واختاروا الصلح ودفع الجزية. وتُعدّ هذه الواقعة من أوضح الشواهد على صدق الرسالة المحمّديّة، وأعظم النصوص الدالّة على سموّ مقام أهل البيت عليهم السلام.

١٢) لماذا كان النبيّ صلى الله عليه وآله يُصلّي على المنافقين، مع أنّهم أخطر من الكفّار وكان يعرف حقيقتهم؟

يُطلق وصف المنافق على من يُظهر الإيمان في العلن، ويُبطن الكفر والعداء في السرّ، فيتظاهر بالإسلام بين المسلمين، بينما يعمل خفيةً ضدّ الدين وأهله. ومن الواضح أنّ خطر هذا الصنف من الناس وضرره على العقيدة والمجتمع الإسلاميّ أشدّ من خطر من يُعلن عداوته صراحةً؛ لأنّ العدوّ الظاهر يُعرَف موقفه، أمّا المنافق فيضرب من الداخل ويُربك الصفوف ويُضعف الثقة.

وقد عانى المجتمع الإسلاميّ في صدر الإسلام كثيرًا من المنافقين، وكان لهم دورٌ ملموس في إثارة الفتن وإلحاق الأذى بالمسلمين. ومع ذلك، فإنّ سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله في التعامل معهم قامت على سعة الصدر، وطول الأناة، والحرص البالغ على هداية الناس جميعًا، فلم يكن يُعاجل بالعقوبة ولا يُبادر إلى الإقصاء ما دام باب الهداية مفتوحًا، بل كان يتعامل بالرأفة والشفقة، رجاءَ أن تعود القلوب إلى الحقّ.

وتذكر بعض المصادر الروائيّة والتاريخيّة والتفسيريّة أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله صلّى على جنازة بعض المنافقين، ومنهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول.[1] وبغضّ النظر عن درجة صحّة هذه الروايات ومدى اعتمادها، فإنّها تعكس. في حدّها الأدنى. مقدار حرص

١ . ابن اثير، عزالدين علي، الكامل، بيروت، دارصادر، ١٣٨٥ش، ج٢، ص٢٩١.

النبيّ صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ على هداية الناس، وهو ما عبّر عنه القرآن الكريم بوصفه شديد الحرص على إيمانهم وصلاحهم.[1]

إضافةً إلى ذلك، فإنّ الميزان الحاكم على تصرّفات النبيّ صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ في تعامله مع الأفراد والجماعات كان هو الوحي والقرآن. فكلّما نزل حكمٌ إلهيّ في شأن شخصٍ أو فئة، كان النبيّ صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ يُكيّف سلوكه وفق هذا التوجيه الربّاني، وبإدارةٍ حكيمةٍ تراعي مصالح الدعوة والمجتمع. ولهذا السبب كان يتعامل مع المنافقين قبل نزول الأحكام الصريحة بشأنهم بشيءٍ من المداراة والحلم.

وقد رُوي أنّ النبيّ صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ، حين اعترض بعض الصحابة على صلاته على عبد الله بن أُبيّ، قال: «إنّي خُيّرتُ في الاستغفار لهم أو عدم الاستغفار، فاخترتُ الاستغفار.»[2] وهذا يدلّ على أنّه كان يبذل أقصى ما يستطيع، حتّى من خلال الصلاة على موتى المنافقين، رجاءَ أن يكون في ذلك أثرٌ في هداية بقيّتهم، أو في ترغيب ذويهم وأتباعهم في الإيمان الصادق.

كما أنّ النبيّ صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ لم يكن يردّ طلبًا يتقدّم به إليه أحد، حتّى لو كان من خصومه. فقد ذُكر أنّ ابن عبد الله بن أُبيّ، وكان من المؤمنين الصالحين، جاء بعد وفاة أبيه وطلب من النبيّ صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ أن يعطيه قميصه ليُكفَّن به أبوه، فلبّى النبيّ صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ طلبه. ثم

١. ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة/١٢٨).

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، بيروت، دار المعرفة، ج٢، ص٥٥٢.

عاد الابن وطلب من النبيّ ﷺ أن يُصلّي على أبيه، فاستجاب له أيضًا. ولمّا اعترض عمر بن الخطّاب على ذلك، قال له النبيّ ﷺ: «اسكت يا عمر، فإنّ ربّي خيّرني.»[1]

وبقي هذا النهج في سيرة النبيّ ﷺ إلى أن نزل قوله تعالى في سورة التوبة (الآية ٨٤): ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ* إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾. فنهت الآية نهيًا قاطعًا عن الصلاة على المنافقين والوقوف على قبورهم للدعاء والاستغفار.

وعليه، فإنّ سلوك النبيّ ﷺ قبل نزول هذه الآية كان نابعًا من حرصه الشديد على الهداية، وسعيه إلى التأثير في النفوس حتّى في اللحظات الأخيرة، أمّا بعد نزولها فقد التزم بالأمر الإلهيّ، واتّخذ موقفًا أوضح وأصرح في مقاطعة المنافقين ومواجهتهم اجتماعيًّا.[2]

ويجدر التنبيه إلى أنّ الروايات الواردة في صلاة النبيّ ﷺ على المنافقين، ولا سيّما عبد الله بن أُبيّ، ليست على وتيرةٍ واحدة، بل بينها اختلافٌ وتعارض.[3] وفي مثل هذه الحالات يكون القرآن الكريم هو المرجع الحاسم في رفع الاختلاف

١. طباطبايي، سيد محمد حسين، تفسير الميزان، قم: جامعه مدرسين، ج٩، ص٣٥٥.
٢. مكارم شيرازي، ناصر، تفسير نمونة، طهران: دار الكتب الاسلامية، ١٣٧١ش، ج٨، ص٦٧-٧١.
٣. طباطبايي، سيد محمد حسين، همان.

وترجيح الموقف الصحيح. ووفق بعض التقارير، فإنّه عندما طلب بعض الأبناء المؤمنين من النبيّ ﷺ الصلاة على آبائهم المنافقين أو إعطاءهم قميصه، نزل جبريل بالآية الناهية قبل أن يُصلّي النبيّ ﷺ عليهم، فامتنع عن ذلك امتثالًا للأمر الإلهيّ.[1]

الخلاصة:

إنّ صلاة النبيّ ﷺ على بعض المنافقين. على فرض ثبوتها. كانت قبل نزول النهي الصريح، وجاءت في سياق سعيه الأقصى لهدايتهم أو لهداية من حولهم، أمّا بعد نزول آية سورة التوبة فقد التزم النبيّ ﷺ التزامًا كاملًا بالحكم الإلهيّ، ولم يعد يُصلّي على أحدٍ من المنافقين. وهكذا تتجلّى سيرة النبيّ ﷺ جامعةً بين الرحمة الواسعة، والانقياد التامّ للوحي، والحزم حينما تقتضيه مصلحة الدين والمجتمع.

١ .الطبرسي، مجمع البيان، بيروت، داراحياء التراث العربي، ١٤٠٦ق، ج٥، ص٧٥.

١٣) هل تُعَدّ سورة «الكافرون» نوعًا من المصالحة بين النبيّ ﷺ والمشركين، بمعنى: لكم دينكم ولي ديني، أنا في طريقي وأنتم في طريقكم؟

يمكن فهم «المصالحة» على أحد معنيين مختلفين:

المعنى الأوّل:

التعايش السلميّ القائم على الاعتراف المتبادل بصحّة العقائد، أي أن يكون الشرك حقًّا في نفسه، كما يكون الإسلام حقًّا، ويلتزم كلّ فريق بدينه بوصفه طريقًا مشروعًا إلى الله.

المعنى الثاني:

التعايش السلميّ في الإطار الاجتماعيّ والسياسيّ، مع الالتزام بالقوانين والضوابط الشرعيّة، واحترام النظام العامّ للمجتمع الإسلاميّ، وعدم إظهار ما يعدّه الإسلام منكرًا أو قبيحًا، وعدم مناصرة أعداء المسلمين، مع بقاء الاعتقاد بالشرك باطلًا في ذاته، وعدم قبوله عقديًّا، وإن أمكن التعامل مع أهله اجتماعيًّا ضمن شروط محدّدة.

أوّلًا: المصالحة بالمعنى الأوّل

هذا المعنى مرفوض قطعًا في المنظور الإسلاميّ. فالإسلام يوجب على المسلمين الإيمان بجميع الأنبياء والكتب السماويّة واحترامهم[١]، غير أنّه يصرّح في الوقت نفسه بأنّ

١ . جوادي الآملي، عبدالله، تفسير تسنيم، مركز نشر الأسراء، ط ٣، ١٣٨١هـ ش، ج ٢، ص ١٩٤ الي ١٩٦، سورة البقرة، آية ٤.

القرآن هو الكتاب الإلهيّ الخاتم، وأنّ رسالة الإسلام هي الرسالة الكاملة المهيمنة على ما سبقها، الجامعة للحقائق الصحيحة التي لم يلحقها التحريف، والمشتملة على معارف وتشريعات لم ترد في الشرائع السابقة.[1]

ومن ثمّ، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يكن يعترف بصحّة الشرك، ولا كان يقرّ للمشركين بأنّهم على حقّ في عباداتهم، بل كان يدعوهم بلا هوادة إلى التوحيد والإيمان، ويتحمّل في سبيل ذلك أشدّ صنوف الأذى.[2] والقرآن الكريم بدوره يوجّه خطاب الدعوة الصريح إلى أهل الكتاب والمشركين معًا.[3] ولأنّ الإسلام دين توحيد خالص، فإنّه بطبيعته في تضادٍ جذريّ مع الشرك، وينفيه من الأساس. وبناءً على ذلك، فالمصالحة بهذا المعنى باطلة ولا يمكن نسبتها إلى سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله ولا إلى مضمون سورة «الكافرون».

ثانيًا: المصالحة بالمعنى الثاني

أمّا هذا المعنى من المصالحة، أي التعايش المنظّم في إطار أحكام الشريعة وضوابطها، فهو من المسلّمات في الفقه الإسلاميّ[4]، وقد خُصِّصت له أبوابٌ في كتب الفقه، ونصّت

١ . طباطبايي، محمد حسين، الميزان، مترجم سيد محمد باقر موسوي، قم: دفتر انتشارات اسلامي، ط ١١، ١٣٧٨، ج٥، ص ٥٧٠ و ٥٧١، سورة المائدة آية ٤٨.

٢ . قرشي، سيد علي اكبر، خاندان وحي، طهران: دارالكتب الاسلامية، ط ١، ١٣٦٨هـ ش، ص ١٧.

٣ . جوادي الآملي، عبدالله، تفسير تسنيم، قم: الأسراء، ط ٣، ١٣٨١هـ ش، ج٢، ص ٤٨ و ج٥، ص ٤٨٣.

٤ . شهيد الاول، الروضه البهجه في الشرح اللمعه الدمشقيه، مؤسسة اسماعيليان، ط ٣، ج١، كتاب الجهاد.

عليه آياتٌ قرآنيّة[1]، ووردت فيه أحاديث كثيرة، ولا سيّما في شأن أهل الكتاب الذين يعيشون في ظلّ الدولة الإسلاميّة بعقد الذمّة، مع حفظ دمائهم وأموالهم وحقوقهم.[2]

غير أنّ سورة «الكافرون» لا تتناول هذا النوع من المصالحة أصلًا؛ لأنّ المقصود بالكافرين فيها فئةٌ معيّنة من مشركي قريش، لا مطلق غير المسلمين. وقد نُقل عن الإمام الصادق عليه السلام في بيان سبب النزول أنّ قريشًا عرضت على رسول الله ﷺ مقترحًا واضحًا في مضمونه: أن يعبد النبيّ ﷺ آلهتهم سنة، ويعبدوا هم إلهه سنة، ويتناوبوا على ذلك ما داموا أحياء. فجاء الردّ الإلهيّ مطابقًا لجوهر هذا العرض، ولكن على سبيل الرفض القاطع، مع تكرار المعنى لإبراز استحالته.[3]

فالسورة ليست مجرّد بيان انفصالٍ سلميّ بين طريقين متكافئين، بل هي إعلانٌ صريح بأنّ النبيّ ﷺ لن يعبد ما يعبدون أبدًا، وأنّهم—بحسب علم الله—لن يعبدوا ما يعبده أبدًا. فهي تتضمّن إخبارًا غيبيًّا عن مآل تلك الفئة الخاصّة من المشركين، وتأكيدًا نهائيًّا على انقطاع أيّ إمكان للتلاقي العقديّ بين التوحيد والشرك.[4]

١ . العلامة طباطبائي، محمد حسين، الميزان، مترجم محمد باقر موسوي، قم: انتشارات اسلام، ط ١١، ١٣٧٨ هـ ش، ج ٩، ص ٢٠٩.
٢ . نهج البلاغة، مترجم محمد دشتي، خطبة ٢٧، ص ٥١.
٣ . العلامة طباطبائي، محمد حسين، الميزان، ترجمه محمد باقر موسوي، قم: انتشارات اسلامي، ط ١١، ١٣٧٨ هـ ش، ج ٢٠، ص ٦٤٥.
٤ . العلامة طباطبائي، محمد حسين، الميزان، ترجمه محمد باقر موسوي، قم: انتشارات اسلامي، ط ١١، ١٣٧٨ هـ ش، ج ٢٠، ص ٦٤٤.

وعلى هذا الأساس، فإنّ قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ليس إقرارًا بصحّة دينهم، ولا تفويضًا متبادلًا بالحقّ، بل هو خلاصة تقريرية تؤكّد ما سبقها من الآيات: براءةٌ تامّة من الشرك وأهله، وقطعٌ نهائيّ لأيّ مساومة عقديّة.

النتيجة

إنّ سورة «الكافرون» لا تدلّ بحالٍ من الأحوال على المصالحة بالمعنى الأوّل، بل على العكس، هي نصّ قرآنيّ يأمر النبيّ ﷺ بإعلان عدم المصالحة العقديّة، ورفض أيّ تسويةٍ تمسّ أصل التوحيد. وهي، في الوقت نفسه، لا تتعرّض لمسألة التعايش السياسيّ والاجتماعيّ المنظّم؛ لأنّها نزلت في سياق خاصّ يتعلّق بمشركي قريش وعرضهم للمساومة الدينيّة.

بل إنّ هذا الموقف القرآنيّ الحاسم هو الذي مهّد لاحقًا لبيان الحكم النهائيّ في شأن المشركين الوثنيّين، كما ورد في سورة «براءة»، حيث حُسم أمرهم بين الإيمان أو زوال الأمان. وعليه، فإنّ سورة «الكافرون» ليست خطابَ مصالحة، بل إعلانُ مفاصلةٍ عقديّةٍ نهائيّة، تجمع بين الوضوح في المبدأ والحسم في الموقف.

حروب النبي الأعظم ﷺ

١) لماذا جاء النبي محمد ﷺ بالسيف القوي، ولم يسلك طريق السلام والهدوء كما فعل عيسى عليه السلام و بوذا؟

للإجابة على هذا السؤال، يجب أولاً توضيح أسلوب النبي محمد ﷺ في دعوته إلى الدين الحق، ثم دراسة معاهدة صلح الحديبية بناءً على هذا الأسلوب، وأخيرًا تحليل سيرة كل من بوذا وعيسى عليه السلام في هذا السياق.

في سيرة النبي محمد ﷺ العملية، يمكننا أن نميز عدة أساليب في دعوته إلى الإسلام من خلال العديد من الآيات القرآنية. أول وأصلي هذه الأساليب كان "الهداية الفكرية" عبر الاستدلال وتعزيز روح التفكير والتأمل لدى الناس. وقد استخدم النبي هذه الطريقة بقوة طوال مدة دعوته في مكة التي استمرت ثلاث عشرة سنة، وكان القرآن في تلك الفترة يحث على التأمل والتدبر، ويحث النبي ﷺ على "الدعوة إلى الحكمة والموعظة". وقد نجح النبي بهذه الطريقة في جذب

العديد من الناس إلى الإسلام، ومن أبرزهم أهل المدينة الذين أسلموا بعد ذلك.[1]

لكن هناك دائمًا من لا تنفع معهم الحجة والمنطق، ممن يتمسكون بعقائد فاسدة وظالمة تؤدي إلى إلحاق الأذى بالآخرين ويرفضون الهداية. إن ما نعرفه من تاريخ الماضي والحاضر عن روح المفسدين يجعل من السذاجة الاعتقاد بأن مجرد الحديث يمكن أن يغيرهم. من منظور القرآن، هؤلاء الأشخاص لن يتوقفوا عن الفساد إلا بالحرب، وليس بعقد المعاهدات والمواثيق.[2]

السلام والدعوة إليه، بمعنى الابتعاد عن أي نوع من الشدة المطلقة، قد يكون نقصًا في حق صاحبه، لأن في بعض الأحيان لا يمكن استرجاع الحقوق المفقودة إلا بالقوة. التنازل والاكتفاء بالنصيحة والموعظة أمام أولئك الذين لا تؤثر فيهم الموعظة يعني منحهم الحرية للاستمرار في أعمالهم الخاطئة.

الإسلام لا يسعى إلى تحقيق سلام زائف، حيث يبقى فيه المظلوم محرومًا من حقوقه في ظل صمت لا يحقق العدالة. بناءً على ذلك، وفي ضوء العديد من الآيات القرآنية التي

١ . جعفريان، رسول، تاريخ سياسي اسلام. سيرة رسول خدا(ص)، قم: نشر الهادي، ط ٢، ١٣٨٧ش، ص ٤٤٧.

٢ . جعفريان، رسول، تاريخ سياسي اسلام. سيرة رسول خدا(ص)، قم: نشر الهادي، ط ٢، ١٣٨٧ش، ص ٤٥٥.

تتناول فلسفة الجهاد وتعتبر الحرب مشروعة لأغراض دينية وإنسانية، يكون من غير العادل اعتبار الجهاد في الإسلام حربًا لأهداف عدوانية بحتة. الجهاد الديني يعنى تحرير الناس من نير الظلم واسترداد الحقوق المغتصبة أو إنهاء العدوان، جنبًا إلى جنب مع الأمر بعدم التعدي.[1]

من هنا نخلص إلى أن الإسلام في طبيعته يسعى إلى السلام ويسعى إلى تحققه، ولكنه في الوقت ذاته لا يخفي موقفه من الجهاد والدفاع، ولا يقترح نوعًا من السلام غير الحقيقي الذي يؤدي إلى قبول الظلم.[2]

من ثم، كانت الطريقة الأساسية التي استخدمها النبي محمد صلى الله عليه وآله في دعوته، كما هي طريقة جميع الأنبياء، قائمة على التفاهم والاعتدال، وهناك العديد من الأمثلة في تاريخ حياة النبي تدل على هذا. كما تشير العديد من الآيات في القرآن إلى هذا مثل قوله تعالى في سورة آل عمران، الآية ٥٩: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ...﴾

أما بالنسبة لصلح الحديبية، فقد قبله النبي صلى الله عليه وآله بناءً على مصلحة المجتمع المسلم في ذلك الوقت، حيث أن

١ . جعفريان، رسول، تاريخ سياسي اسلام . سيرة رسول خدا(ص)، قم: نشر الهادي، ط ٢، ١٣٨٧ش، ص ٤٥٦.

٢ . جعفريان، رسول، تاريخ سياسي اسلام . سيرة رسول خدا(ص)، قم: نشر الهادي، ط ٢، ١٣٨٧ش، ص ٤٥٦.

القبول به أتاح فترة من السلام النسبي التي من خلالها تمكن المسلمون من التركيز على الدعوة وتعليم الناس برسالة الله. على الرغم من أن نص المعاهدة بدا وكأنه في صالح الكفار، إلا أن هذا القرار أثبت صحته مع مرور الوقت، حيث تجلى أثره الإيجابي في جذب العديد من الناس إلى الإسلام.

وعن بوذا، يرى بعض العلماء الدينيين أن بوذا لم يكن يسعى إلى تأسيس دين شامل قادر على إدارة المجتمع البشري كما فعل النبي محمد ﷺ، بل كانت فلسفته أقرب إلى مذهب فكري منها إلى دين كامل. لكن أتباعه حولوه إلى دين ونسبوا إليه الإلوهية، وبدأوا في بناء المعابد ورفع التماثيل له. لذا، لا يمكن مقارنة سيرة بوذا بسيرة النبي محمد ﷺ لأن الهدف الذي كان يسعى إليه لم يكن مؤسسًا لدين كامل.

أما عيسى عليه السلام، فقد اعتقد البعض خطأً أنه كان مجرد واعظ يدعو للسلام، ولكن الحقيقة أن عيسى كان أيضًا مكلفًا بالهداية وتغيير المجتمع، وقد استخدم كافة الوسائل المتاحة له في سبيل تحقيق هذه الرسالة. لقد كانت معركة عيسى مع الطغاة من بني إسرائيل جزءًا من رسالته الإلهية. وفي القرآن الكريم، هناك إشارة إلى معركة حواريي عيسى ضد الكافرين كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ...﴾[1]

١ . سورة الصف، آية ١٤.

وبالنسبة لسبب عدم إبراز جانب الجهاد في سيرة عيسى، فقد يكون ذلك ناتجًا عن قصر فترة رسالته وغياب القوة العسكرية اللازمة لمواجهة الظالمين، وهو أمر مشابه لما حدث للنبي محمد صلى الله عليه وآله في مكة، حيث كان يعاني من الأذى لكنه لم يكن قادرًا على رد العنف بالعنف في ذلك الوقت.[1]

مصادر للمزيد من الدراسة:

تاريخ سياسي الإسلام، رسول جعفريان.

معرفة الأديان، مجموعة عقائدية من الحوزة.

أسئلة وأجوبة عن المسيحية، سيد محمد آل أديب.

١ . گروه عقايد، شناخت اديان، سازمان حوزة ها و مدارس خارج از كشور، ط ٢، ١٣٨٣ش، ص ١٣٤.

٢) هل كان النبي الأكرم ﷺ يستشير الناس في الحروب وفي أمور أخرى، وهل كان يتبع رأيهم بعد المشورة؟

لقد ذكر راغب في مفرداته أن "التشاور" أو "المشاورة" تعني استخراج الرأي الصحيح، وذلك بأن يلجأ الإنسان إلى الآخر عندما لا يكون لديه الرأي السديد في أمر ما، فيطلب منه المشورة. هذه الكلمة مشتقة من الحروف (ش)، (و)، (ر)؛ إذ كان العرب يقولون: "شرَتُ العسل"، أي استخرجته من الخلية.[١]

وقد ورد ذكر المشاورة في القرآن الكريم في عدة آيات، حيث اعتُبرت وسيلة صحيحة للوصول إلى الرأي الصواب، وهي سمة من سمات المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿... وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ...﴾[٢]، وبالتالي فإن المشورة تعتبر من الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها المسلمون.

النبي الأكرم ﷺ كان يولي المشورة أهمية كبيرة في دعوته وفي إدارة شؤون المسلمين. ومن بين أقواله المأثورة في هذا الشأن: "إذا استشار أحدكم أخاه، فليقل له رأيه صريحًا"[٣]، و"الرجل لا يهلك حينما يستشير"، و"لا أحد فوق المشورة".[٤] كما جاء في القرآن الكريم: «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ...»[٥]، أي أن النبي مأمور بالاستشارة مع المسلمين في الأمور المختلفة.

١. راغب االصفهاني، مفردات الفاظ القرآن، دارالكتب العربيه، (اسماعيليان)، ص ٢٧٧.
٢. سورة الشوري، آية ٣٨.
٣. پاينده، نهج الفصاحه، ط ١، طهران: جاويدان ١٣٧٤، ص ١٧٦، ٢٧٨، ٤٩٦، ٦٤٠.
٤. سورة آل عمران، آية ١٥٩.
٥. سورة آل عمران، آية ١٥٩.

المشورة التي كان النبي ﷺ يعمل بها يمكن أن تُعتبر وسيلة لتعزيز التعاون بين المسلمين وتقديرهم، إذ كان يتيح لهم المشاركة في صنع القرارات السياسية والاجتماعية، مما يعزز الوحدة بين المسلمين ويسهم في تحفيزهم على العمل الجماعي. إضافة إلى ذلك، كان النبي ﷺ يشجع المسلمين على المشاركة في اتخاذ القرارات المصيرية، ما كان يؤدي إلى تقوية روحهم المعنوية والنفسية.

على سبيل المثال، عندما كان النبي ﷺ يطرح خطة معينة لتنفيذها، كان يشرحها لأصحابه ويطلب منهم إبداء آرائهم. أحيانًا كان يعرض عليهم عدة حلول ويسألهم عن الأنسب بينها لحل مشكلة معينة. هذا النوع من المشاورة كان يجعل المسلمين يشعرون بالفخر لأن النبي ﷺ كان يعتبرهم شركاء في الأمور الكبرى، مما يزيد من عزتهم واعتزازهم بأنهم جزء من هذا المشروع العظيم.

ومن الأمثلة التي توضح ذلك التاريخية هي مشاورة النبي ﷺ لأصحابه في غزوة بدر. ففي السنة الثانية للهجرة، عندما كان النبي ﷺ في طريقه إلى بدر لملاقاة قريش، استشار أصحابه فيما إذا كان يجب عليهم التحرك نحو قريش أو الانتظار في مكان آخر. وقد أصر مقداد وسعد بن معاذ على السير إلى قريش، مؤكدين أنهم لن يكونوا مثل بني إسرائيل الذين طلبوا من موسى أن يقاتل وحده. وبعد مشاورة النبي ﷺ مع الأنصار، أكدوا أيضًا ولاءهم له، واستمروا

في السير نحو بدر. وفي موقع بدر، استشار النبي ﷺ حباب بن منذر حول مكان المعسكر، فأشار حباب بتغيير الموقع إلى مكان أقرب إلى أحد آبار بدر، فقبل النبي ﷺ بذلك، مما أسهم في نجاح المعركة.[1]

وفي غزوة أحد، عندما قرر النبي ﷺ البقاء في المدينة لملاقاة قريش باستخدام التحصينات الموجودة في المدينة، أصرَّ الشباب على الخروج إلى المعركة خارج المدينة. وبعد استشارة النبي ﷺ معهم، استجاب لرأيهم، متراجعًا عن قراره بالبقاء، وقرر التحرك نحو العدو. هذه الحادثة تبين كيف أن النبي ﷺ كان يولي أهمية كبيرة لرأي الشباب ويضعه في الاعتبار حتى لو كان الرأي المعاكس لرأي الكبار.[2]

وفي غزوة الخندق (التي وقعت في السنة الخامسة للهجرة)، عندما اجتمع تحالف قريش مع قبائل أخرى بهدف القضاء على الإسلام، استشار النبي ﷺ أصحابه في كيفية مواجهة هذا الهجوم. بعد مشورة سلمان الفارسي، قرر النبي ﷺ حفر خندق حول المدينة كإجراء دفاعي، وهو ما كان له أثر كبير في نجاح المسلمين في التصدي للهجوم.[3]

وكان النبي ﷺ دائمًا يستشير أصحابه في الأمور الهامة،

١ . ابن هشام، سيرة النبويه، بيروت دارالكتب العربي، ط ٦، ١٤١٨، ج٢، ص ٢٥٨، طبري، تاريخ، بيروت، دارالكتب العلميه، ط ٢، ١٤٠٨، ج٢، ص٢٠.

٢ . الطبري، پيشين، ص ٥٨، ٥٩ و ابن هشام پيشين، ج٣، ص ٢٦.

٣ . الطبري، تاريخ، ج٢، ص٩١ و ابن هشام، پيشين، ج٣، ص١٧٥.

ويحثهم على إبداء آرائهم.[1] كانت هذه المشورة سمة بارزة في قيادته، حيث كان يتعامل مع كل قضية بتأنٍ، مشركًا الأمة في القرار والمشاركة، مما عزز من وحدة المسلمين ورقي تفكيرهم.

المصادر للمزيد من الدراسة:

ترجمة سيرة رسول الله، المؤلف: ابن هشام.

سنن النبي، المؤلف: العلامة طباطبائي.

١ . ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٢٥٨.

النبي الأعظم صلى الله عليه وآله والدين العالمي

١) لماذا يجب اختيار الدين الإسلامي؟

لا شك أن الله تعالى خلق الإنسان لهدف معين، وهو الوصول إلى الكمال. ولا يمكن الوصول إلى هذا الهدف إلا من خلال اتباع طريق الأنبياء الإلهيين، لأن من يعرف الكمال البشري وسبيل الوصول إليه هو خالق الإنسان، وهو الذي قدم لنا طريق الوصول إلى الكمال عبر رسل الله. لذا، فإن ضرورة اختيار الدين هي ضرورة لتحقيق السعادة والوصول إلى الكمال.

إذن، يطرح السؤال التالي: لماذا يجب على الإنسان اختيار الدين الإسلامي من بين الأديان السماوية الأخرى، ولا يجوز له أن يتبع أديانًا أخرى؟

الجواب الأول: ضرورة اتباع النبي صلى الله عليه وآله

لقد أرسل الله تعالى لكل زمان نبيًا خاصًا وبرنامجًا خاصًا لإيصال الناس إلى السعادة. وكان اتباع نبي كل عصر سببًا في

سعادة الناس في ذلك الوقت. ومنذ أن كان النبي محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء، يجب اتباعه للوصول إلى السعادة. اتباع أديان أخرى لا يحقق السعادة، وإلا لو كان يمكن تحقيق السعادة من خلال الأديان السابقة لما كان الله تعالى قد أرسل نبيًا جديدًا. إرسال رسول جديد يدل على أن الشريعة السابقة لم تكن كافية لتأمين سعادة البشر، وهذه رسالة خاتم الأنبياء هي النسخة الأخيرة والمكتملة. لذلك، يجب اتباع هذا الدين للوصول إلى السعادة، إلا إذا قال شخص ما إنه لا يهتم بسعادته، فيمكنه حينها أن يرفض الدين تمامًا، لكن مثل هذا القول لا يصدر عن عقل رشيد.

الجواب الثاني: اكتمال الدين الإسلامي

الجواب الثاني يعتمد على أن الدين الإسلامي يمتلك مزايا وخصائص تجعله الدين الكامل والمتوافق تمامًا مع فطرة الإنسان. إنه الدين الذي يجيب على جميع احتياجات البشر في كافة العصور والأزمان. ولذلك، نذكر بعض خصائص هذا الدين:

أ) العالمية في الدين الإسلامي

من الضروري أن نعلم أن هذا الدين ليس مقتصرًا على منطقة جغرافية معينة. وقد أرسل النبي محمد ﷺ رسائل إلى حكام الدول مثل قيصر الروم، وملك الفرس، وحكام مصر، داعيًا إياهم إلى اعتناق الإسلام وتحذيرهم من عواقب

الكفر. وإذا لم يكن الدين الإسلامي عالميًا، لما كانت هناك دعوات عامة مثل هذه، ولما كان للأمم الأخرى عذر في رفضه. لذلك، لا يمكن الفصل بين الإيمان بالإسلام وضرورة العمل بهذا الشريعة، ولا يمكن استثناء أي قوم أو أمة من هذا الدين الإلهي.[1]

وقد أكد القرآن في العديد من الآيات أن الإسلام هو دين هداية لجميع البشر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[2]. وأيضًا في آية أخرى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.[3]

ب) اكتمال الدين الإسلامي

من خصائص الدين الإسلامي أنه دين كامل. وهذا ما تؤكده الآية الكريمة: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.[4] في هذه الآية، يتحدث القرآن عن إتمام النعمة وكمال الدين، مشيرًا إلى أن الدين بلغ كماله في يوم خاص، وهو اليوم الذي اختار فيه النبي صلى الله عليه وآله عليًا عليه السلام إمامًا.[5]

---

١. مصباح يزدي، محمد تقي، اصول عقايد، ناشر مركز ط و نشر سازمان تبليغات اسلامي، ط سيزدهم، ١٣٧٤، ج١ و٢، ص٣٣٠-٣٢٩.
٢. سورة التكوير، آية ٢٧.
٣. سورة الصف، آية ٩.
٤. سورة المائدة، آية ٣.
٥. النصري، عبدالله، تلخيص از كتاب انتظار بشريت از دين، مؤسسة فرهنكي دانش و انديشه معاصر، ط ديتا، ط١، ١٣٧٨، صص ٨٠-٧٩.

ج) شمولية الدين الإسلامي

تشمل شمولية الدين الإسلامي جوانب عديدة:

شمولية القرآن: يعتقد العديد من المفكرين الإسلاميين أن الشمولية في الدين تعني الشمولية في القرآن. ويستندون إلى الآيات التي تشير إلى أن القرآن هو بيان لكل شيء، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَاكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.[1]

شمولية المصادر: تعني الشمولية في الدين الإسلامي أن مصادر الدين، بما في ذلك القرآن والسنة، تشمل جميع جوانب الحياة البشرية.[2]

د) الإسلام؛ الدين الثابت والخالد

يُذكر الدين الإسلامي في القرآن باعتباره دينًا ثابتًا ودائمًا. وفيما يتعلق بثبات هذا الدين، هناك العديد من البراهين التي تدعمه. البرهان الأول يعتمد على مبدأ فاعل الدين، حيث يذكر القرآن أن الدين عند الله هو الإسلام. كما في قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[3]، وفي آية أخرى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾.[4]

---

١ . سورة النحل، آية ٨٩.
٢ . النصري، عبدالله، تلخيص كتاب انتظار بشر از دين، صص ٧١-٧٣.
٣ . سورة آل عمران، آية ١٩٩.
٤ . سورة النحل، آية ٩٦.

وهناك أيضًا برهان فطري، حيث أن الإسلام يناسب الفطرة الإنسانية، التي هي ثابتة وغير قابلة للتغيير. فالإسلام جاء لتربية الفطرة الإنسانية وتنميتها، والفطرة الإنسانية ثابتة ومشتركة بين جميع البشر، وبالتالي يكون الدين الذي يوافق هذه الفطرة ثابتًا ودائمًا.[1]

خصائص الدين الشامل والدائم:

التوجه إلى الإنسان: يجب أن يحتوي الدين الشامل على رؤية عميقة للإنسان، ويجب أن يعالج جميع أبعاد وجوده، من معرفة الذات والعوامل التي تساهم في تكامل الإنسان إلى الحاجة إلى النمو في علاقاته مع نفسه، الله، الطبيعة، والآخرين.

التوافق مع الفطرة: إذا كان الدين موجهًا لجميع العصور، يجب أن يكون مطابقًا لفطرة الإنسان.

البساطة والسهولة: يجب أن تكون التعاليم الدينية سهلة لتكون قابلة للتطبيق من قبل جميع البشر في كل زمان.

المرونة: يجب أن يكون الدين الشامل مرنًا ليتمكن من تلبية احتياجات جميع العصور.

العقلانية: يجب أن تكون تعاليم الدين مبنية على العقل

١ . جوادي الآملي، عبدالله، تلخيص از شريعت در آينه معرفت، ص١١٥–١١٦، ط ١، مركز نشر الأسراء، طخانه اسوه، ١٣٧٧.

والمنطق، مع مراعاة المصالح التي تؤدي إلى تطور الإنسان.

خلاصة القول: إذا اختار شخص ما دينًا آخر غير الإسلام، مع كل هذه الخصائص والشمولية، فهذا يعني ضعفًا فكريًا أو عدم فهم كافٍ للإسلام.

المصادر للمزيد من الدراسة:

نصري، عبدالله، انتظار بشر من الدين.

مصباح يزدي، محمدتقي، تعليم العقائد، الجزء١ و ٢.

جوادى آملى، عبدالله، الشريعة في مرآة المعرفة.

٢) على أي دين كان النبي ﷺ قبل البعثة؟

لقد نشأ النبي محمد ﷺ في ظل رعاية الله تعالى بعيدًا عن أدران الجاهلية وعاداتها. كان النبي من أروع الناس في الأخلاق وأصدقهم وأحسنهم في الأمانة والوفاء. كان يُلقب بـ "الأمين" من قِبل قومه بسبب صفاته الطيبة، وكان بعيدًا عن القيل والقال. وعليه، فإن الشواهد التاريخية تؤكد أن النبي ﷺ كان في قمة الأخلاق وكان يتمتع بمكانة اجتماعية استثنائية قبل البعثة. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما هو الدين الذي كان يتبعه النبي قبل بعثته؟

منذ بدء الخلق وحتى يوم القيامة، لم يكن هناك دين مرضي لله سوى واحد، وكل الأنبياء من آدم حتى محمد ﷺ دعوا الناس إلى هذا الدين. وهذا ما تؤكده الآية الكريمة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾[1]، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.[2] ومن هذه الآيات يتضح أن الهدف الأساسي من بعثة الأنبياء هو الدعوة إلى دين توحيدي، وهو الإسلام.

النظرية الأولى:

هناك من يعتقد أن النبي محمد ﷺ كان يتبع أحد الأديان السابقة قبل بعثته، وكان يعمل بمقتضى تعاليم ذلك الدين. استدل هؤلاء على ذلك بآيات قرآنية وأحداث تاريخية. وأهم الأدلة التي ساقوها هي:

١. سورة الشوري، آية ١٣.
٢. سورة آل عمران، آية ١٩.

الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ فَاتَّبِعْ سَبِيلَهُمْ﴾[1] والتي تدعو إلى اتباع الأنبياء.

الآية التي تقول: ﴿وَ ما وَصَّيْنَا بِه إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[2]، التي تشير إلى تبعية النبي لأديان الأنبياء السابقين.

الآية التي تقول: ﴿فَاتَّبِعوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[3] التي تدعو النبي إلى اتباع ملة إبراهيم.

أيضًا، بعض الروايات تشير إلى أن النبي ﷺ كان يذهب إلى التوراة في حالات معينة، مثل حكم الرجم في قصة الزنا.[4]

النظرية الثانية:

توجد نظرية أخرى، وهي الرأي السائد بين العلماء من الشيعة والسنة على حد سواء، وتقول إن النبي محمد ﷺ لم يكن يتبع أي دين من الأديان السابقة، بل كان يعمل بمقتضى التكليف الإلهي، وكان يسير على الفطرة السليمة التي علمه إياها الله تعالى.[5] وأدلة هذه النظرية هي:

جميع المسلمين يتفقون على أن النبي محمد ﷺ هو

١. سورة الأنعام، آية ٩٠.
٢. سورة الشوري، آية ١٣.
٣. سورة آل عمران، آية ٩٥.
٤. رصافي، محمد، بعثت نامه (مجموعه مقالات)، قم: انتشارات صبح صادق، ط ١، ١٣٨٣، ص ٢٨٧.
٥. رصافي، محمد، بعثت نامه (مجموعه مقالات)، قم: انتشارات صبح صادق، ط ١، ١٣٨٣، ص ٢٨٨.

أفضل من جميع الأنبياء، واتباع الأفضل للمفضول غير منطقي من الناحية العقلية.

لو كان النبي ﷺ يتبع شريعة أحد الأنبياء السابقين، لكان قد ذُكر ذلك في كتب التاريخ، وكان أهل ذلك الدين يفتخرون بذلك، ولكن لا يوجد أي ذكر لذلك في التاريخ.

في حديث الإمام علي عليه السلام، الذي تربى في بيت النبي ﷺ، قال: "منذ أن فطم رسول الله ﷺ عن الحليب، كان الله قد رافقه أعظم ملائكة السماء ليهديه إلى مكارم الأخلاق".[1]

النبي ﷺ نفسه قال: "لقد كنت نبيًا قبل أن يُنفخ في آدم الروح".[2]

سيرته العملية قبل البعثة تؤكد أنه لم يكن يتبع أي دين من الأديان السابقة، بل كان يعكف على العبادة والطهارة في عزلة تامة عن الأديان الأخرى، ولم يُذكر قط أنه دخل معابد أو كنائس أو قام بأي عمل ديني تابع لأديان أخرى.

الرد على النظرية الأولى:

أما الآيات التي استُشهد بها في النظرية الأولى، فلا تعني أن النبي ﷺ كان يتبع شريعة الأنبياء السابقين في كل شيء، بل المقصود هو اتباعهم في المبادئ الأساسية مثل

١ . نهج البلاغة، خطبة ١٩٢، معروف به خطبة قاصعه.

٢ . المجلسي، محمد باقر، بحارالانوار، مؤسسة الوفاء (دار إحياء التراث العربي)، بيروت، لبنان، ط: ١٤٠٣ق.-١٩٨٣م. ج١٨، ص ٢٧٧.

التوحيد والمعاد والأخلاق الفاضلة. وكيف يمكن أن يطلب الله تعالى من النبي أن يتبع شريعة الأنبياء السابقين، بينما كانت هناك اختلافات كبيرة بين هذه الشرائع في التفاصيل الفقهية؟ وبالنسبة للحديث عن الرجوع إلى التوراة، فإن هذه الروايات غير ثابتة، بالإضافة إلى أن التوراة الأصلية قد فُقدت منذ فترة طويلة وكانت النسخ الموجودة حينها محرفة.[1]

الخلاصة:

النبي محمد صلى الله عليه وآله قبل البعثة لم يكن يتبع أي دين من الأديان السابقة، بل كان يتبع الطريق الذي علمه الله تعالى، وكان يسير على فطرة التوحيد وعبادة الله الواحد. ولهذا فإن الرأي السائد بين معظم العلماء هو أن النبي صلى الله عليه وآله كان يلتزم بما يلزم من التكليف الإلهي، وكان يسير على طريق التوحيد والأخلاق الحميدة التي تلقاها من الله تعالى مباشرة.

المصادر للمزيد من الدراسة:

عدة الأصول، للشيخ الطوسي.

سيرة النبي صلى الله عليه وآله، لابن كثير.

١ . بعثت نامه (مجموعه مقالات)، ص ٢٩٠.

٣) كيف كانت الدعوة السرية للنبي الأكرم ﷺ في بداية الإسلام؟

لقد قضى النبي محمد ﷺ ثلاث سنوات من الدعوة السرية (المخفية)، وفي هذه الفترة لم يكن يركز على الدعوة العامة للجماهير، بل كان يولي اهتمامًا خاصًا بتكوين الأفراد. كانت الظروف في تلك الفترة تتطلب أن لا ينكر النبي ﷺ الأصنام بشكل علني، بل كان يكتفي بتوجيه دعوته بشكل سري إلى مجموعة صغيرة من الناس. بهذه الطريقة، استطاع النبي ﷺ أن يجذب عددًا من الأشخاص إلى الإسلام. وكان من بين هؤلاء الأفراد:

علي بن أبي طالب عليه السلام

خديجة بنت خويلد عليها السلام

زيد بن حارثة

الزبير بن العوام

عبد الرحمن بن عوف

سعد بن أبي وقاص

طلحة بن عبيد الله

أبو عبيدة بن الجراح

أبو سلمة

أرقم بن أبي الأرقم

قدامة بن مظعون

عبدالله بن مظعون

عبيدة بن حارث

سعيد بن زيد

خباب بن ارت[1]

خلال هذه السنوات الثلاث، كان زعماء قريش مشغولين بالترف والتمتع بملذات الحياة، وكانوا على دراية نسبية بالدعوة السرية للنبي صلى الله عليه وآله، لكنهم لم يتخذوا أي موقف جدي أو قاسي تجاهها.

في هذه الفترة التي كانت مخصصة لبناء الأفراد، كان النبي صلى الله عليه وآله وبعض من أصحابه يذهبون إلى الوديان المحيطة بمكة لأداء الصلاة بعيدًا عن أعين قريش. وفي أحد الأيام، أثناء أدائهم الصلاة في أحد هذه الوديان، اعترض بعض من المشركين على أفعالهم وذموها، مما أدى إلى اشتباك طفيف بين بعض من أصحابه والمشركين، حيث أصيب أحد المشركين بواسطة سعد بن أبي وقاص.[2] بسبب هذا

١ . ابن هشام،عبدالملک، السيرة النبوية، ترجمه رسولي محلاتي، سيد هاشم، طهران: انتشارات اسلامية، ط ۴، ۱۳۶۸ش، ج۱، ص۱۵۷-۱۶۴.

٢ . ابن هشام، همان، ص۱۶۵؛ الطبري، محمد بن جرير تاريخ الامم و الملوک، تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم، قاهره، دارالمعارف، ط ۵، ۱۳۸۷ش، ج۲، ص۳۱۸.

الحادث، قرر النبي ﷺ أن يجعل منزل "أرقم" مكانًا للعبادة[1]، حيث كان يجتمع مع أصحابه في ذلك المكان ويقوم بتعليمهم العبادة والتوحيد بعيدًا عن أعين قريش. من بين الذين أسلموا في ذلك المنزل كان عمار بن ياسر وصهيب بن سنان.

بعد ثلاث سنوات من الدعوة السرية، نزلت الآية الكريمة: «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»[2]، والتي أمرت النبي ﷺ بأن يعلن دعوته علنًا ويخوف أقاربه من عذاب الله. عندئذ بدأ النبي ﷺ دعوته العلنية ووجه دعوته إلى أقاربه.

المصادر للمزيد من الدراسة:

فروغ الأبدية، آية الله جعفر سبحاني.

فروغ الولاية، آية الله جعفر سبحاني.

منتهى الآمال، الشيخ عباس قمي، الجزء الأول.

١ . الحلبي، علي بن برهان، السيرة الحلبية، بيروت، دار المعرفة، ج١، ص٤٥٦.
٢ . سورة الشعراء، آية ٢١٤.

٤) هل كان القرآن سينزل باللغة الفارسية أو الإنجليزية إذا كان النبي محمد ﷺ يتحدث إحدى هاتين اللغتين؟

إحدى النعم الكبرى التي منّ الله بها على الإنسان هي تعليمه "البيان"[١]، حيث من خلال "اللغة" يتمكن الإنسان من الوصول إلى أهدافه ومقاصده المتنوعة. ومن جانب آخر، خلق الله تعالى البشر من شعوب وأمم مختلفة لكي يتعرف بعضهم على بعض.[٢] كما أن الله سبحانه وتعالى أرسل لكل قوم نبيًا[٣] يتحدث بلغتهم، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾[٤]، مما يعني أن الله أرسل كل نبي بلغة قومه لكي يفهم الناس دعوته.

إذا كان النبي ﷺ يتحدث لغة غير اللغة العربية، لكان القرآن قد نزل بتلك اللغة. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا نزل القرآن باللغة العربية؟ هناك عدة أسباب تفسر ذلك:

مكان بعثة النبي ﷺ: كان النبي محمد ﷺ مبعوثًا في مكة، وهي أرض يتحدث سكانها باللغة العربية. لذلك كان من الطبيعي أن يُنزل القرآن باللغة العربية ليتمكن الناس من فهمه بسهولة. إذا نزل القرآن بلغة أخرى، لكان التواصل بين النبي وأتباعه أقل سهولة. ولم يكن اختيار اللغة العربية مجرد صدفة، بل هو مرتبط بالمصالح الإلهية وعلم الله الحكيم.

١. سورة الرحمن، آية ٤.
٢. سورة الحجرات، آية ١٣.
٣. سورة النحل، آية ٣٦.
٤. سورة ابراهيم، آية ٤.

لغة العرب الفصيحة: اللغة العربية هي واحدة من أكثر اللغات بلاغة وفصاحة، وتتميز بأسلوب غني وألفاظ قادرة على إيصال المعاني بأعلى درجات البلاغة. تحتوي اللغة العربية على لحون وأصوات تجعلها الأكثر ملاءمة للتعبير عن المفاهيم الدقيقة والمعقدة. ولذلك اختار الله تعالى هذه اللغة ليكون كتابه الكريم بأفضل لغة فصيحة، ولتكون التحديات التي وردت في القرآن من خلال هذه اللغة.

أسباب أخرى: بالإضافة إلى النقاط السابقة، هناك جوانب أخرى تجعل اللغة العربية هي الأنسب لنزول القرآن، فهي كانت لغة الحضارة العربية الغنية بالمعاني والمفردات القادرة على احتواء جميع معاني الوحي.

بناءً على هذه العوامل، نزل القرآن باللغة العربية، وكان هذا الاختيار بمثابة ضمان لاستمرارية رسالته عبر الأزمان. فاللغة العربية تمثل التعبير الأمثل عن رسالة الله الأخيرة للعالمين، مما يجعل دينه محفوظًا وخلودًا في وجه التحديات.

المصادر للمزيد من الدراسة:

تفسير نمونة، ناصر مكارم شيرازى، الجزء ١٠، الصفحة ٢٦٩.

القرآن في الإسلام، العلامة طباطبائي، الصفحة ٢٤.

تفسير الميزان، العلامة طباطبائي، الجزء ١٢ و١٥.

٥) هل كان دين النبي محمد ﷺ ناتجًا من تواصل مع الرهبان المسيحيين؟

النبي محمد ﷺ وُلد في مكة عام ٥٧٠ ميلادي، ومنذ صغره اشتهر بصدقه وأمانته وحسن خلقه، حتى أن جميع المصادر التاريخية أشادت بمزاياه الأخلاقية. وعندما بلغ سن الأربعين، اختاره الله تعالى للرسالة، وهو ما كان قد بشّر به الأنبياء السابقون في كتبهم السماوية. لكن بعض المستشرقين، الذين يعارضون الإسلام، حاولوا الادعاء أن النبي ﷺ تلقى تعاليمه من المسيحيين، وبالتحديد من الرهبان، إلى أن بدأ في سن الأربعين بالإعلان عن هذه المعارف تحت مسمى الوحي.

الرد على هذا الادعاء:

عدم وجود دليل تاريخي: لا توجد في أي كتاب موثوق أو غير موثوق من الكتب القديمة أي إشارة إلى أن النبي محمد ﷺ كان تابعًا للدين المسيحي أو اليهودي قبل البعثة.

دين النبي قبل البعثة: كان النبي محمد ﷺ يتبع دين الحنيفية، وهي شريعة إبراهيم عليه السلام. العديد من بني هاشم كانوا معروفين بالحنيفية في مكة، وكانوا يرفضون عبادة الأصنام. كما أن اسم والد النبي، عبد الله، يشير إلى توحيد الله في العائلة النبوية منذ فترة طويلة.

حديث النبي ﷺ: في حديث نبوي معروف، قال ﷺ: "أنا

على دين حنيف سهل، دين إبراهيم"[1]، مما يشير إلى إيمانه التام بدين التوحيد قبل أن يبدأ دعوته العلنية.[2]

مقولة المستشرقين: يقول أحد المستشرقين إن هدف النبي محمد ﷺ كان توحيد البشرية في المجتمع الإسلامي، وهذا يُعتبر جزءًا من الدين الذي أسسه بناءً على ديانة إبراهيم، التي كانت فطرية ووحدانية.[3]

مقارنة بين الإسلام والمسيحية: في المصادر المسيحية، وخاصة في إنجيل برنابا، هناك بشارة بقدوم النبي محمد ﷺ، مع وصفه بأنه ذو دين استوار وإلهي. ومن الواضح أن هذه المصادر تصف النبي بصفات واضحة، وتؤكد أن تعاليمه ليست مقتبسة من المسيحية أو اليهودية.[4]

مقابلة النبي ﷺ مع راهب مسيحي: يتعلق البعض بمقابلة قصيرة حدثت بين النبي ﷺ وراهب مسيحي يُسمى بحيرا عندما كان النبي في سن الثانية عشرة، حيث أخبر بحيرا عم النبي أبا طالب بأن محمدًا هو النبي المنتظر. لكن من غير المعقول أن يُستنتج من هذه اللقاءات القصيرة تعاليم الإسلام التي استمرت ٢٨ سنة بعد هذه الحادثة.

١. ابن سعد، طبقات الكبري، بيروت، دار بيروت للطباعه و النشر، سال ١۴٠۵ هـ، ج١، ص ١٩٢.
٢. آية: ٧٩ سورة الأنعام؛ ١٢٥ سورة النساء و....
٣. كونستان، ويرژل، گيورگيو، محمد پيغمبري كه از نو بايد شناخت، ترجمه ذبيح الله منصوري، طهران: اميركبير، ١٣۴٣، ص ۶٩.
۴. إنجيل برنابا، فصل ٩٧، ص ١٧.١٣.

رفض المستشرقين لهذه الفكرة: دحض العديد من العلماء والمفكرين هذه الادعاءات، مثل الدكتور زرغري نژاد، الذي أكد أن هذه الفكرة لا أساس لها، وأن هذه الروايات لا تعكس حقيقة أن النبي ﷺ كان يعتمد على تعاليم المسيحيين.

إيمان اليهود والمسيحيين برسالة النبي ﷺ: بعد أن رأى العديد من اليهود والمسيحيين التطابق بين نبوءات كتبهم المقدسة وظهور النبي محمد ﷺ، أسلموا واعتنقوا الدين الإسلامي.

النتيجة:

النبي محمد ﷺ كان موحدًا ومنتميًا إلى دين الحنيفية، كماكان أتباعه في مكة، ولم يكن مرتبطًا بتعاليم المسيحيين أو اليهود. اللقاءات مع الرهبان كانت بسيطة وعابرة، ولا يمكن استنتاج منها أن النبي ﷺ أخذ تعاليمه الدينية منهم. القرآن وُحي إلى النبي محمد ﷺ مباشرة من الله تعالى، كما أُعلن في كتب الأنبياء السابقين.

المصادر للمزيد من الدراسة:

حياة الحكمة وحكومة النبي، مجموعة من المحققين في مكتب الإعلام الإسلامي.

تاريخ النبي محمد ﷺ، الدكتور آيتي.

٦) ما هو تفسير قول النبي ﷺ: "آمنوا حتى يذل الآخرون أمامكم"؟

الدين الإسلامي، كأكمل وأحدث الأديان، أرسله الله تعالى من خلال النبي محمد ﷺ لإرشاد البشرية، بغض النظر عن العرق أو القومية. نظرًا لأن هذا الدين ظهر في شبه الجزيرة العربية وُبعث النبي من قوم العرب، فقد حاول بعض غير العرب في بداية الدعوة الإسلامية، ومع انتشار الإسلام إلى مناطق أخرى، أن يفرقوا بين العرب وغير العرب. كانوا يروجون للفكرة أن الإسلام يعتبر العرب أفضل من غيرهم، وهو ما لم يكن صحيحًا من جوهر الإسلام وتعاليمه.

دعوة النبي ﷺ في البداية:

في بداية الدعوة، قضى النبي ﷺ ثلاث سنوات في الدعوة السرية، حيث كانت الدعوة تتم بشكل تدريجي ومن فرد إلى فرد. وعندما حان الوقت، أمره الله تعالى بالعلانية وإعلان الدعوة، وكانت تلك اللحظة المهمة في يوم الدار، حيث جمع النبي ﷺ قريشًا ودعاهم للانتباه إلى رسالته. قال لهم في ذلك اليوم: "يا صباحاه" التي كانت نداءً مهمًا في القريش في ذلك الوقت، ثم سألهم إذا كانوا سيصدقونه إذا أخبرهم بوجود خطر محدق بهم.[١] ثم دعاهم بعد ذلك للابتعاد عن عبادة الأصنام وعبادة الله وحده، وذكرهم بتوحيد الله تعالى.

١ . ابن هشام، سيرة النبوية، بيروت، دار المعرفة، ج١، ص٣٥١.

الحديث عن ذل الآخرين أمام الإسلام:

بعد أن أتم النبي ﷺ دعوته في مكة، جاءته بعض العروض من زعماء قريش لمحاولة التوصل إلى تسوية تضمن لهم بعض المكاسب الدنيوية، لكن النبي ﷺ رفض هذه العروض التي كانت تطلب منه التنازل عن رسالته. في أحد الردود على هؤلاء الزعماء، قال ﷺ: "إنكم إذا تبعتم رسالتي، ودخلتم في دين الإسلام وقلتم لا إله إلا الله، فإنكم ستكونون قادرين على حكم العرب وتوجيه غير العرب نحو الإسلام، وستصبحون ملوكا في الجنة."[1]

من هذه الجملة، يُفهم أن النبي ﷺ لم يكن يتحدث عن تذلل غير العرب، بل كان يشير إلى أن قبول الدعوة الإسلامية سيؤدي إلى وحدة الأمة العربية والإسلامية وسيجعل غير العرب يتبعون هذه الدعوة. هناك حديث آخر يذكر: "تملكون العرب وتدعون العجم إلى الإسلام ويصبحون تابعين لكم في الدين. " هذا يعني أن الإسلام كان يهدف إلى نشر الحق وإقامة العدالة في جميع أنحاء العالم، وأن الدعوة الإسلامية كانت شاملة للجميع دون تمييز بين الأعراق أو القوميات.

الاختلاف بين "تذل" و "تدين":

قد ورد في بعض النسخ وجود كلمة "تذل" بدلاً من

١ . سبحاني، جعفر، فروغ ابديت، قم: دفتر تبليغات اسلامي، ١٣٧٣ش ج١، ص٢٦٩-٢٧٠ «يعطوني كلمه يملكون بها العرب وتدين لهم بها غير العرب».

"تدين"، وهو ما لا يتماشى مع سيرة النبي ﷺ. هذا التغيير في الكلمة قد يعود إلى خطأ في النسخ أو الترجمة، حيث أن كلمتي "تذل" و "تدين" تشبهان بعضهما في الكتابة. لكن المعنى الصحيح هو "تدين لكم العجم"، أي أن غير العرب سيتبعونكم ويعتنقون دينكم. هذا التفسير يتماشى مع القيم والمبادئ التي دعا إليها النبي ﷺ، ويؤكد على وحدة الإنسانية في ظل الإسلام.

الخلاصة:

النبي ﷺ لم يقصد قط إهانة أو إذلال غير العرب، بل كان يدعو إلى توحيد البشرية تحت راية الإسلام. دعوته كانت تهدف إلى أن جميع الناس، بغض النظر عن عرقهم أو أصلهم، يصبحون جزءًا من مجتمع عالمي متوحد في عبادتهم لله وفي اتباع تعاليم الإسلام.

المصادر للمزيد من الدراسة:

سيرة صحيحة للنبي ﷺ، سيد جعفر مرتضى، ترجمة سپهری.

سيرة رسول الله، رسول جعفريان.

٧) بناءً على أنه قبل بعثة نبي الإسلام ﷺ كانت نبوة النبي عيسى عليه السلام قد أقرّت من قبل الله تعالى، فكيف يكون الحال أن النبي الأكرم كان حتى سن الأربعين عامًا موحدًا ومؤمنًا بالله ولم يتبع الديانة المسيحية؟

قبل التطرق إلى الحديث عن دين النبي، من الأفضل أن نعرض قليلًا من خصائصه الأخلاقية والسلوكية قبل البعثة، فهي أفضل شهادة على نوع المذهب الذي نشأ فيه النبي. إذ أن سلوك أي فرد له جذور في معتقداته. كان النبي في غار حراء يتأمل ويعبد الله. وكان يطوف حول بيت الله الحرام. وكان يكره عبادة الأصنام بشدة. لم يكن يشرب الخمر. لم يكن يقامر، وكان بعيدًا عن مجالس اللهو واللعب التي كان يقيمها قريش. لم يشارك في الخصومات والحروب القبلية. وكان دائمًا يساند الناس في الأعمال ذات النفع العام. وكانت روح الصدق والطهارة في سلوكه لدرجة أنه عُرف بلقب "الأمين". هذه السلوكيات وغيرها الكثير التي لا يسع المقام لذكرها جميعًا، تدل على أن النبي كان يتبع مذهبًا خاصًا. ونظرًا لأن النبي قبل البعثة كان يتهيأ في خلوته للقبول برسالة عظيمة من الله، فقد ظل هذا المذهب محاطًا بهالة من الغموض. وقد أدى هذا الغموض إلى تعدد الآراء حول دين النبي. ففي مقابل من قال مثل الشيخ الطوسي[١] والعلامة المجلسي[٢] بأن النبي

١ . الطوسي، محمد، العده في اصول الفقه، تحقيق: محمد رضا انصاري قمي، قم: چ ستاره، ١٣٧٦، ١، ج٢، ص٥٩٠.

٢ . المجلسي، محمد باقر، بحار الانوار، بيروت، انتشارات دار احياء التراث العربي، ج١٨، ص٢٧٧.

قد استفاد من شريعته الخاصة، قال آخرون إن النبي كان يتبع إحدى الشرائع التي كانت قبله. وفي المقابل، اختار البعض مثل السيد المرتضى[1] نظرية "التوقف"، والتي تعني أننا لا نعلم إن كان النبي قد آمن بشريعة من الشرائع السابقة أم لا.

لكن مع الأدلة والشواهد التي ستُعرض لاحقًا، يتضح أن النبي كان منذ بداية حياته على دراية ما بأساسيات دين الإسلام التي كانت تُوحي إليه من قبل الله تعالى. وكان هذا العلم الكافي يجعله غير محتاج للاعتماد على الشرائع السابقة. ففي تفسيره للآية الثانية والخمسين من سورة الشورى «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان»، يقول العلامة الطباطبائي: «فمعنى الآية أن النبي قبل الوحي لم يكن لديه علم بالكتاب والمعارف والشرائع التي فيه، ولم يكن متصفًا بهذا الإيمان الذي حصل عليه بعد الوحي، ولم يكن ملتزمًا بتفاصيل وأحكام العقائد والعبادات الدينية. وبناءً عليه، لا يتناقض هذا مع حقيقة أنه كان قبل البعثة مؤمنًا بالله وأن أعماله كانت صالحة، لأن ما تم نفيه في هذه الآية هو العلم بالتفاصيل الدقيقة للمعارف التي في الكتاب، والالتزام الاعتقادي والعملي بتلك المعارف، ومن الواضح أن نفي العلم والالتزام التفصيلي لا يتعارض مع نفي الالتزام العام بالإيمان بالله والخضوع للحق».[2] دليلنا على هذا الأمر أن النبي

١ . سيد مرتضي، الذريعه الي اصول الشيعه، قسمت ٢، تصحيح ابوالقاسم كرجي، انتشارات دانشكاه طهران: ١٣٤٨ش.، ص ٥٩٥.٥٩٦.

٢ . طباطبايي، محمد حسين، ترجمه تفسير الميزان، ترجمه: سيد محمد باقر موسوي همداني، نشر بنياد علمي فرهنكي العلامة طباطبايي، ج١٨، ص١٢١.١٢٢.

قبل البعثة كان، من خلال هداية الله ورعايته الخاصة، قد حصل على معرفة إجمالية ودقيقة بما يخص دين الإسلام، وهذا العلم كان يفي بجميع احتياجاته ولا يحتاجه للرجوع إلى الشرائع السابقة.

رعاية الله للنبي صلى الله عليه وآله منذ الطفولة:

لقد كان النبي منذ طفولته تحت رعاية الله الخاصة. فقد كان الله يرسل إليه الملائكة لتوجهه إلى الطريق القويم وتغرس فيه الفضائل. يقول الإمام علي عليه السلام في شأن رسول الله صلى الله عليه وآله: «حين فطم من الرضاعة، جعل الله أكبر ملائكته يرافقه ليلاً ونهارًا، ليُهديه إلى معالي الأمور ويزوده بالأخلاق الفاضلة». إذن، كانت عقائد النبي وسلوكياته منذ الطفولة تحت إشراف الله المباشر.[1] ومن خلال هذه العلاقة الوثيقة، زوده الله بالمعارف والعلوم اللازمة وأغناه عن الرجوع إلى غيره.

أمية النبي صلى الله عليه وآله:

كان النبي صلى الله عليه وآله أميًا، بمعنى أنه لا يعرف القراءة والكتابة. وكانت أمية النبي صلى الله عليه وآله مانعًا له من اكتساب أحكام ومعارف الشرائع الأخرى من كتبها. ما كان يحتاجه من علم ومعرفة، كان الله تعالى هو الذي يُعلِمه إياه. كما يقول ابن خلدون:

١ . نهج البلاغة، خطبة ١٩٢، ترجمه: دكتر سيد جعفر شهيدي، انتشارات و آموزش انقلاب اسلامي، چ ٣، ١٣٧١، ص ٢٢٢.

«كان النبي أميًا. وكانت أمّيته كمالًا له، لأنه تلقى علمه من العلاء، بينما كانت أمّيتنا نقصًا لأننا نجهل».[1] لم يكن النبي قادرًا على اكتساب علوم الشرائع السابقة عن طريق الدراسة أو عن طريق مجالسة أتباع الأديان الأخرى. لا يوجد أي دليل تاريخي يثبت أن النبي قد استفاد من مجالسة أتباع الأديان الأخرى أو تعلم منهم. وعندما سجل التاريخ أبسط الحوادث، مثل تلك التي وقعت أثناء سفر النبي مع أبي طالب إلى الشام، حيث مرّ في بلدة بصري والتقى هناك مع راهب مسيحي يُدعى بحيرى، فقد جذبت هذه الحادثة انتباه المؤرخين. ومع ذلك، إذا كان النبي قد تعلم من معايشة أتباع الأديان الأخرى، لكان ذلك قد تم توثيقه في التاريخ.

عدم اعتراض أتباع الأديان بشأن ظهور دين الإسلام:

لم يُعترض أي من أتباع الأديان على النبي بعد بعثته قائلين: لماذا قد ابتعدت عن ديننا رغم أنك كنت تتبع شريعتنا، والآن قد جئت بدين جديد؟ وهذا الأمر يُعد دليلاً على أن النبي كان يتبع مذهبًا خاصًا به. نلاحظ أنه بعد تغيير قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة، اعترض اليهود على هذا التغيير قائلين: لماذا غيرتم قبلتكم؟ فإذا كان النبي قد اتبع إحدى الشرائع السابقة قبل بعثته، فبالطبع بعد بعثته وإتيانه بالدين الجديد، كان سيُسأل عن سبب

١ . مقدمه ابن خلدون، چ ابراهيم حلمي، ص ٤٩٥.

تحوله عن الدين الذي كان يتبعه سابقًا، وعن كيفية إحداث دين جديد بنفسه.

تحريف الشرائع في زمن النبي ﷺ:

كانت الشرائع والأديان في زمن النبي قد تعرضت للتحريف والبدع بشكل واسع، حتى أن هذه الأديان لم تعد تطابق ما أتى به أصحابها من عند الله. في هذا السياق، يقول "جان ديون بورت": «في زمن ظهور محمد، كان الناس قد انحرفوا عن اتباع العقائد الدينية الصحيحة، وغطتهم جدالات لا نهاية لها، وكانوا مشغولين في مسائل من الدرجة الثانية في الأهمية، وكان أهل جزيرة العرب محرومين من فهم الفلسفة الأساسية للأديان، وهي عبادة الله الخالصة، بينما كانوا، كما كان الحال مع باقي المشركين في وقتهم، يغرقون في بحر من الخرافات والأوهام».[1] ومن غير اللائق أن يتبع النبي دينًا قد تعرض للتحريف. ولأن الإسلام كان سيكشف لاحقًا حقيقة تلك الأديان ويجعلها واضحة للجميع، لم يكن النبي ﷺ مكلفًا في البداية بإظهار الحقيقة عنها. بعد بعثته، أرسل الله النبي ليبيّن في القرآن الكريم التاريخ الحقيقي للأنبياء ويخلصهم من التحريف والأساطير.

١ . جان ديون پورت، عذر تقصير به پيشگاه محمد و قرآن، ترجمه سيد غلامرضا سعيدي، انتشارات دار التبليغ، ص ٤-٥.

عدم وجود بيئة اجتماعية ملائمة:

من زاوية اجتماعية أيضًا، إذا نظرنا إلى قضية تبعية النبي لدين معين، نجد أن البيئة الاجتماعية لم تكن ملائمة لذلك. إذا نظرنا بشكل عام إلى أوضاع أتباع الأديان والمشركين في جزيرة العرب، يتضح أن الوضع كان ينعكس بشكل جلي. «كانت الأوضاع السياسية في البلاد (جزيرة العرب) مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالعقائد الدينية التي كانت سائدة. حيث كانت المسيحية تهيمن في المناطق التي كانت تحت نفوذ الرومان والحبشة، وكانت عقائد الزرادشتية وتعاليم المانوية التي تقوم على الثنائية تؤثر في إيران. أما في المناطق الأخرى فكانت عبادة الأوثان هي السائدة... وبسبب ذلك، فرّ اليهود إلى جزيرة العرب هربًا من ظلم الرومان، وكذلك المسيحيون هاجروا إلى هذه البلاد هربًا من اضطهاد النسطوريين الذين كانوا يدعمون الكنيسة اليونانية».[1] تُظهر هذه الأوضاع أن المجتمع العربي كان يعاني من تشتت في الأفكار والعقائد، مما جعل الناس في حاجة ماسة إلى الخلاص من هذا التشتت الفكري. وإذا كان النبي صلى الله عليه وآله قد تبنى دينًا معينًا في تلك الظروف، لكان قد أثر سلبًا في قبول الإسلام من قبل مختلف الفئات والفرق.

١ . جان ديون پورت، عذر تقصير به پيشگاه محمد و قرآن، ترجمه سيد غلامرضا سعيدي، انتشارات دار التبليغ، ص ٤٠٥.

خلاصة القول:

كان النبي ﷺ قبل رسالته على معرفة إجمالية ودقيقة بما يخص دين الإسلام. ولم تكن الظروف التربوية أو الوضع الاجتماعي في جزيرة العرب تسمح له باتباع دين آخر. فقد كان الله يرسل إليه الملائكة ليعلموه أفضل السبل وأشرف الأخلاق. وبسبب أمية النبي وقلبه الطاهر، كان أولًا مؤهلًا لقبول الوحي الإلهي، وثانيًا كان ذلك يحول دون أن يُتهم بأنه قد نقل معارف القرآن من كتب الآخرين. وبما أن النبي اتبع دينه الخاص، لم يكن أتباع الأديان الأخرى قادرين على اتهامه بتغيير دينه في وقت لاحق. كذلك، من خلال عدم تبعيته لشرائع أخرى، لم يخلّ بالتوازن القائم بين الأديان والمجموعات المختلفة في جزيرة العرب، بل مهد الطريق لقبول الإسلام بسهولة من جميع الأطراف. وفي النهاية، كيف يمكن التوقع أن يتبع النبي الذي كان لاحقًا سيحمل رسالة أكمل الأديان، أديانًا أو شرائع محرفة في عصره؟

المصادر للمزيد من الدراسة:

خاتم النبيين، محمد أبو زهرة، ترجمة حسين صابري، الجزء الأول.

فروغ الأبدية، جعفر سبحاني، الجزء الأول.

٨) لماذا لم يختار الله نبيَّنا الكريم -صلى الله عليه وآله- من بين رجال الفرس، مع العلم بأن العلم في إيران كان قد تطور بشكل كبير، وكان من شأن ذلك أن يسهل مهمة النبي صلى الله عليه وآله ؟

لقد خلق الله الإنسان من أجل الوصول إلى الكمال والسعادة، وفي سبيل بلوغ هذا الكمال، لابد له من معرفة المصدر الحقيقي للسعادة والكمال، فضلاً عن معرفة الأعمال الصالحة والسيئة. ومن هنا، ورغم أن المعرفة الحسية والعقلية ضرورية للإنسان، إلا أن هذه المعرفة تبقى محدودة وناقصة، وبالتالي فهي غير كافية لتحقيق الهدف المنشود. بناءً على هذا، تقتضي حكمة الله تعالى أن يبعث رسلًا لتهدِي البشر إلى السعادة الحقيقية والكمال الإلهي، وهذا يُظهر ضرورة إرسال الأنبياء من قبل الله.[١]

أما في الإجابة عن السؤال المطروح، فنقول: إن النبوة والرسالة مقام رفيع ومرتفع. من يتولى مسؤولية الرسالة يجب أن يكون مؤهلاً وقادرًا على تحمل هذه المسؤولية الكبيرة. يجب أن يكون روح النبي وضميره طاهرًا من كل الشوائب المادية والأهواء النفسية، وأن يكون صبورًا في مواجهة المصاعب التي يلاقيها في طريق الرسالة، بعيدًا عن الخطأ والزلل في مسيرته. كما يجب أن تكون قدرته الروحية

١ . مصباح يزدي، محمد تقي، آموزش عقايد، دوره ٣ جلدي، ص١٧٧ . ١٨٧، طخانه سپهر، ط ٥.

والمعنوية في مستوى يسمح له بتلقي معارف الوحي من عالم القداسة والروحانية، أي أن يكون قادرًا على تحمل ذلك الوحي العظيم.[1]

إن المسؤولية التي تتطلب هذا القدر الكبير من الرفعة والقدرة الروحية تتعلق بمصير الإنسان وسعادته أو شقاوته الأبدية، وبالتالي فإن اختيار من يحمل هذه المسؤولية هو من اختصاص الله عز وجل، الذي هو أعلم بكل شيء، ويعلم تمامًا أي عباده يصلح لهذا المقام الرفيع. الله سبحانه وتعالى حكيم، يأخذ في اعتباره جميع الظروف والمصالح، وبحكمته وعلمه الكامل يختار أي عباده يستحق هذه المهمة، وهو العادل الذي يختار الأنسب والأصلح لها.[2]

ومع وضوح هذه المسألة عقليًا وفطريًا، يصبح من غير المناسب أن يعترض الإنسان على حكمة الله في هذا الشأن، أو أن يتدخل في الأمور التي تتعلق بإدارة العالم وهدى عباده. فالعقل البشري محدود وناقص، وقد اعترف الإنسان بذلك. كيف يمكن للإنسان الذي لا يستطيع أن يعرف السعادة الحقيقية بمفرده، والذي يحتاج إلى الوحي لكي يهتدي، أن

١ . شهيد مطهري، مجموعه آثار، ج٢، ص١٥٦، انتشارات صدرا؛ تفسير نمونة، ج٢١، ص٤٩، ناصر مكارم شيرازي، دارالكتب الاسلامية، ط ١٣٧٤ش؛ نرم افزار جامع التفاسير، نور.

٢ . مجموعه آثار، همان؛ بدآية المعارف، ج٢، خالرازي، سيد محسن ص٢٢٥. ٢٢٣، موسسة نشر اسلامي، ط نهم؛ سايت كانون گفتمان قرآني، عقايد، راهنما شناسي، خصوصيات الأنبياء و جانشينانشان به نشاني:.www askyuran.ir.

يحدد ويختار من يستحق هذه المسؤولية؟ لذلك، لا ينبغي للإنسان التدخل في هذه الأمور التي هي من خصائص مقام الربوبية والإلهية.

من هنا، يتضح أنه لا يمكن الاعتماد على المعايير البشرية والمادية في اختيار النبي. حتى إذا كان العلم قد تطور في منطقة معينة، فلا يمكن القول بأن ذلك يجب أن يكون سببًا لاختيار النبي من بين سكان تلك المنطقة. خلاصة القول هي أن النبي هو رسول الله، وتحديده واختياره بيد الله سبحانه وتعالى، ولا يجوز للإنسان التدخل في هذا الشأن.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الادعاء بأن إيران كانت متفوقة علميًا في تلك الحقبة وأن العرب لم يكونوا قد حققوا تقدمًا علميًا يعد ادعاءً بحاجة إلى تدقيق تاريخي. وإذا كان التقدم المادي هو المعيار لاختيار النبي، فإن الروم كانوا في ذلك الوقت أكثر تقدمًا من إيران، مما كان يجب أن يجعل النبي يظهر من بينهم.

وفيما يتعلق بتوضيح هذه المسألة، نستشهد بآيتين من القرآن الكريم، حيث أن ما ذكر فيهما كان قولًا من المشركين في زمن النبي ﷺ الذين كانوا في موقف من العناد والتعصب القومي، وكانوا يتوقعون أن تنزل الوحي على كبارهم، قائلين إنه إذا كان النبي أمرًا عظيمًا حقًا، فإن الوحي يجب أن ينزل على رؤسائهم. ومن هنا نستعرض الآيتين التاليتين:

المثال الأول: قوله تعالى في الآية ١٢٤ من سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ * سَيُصِيبُ الَّذِينَ جَرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾. كما يظهر من ترجمة الآية، كان المشركون يتوقعون أن يأتي الوحي على كبارهم، فيرد الله عليهم بأن علمه أتم وأشمل في تحديد من يستحق هذه المهمة.[١]

المثال الثاني: قوله تعالى في الآية ٣٢ من سورة الزخرف: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، في هذه الآية، يتساءل المشركون عن سبب نزول القرآن على رجل من قريش بدلًا من أن ينزل على أحد من كبارهم، ظنًا منهم أن المال والجاه هما مقياس القرب إلى الله. ولكن الله سبحانه وتعالى يرد عليهم بأن رزقهم ونعمه موزعة بحكمة بين الناس، ولا يجوز لهم التدخل في توزيع رحمة الله أو اختيار نبيه.[٢]

إذن، يتضح من هذه الآيات أن اختيار النبي هو أمر بيد الله وحده، وهو الذي يعلم الحكمة والمصلحة في ذلك، ومن لا يمكنه فهم حكمة الله يجب عليه أن يتقبل اختيار الله دون اعتراض.

١ .مكارم شيرازي، تفسير نمونة، ج٥، ص٤٣٠-٤٣٣.

٢ . تفسير الميزان، ترجمه موسوي همداني، سيد محمد باقر، قم: دفتر انتشارات اسلامي جامعه مدرسين حوزة علمية قم: ج١٨، ص١٤٨-١٤٥؛ مكارم شيرازي، ناصر، تفسير نمونة، ج٢١، ص٤٨-٥١.

وختامًا، إذا كان الاختيار بيد الله، فهو أدرى من غيره بمن يستحق هذا المقام الرفيع، ولذلك فإن دراستنا لسيرة النبي صلى الله عليه وآله وحياته قد تعطي لمحة عن الكفاءة العالية التي كانت تتسم بها شخصيته المباركة.[1] كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: "عائلته أطيب العوائل، وجذعه أطيب جذوع الشجر، فروعه مستقيمة وأغصانه خاضعة قريبة من الجميع".[2] أو كما قال في موضع آخر: "حتى بعث الله محمدًا صلى الله عليه وآله، كان الأفضل والأطهر وأشرف البشر في شبابه وكهولته، أخلاقه كانت أسمى من الجميع، وكرمه كان أوسع من كل شيء".[3]

وفي الختام، من خلال العقل والنقل، نعلم أن الأنبياء بعثوا لجميع الأمم، ولم يكن هناك شعب مستثنى من هديهم، وكانت رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله قد انتشرت في فترة قصيرة إلى معظم أنحاء العالم، مما يدل على أن استعدادات البشر كانت في خدمة الأديان الإلهية.

١ . شهيد مطهري، مجموعه آثار (سيري در سيرة نبوي)، طهران: انتشارات صدرا، ج١٦.

٢ . نهج البلاغة، ترجمه دشتي، محمد، نشر دفتر تبليغات اسلامي، انتشارات پارسايان، ط هفت، ص٣٠٣، خطبة ١٦٨.

٣ . نهج البلاغة، ترجمه دشتي، محمد، نشر دفتر تبليغات اسلامي، انتشارات پارسايان، ط هفت، ص١٦٣، خطبة ١٠٥.

٩) لماذا لا يوجد حق الخروج من الدين في الإسلام، رغم أن الله تعالى قد منح الإنسان حرية الاختيار في الآية الكريمة "لا إكراه في الدين"؟

إن مسألة علاقة الردة بحرية المعتقد كانت ولا تزال محل اهتمام العديد من المفكرين في مجال الكلام الإسلامي، وقد ازدادت أهمية هذه القضية في العصر الحديث مع تطور مفاهيم مثل حقوق الإنسان. الموضوع يمكن مناقشته من عدة جوانب، بما في ذلك السبب وراء عدم جواز الخروج من الدين، والعلاقة بين حكم الردة وحرية العقيدة، وأخيرًا العقوبة التي وضعها الشرع تجاه المرتد.

في هذه الإجابة المختصرة، سنحاول تقديم توضيحات للأفكار التي طرحت.

أ. توضيح السؤال

كما ذكرنا، فإن السؤال المطروح هو من الأسئلة التي شغلت الأذهان في السنوات الأخيرة، وقد تمت مناقشته في وسائل الإعلام بشكل مختلف. على سبيل المثال، كتبت مجلة "كيان" في أحد أعدادها: «إذا كان الإنسان حرًا في اختيار دينه ولا يجوز الإكراه في ذلك، فكيف يمكن إكراهه على الاستمرار في الدين؟»[١]، بمعنى آخر، يعتقد البعض أن حرية العقيدة تشمل عدة أنواع من الحرية:

١. كيان، شماره ٤٩، ص ١٤.

الحرية في رفض أي عقيدة.
الحرية في قبول أي عقيدة.
الحرية في تغيير العقيدة.

أي تقييد في أي من هذه الحريات الثلاث يجعل حرية العقيدة مهددة. وبهذا فإن السؤال يبرز حول كيف يمكن للإسلام أن يدعم ويؤيد حرية العقيدة بشكل كامل في حين أن الدخول إلى الإسلام مسموح، ولكن الخروج منه ممنوع ويعاقب عليه تحت مسمى "الردة".

ب. تحريم الخروج من الدين ليس خاصًا بالإسلام

إن الردة هي قضية موجودة في الأديان المختلفة، وقد اعتبرها العديد من علماء القانون جريمة في جميع الأديان.[1] ففي العصر الساساني، كان الزرادشتيون يفرضون عقوبات على الردة، كما يذكر الشاعر فردوسي: «من يترك الدين يجب أن يُعاقب، وإذا لم يعد إلى الطريق بعد عام، يُقتَل».

وفي الديانة المسيحية أيضًا، هناك نصوص تتحدث عن قتل من يترك الدين.[2] بناءً على هذه الأدلة من الأديان المختلفة، يمكن اعتبار عقوبة الردة مادة مشتركة في قوانين جميع الأديان.[3]

١ . جعفري لنكرودي، محمد جعفر، مبسوط در ترمينولوژي حقوق، ج١، ص ٢٥٦.
٢ . كتاب المقدس، سفر التثنيه، فصل ١٧، آية ٢٥؛ فصل ١٣، آية ٦١٦، رساله پولس، باب ٦.
٣ . هيكل، محمد حسين، الحكومه الاسلامية، ص ١٢٢.

يجب أن نلاحظ أن آية "لا إكراه في الدين" تتعلق بقبول الدين وليس بالخروج منه. تشير هذه الآية إلى حقيقة إنسانية مفادها أن اعتناق أي عقيدة لا يمكن أن يكون بالقهر، لأنه يتعلق بالأمور القلبية التي لا يمكن أن تفرض بالقوة. لذلك، كما أشار السؤال، الآية تتعلق بقبول الدين ولا تتعلق بالخروج منه. ولكن يبقى السؤال حول الحكمة من وضع قيود على الخروج من الدين.

ج. الحكمة من منع الخروج من الدين وفرض العقوبة على المرتد

من المهم أن نعلم أن معرفتنا بحكم الله في بعض الأمور قد تكون ناقصة، وما يُسمى بالسبب في بعض الأحيان يكون مجرد حكمة تشريعية، ولا يجب اعتبارها سببًا حتميًا. الآن، دعونا نعرض بعض الحكم التي قدمها بعض المفكرين حول منع الخروج من الدين.

الآثار والتبعات السياسية:

في جميع الأنظمة السياسية، يُعتبر القيام بمحاولة لتغيير النظام جريمة. وبما أن النظام السياسي في الإسلام يعتمد على الدين كمصدر أساسي له، فإن الردة تُعتبر محاولة لتغيير النظام. في الواقع، يتفق جميع الأنظمة القانونية، بما فيها الشريعة الإسلامية، على أن أي محاولة لتغيير النظام هي جريمة قابلة للمحاكمة والعقاب. الفرق بين الإسلام والقوانين الحديثة في هذا الشأن هو التحليل الفقهي للردة،

التي يُعتبر في الفقه الإسلامي أنها بمثابة محاولة لإسقاط النظام.[1]

الآثار والتبعات الاجتماعية:

الـردة تعتبر انـتـهـاكًا لحقوق الآخـريـن لأنـهـا تـلـوث بيئة الإيـمـان الـطـاهـرة وتـعـرض المجتمع للخطر. لأن الإيـمـان والعقيدة لهما دور أساسي في سلوك الإنسان وأخلاقه، فإن المرتد لا يُفسد نفسه فقط، بل يعرض الآخرين أيضًا للضياع الفكري والأخلاقي. لذلك، حساسيتنا في الإسلام تجاه الردة نابعة من حماية هوية المجتمع الإسلامي، لأنها تعني التزامًا بنظام معين وقبولًا بهوية اجتماعية خاصة.

الآثار والتبعات الفردية:

بما أن الإسلام هو الدين الحق والديانة الوحيدة المقبولة عند الله، فإن الخروج منه لا يؤدي إلا إلى الانحطاط والشقاء في الدنيا والآخـرة. مـن هنا، منع الإسـلام الـردة، لأنـه يعتبر ذلـك انحطاطًا للفرد وفـسـادًا لـه. هـل مـن المقبول تحت مسمى حرية العقيدة أن يسمح للفرد بالانزلاق إلى الفساد والانحراف؟[2]

١ . مطهري، مرتضي، يادداشت‌هاي استاد مطهري، ج٢، ص ٣١٦.
٢ . فضل الله، سيد محمد حسين، آزادي و دموكراسي، مجلة علوم سياسي، ١٣٧٧، ص ١١٤.

الخاتمة:

جميع الأديان تُولي اهتمامًا خاصًا بمسألة الخروج من الدين، وتعتبره أمرًا خطيرًا يجب تحريمه، حيث أن الشخص الذي يترك دينًا يعلن بشكل غير مباشر عن عدم صلاحية ذلك الدين ويشكك في قدرته على منح السعادة البشرية. وهذا يشبه إلى حد كبير القوانين العسكرية، التي تُعتبر الهروب من ساحة المعركة جريمة، حتى لو لم يكن هناك إجبار على المشاركة. لذلك، لا يمكن لأحد أن يخرج بحرية من المعتقدات التي التزم بها بعد أن أصبح جزءًا من المجتمع.

من هنا، يُعتبر التمسك بالدين في الإسلام أساسًا للهوية الاجتماعية والروابط الأسرية والسياسية. لا يمكن مقارنة تغيير الدين بتغيير الجنسية أو غيرها من الأمور المادية. لأن التغيير في الدين يؤثر بشكل عميق في جميع جوانب الحياة الروحية والفكرية والاجتماعية والسياسية للفرد.

المصادر للمزيد من الدراسة:

"مجلة كلام إسلامي"، العدد ٤١، مقال عن الردة، حرية الفكر وحرية التعبير.

١٠) إذا كان الإسلام هو الدين الكامل، وكان النبي محمد ﷺ آخر الأنبياء، فلماذا لم يتحقق ظهور النبي في العصر الحاضر ليتمكن جميع الناس من تلقي رسالته بسهولة؟

يتضمن هذا السؤال ثلاثة جوانب رئيسية، وكل منها يتم الإجابة عليه بشكل منفصل:

هل الإسلام هو الدين الكامل؟

هل محمد ﷺ هو آخر الأنبياء؟

لماذا لم يبعث النبي محمد في هذا العصر ليتمكن الجميع من تلقي رسالته بسهولة؟

أ. الإجابة على السؤال الأول: هل الإسلام هو الدين الكامل؟

أوضح من أي كلام، هو كلام الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم حيث قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.[١]

هذه الآية تدل بشكل قاطع على أن الإسلام هو الدين الكامل، ولا فرق في ذلك بين من يرى الكمال في الشريعة كما يقول أهل السنة، أو في ولاية الإمام كما يرى الشيعة، فالمؤكد أن الإسلام دين كامل وفقًا لهذه الآية. وفي آية أخرى

١ . سورة المائدة، آية ٣.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[1].

وبناءً على ذلك، ما يوجه إليه الإسلام هو أسمى وأكمل من جميع البرامج التي قدمتها الأديان السماوية الأخرى للبشرية. كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[2]. هذه الآية توضح أن الإسلام سيغلب على جميع الأديان الأخرى، مما يجعل من الإسلام الدين الكامل الذي لا شك فيه.[3]

ب. الإجابة على السؤال الثاني: هل محمد ﷺ هو آخر الأنبياء؟

مسألة خاتمية النبي محمد ﷺ هي جزء من ضروريات الدين الإسلامي، أي أن كل من يؤمن بالإسلام يجب أن يقبل بمسألة خاتم النبيين. القرآن الكريم يوضح ذلك بجلاء في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[4]. هذه الآية هي أصرح بيان حول مسألة خاتمية النبي محمد ﷺ وهي تُثبت أن النبي محمد هو آخر الأنبياء. ومن لا يقر بهذا فإيمانه بالقرآن

١. سورة المائدة، آية ٤٨ ؛ طباطبايي، سيد محمد حسين، تفسير الميزان، بيروت، نشر المؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٣ق، ج١٣، ص ٤٧.
٢. سورة التوبة، آية ٣٣.
٣. مصباح يزدي، محمد تقي، اصول عقايد، (راهنماشناسي)، قم: نشر مركز مديريت حوزة علمية، ط١، ١٣٦٧ش، ج٢.
٤. سورة الأحزاب، آية ٤٠.

نفسه مشكوك فيه، إذ أن من يعتقد في القرآن ككلام الله لا يمكنه أن ينكر خاتمية النبي محمد. وقد وردت العديد من الروايات المتواترة من مختلف المذاهب تؤكد خاتم النبوة.[1]

ج. الإجابة على السؤال الثالث: لماذا لم يُبعث النبي محمد في العصر الحاضر ليتلقى الجميع رسالته بسهولة؟

أولاً، من غير الممكن استنتاج أن الإسلام أو خاتمية النبي محمد ﷺ لا تكون صحيحة بسبب عدم ظهور النبي في العصر الحالي. إذا تم قبول هذا الاستدلال، فقد يُطرح في المستقبل أيضًا أنه يجب ظهور نبي آخر في العصور القادمة، وهذا تسلسل لا نهاية له. ثانيًا، الإسلام لا يزال حيًا ونابضًا بنفس القوة التي كانت عليه قبل أربعة عشر قرنًا، ولن يتغير أو يضعف أبدًا. حكمة بقاء الإسلام وتجدده تكمن في أن تعاليمه ليست مؤقتة أو مرتبطة بزمن أو مكان معين، بل هي شاملة وعالمية.

على سبيل المثال، دعوة النبي محمد ﷺ كانت دعوة توحيدية، وهي لا تزال صالحة ضد جميع أشكال الشرك في أي زمان ومكان، سواء في الجاهلية القديمة أو في العصور الحديثة. وكذلك، جميع تعاليم الإسلام المتعلقة بالمعاد، والتفكير، والعمل الصالح، تبقى صالحة إلى الأبد وتستمر في جذب العقول والقلوب. كما أن الإسلام يتوجه إلى الفطرة

١ . مصباح يزدي، محمد تقي، اصول عقايد، (راهنماشناسي)، قم: نشر مركز مديريت حوزة علمية، ط١، ١٣٦٧ش، ج٢.

الإنسانية التي لا تتغير بمرور الزمن، سواء في الماضي أو في الحاضر أو في المستقبل.

الخاتمة:

من الواضح أن الإسلام هو الدين الكامل، وأن النبي محمد ﷺ هو آخر الأنبياء. وبالرغم من أن الدين الإسلامي قد أُرسل في زمن مضى، إلا أن تعاليمه تبقى حية ومناسبة لجميع العصور. وعلى الرغم من أن التكنولوجيا والتواصل قد تطورت، فإن الإسلام يظل قائمًا وقويًا. كما أن معارف القرآن وتوجيهاته ستظل مصدر هداية للبشرية مهما تغيرت الظروف. إذن، لا حاجة لظهور النبي محمد مرة أخرى، لأن رسالته كاملة ومتجددة في كل زمان، والمهمة اليوم هي الاستمرار في نشر رسالة الإسلام وتعاليمه.

المصادر للمزيد من الدراسة:

جوادي آملی، عبدالله، وحی و نبوت در قرآن، نشر مرکز اسراء، قم: ۱۳۸۱ ش.

علامه طباطبائی، المیزان، ج ۴، ص ۱۳۱، ج ۹، ص ۲۴۷.

مصباح، محمد تقی، معارف قرآن، (۴ و ۵)، نشر مؤسسه آموزشی و پژوهشی امام خمینی، چ ۱، سال ۱۳۷۶ ش.

جوادی آملی، نسبت دین و دنیا (بررسی و نقد نظریه سکولاریسم)، نشر اسراء، قم: اول، ۱۳۸۱ ش.

١١) لماذا لم يتمكن النبي الأكرم ﷺ من إقامة العدالة الشاملة في عصره بينما يستطيع الإمام المهدي (عليه السلام) أن يحقق العدالة العالمية؟ وهل هذا يتناقض مع أرفع مكانة للنبي مقارنةً بالأئمة؟

إن هذه القضية تتعلق بمسائل عميقة مثل يوم القيامة وظهور الإمام المهدي. عجل الله تعالى فرجه. التي لا يعلمها إلا الله تعالى. وقد قدر الله هذه الأمور وفقًا لمصالح لا ندركها. ومع ذلك، يمكن تفسير هذا الموضوع ظاهريًا بناءً على عوامل أساسية يمكن تحقيق العدالة التامة في المجتمع من خلالهما:

١. العامل الخارجي:

هذا يشير إلى معرفة كل فرد في المجتمع لمعنى العدالة والكمال الذي هو الهدف من خلقه، وكذلك معرفة الطريق لتحقيق ذلك الهدف. وبما أن فهم البشر قاصر عن إدراك هذه الأمور، فقد احتاج البشر عبر التاريخ إلى الأنبياء لتهديتهم إلى أهدافهم.

٢. العامل الداخلي:

يتطلب هذا الشعور الداخلي في البشر المسؤولية والهدف العظيم. لتحقيق هذا العامل الداخلي، يجب أن يدرك الإنسان عقلانيًا أهمية طاعة الله والخضوع له، وأن معرفة العدالة الحقيقية والقسط وأثرها وبركاتها هي الضامن

الحقيقي لسعادة الفرد والمجتمع وإقامة العدالة في العالم. لتحقيق هذا العامل، ينبغي أن يصل الإنسان إلى مستوى عالٍ من الفهم والوعي ليتمكن من تطبيق الهدف العظيم من خلال القيادة الإلهية، ولكن، كما نلاحظ في خصائص الإنسان، لم يصل البشر بعد إلى هذا المستوى من الوعي والفهم لتحقيق هذا الهدف السامي.

فحتى في زمن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كانت هناك صعوبة في تحقيق العدالة الكاملة بسبب افتقار الصحابة إلى الاستعداد الكامل للتضحية في سبيل تطبيق الإسلام، حيث يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف: ٢). وكان هناك اعتراض على البعض من الصحابة بسبب ترددهم في الخروج للجهاد رغم تأكيدات النبي صلى الله عليه وآله.[١]

٣. أسباب عجز النبي الأكرم في تحقيق العدالة:

يمكننا الاستنتاج من كلام المفكرين مثل السيد رضا صدر، أن البشر لم يكن لديهم القدرة في وقت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على قبول حكومة عدالة كاملة، ولا الشجاعة الكافية لتحقيق العدالة بسبب نقص في التكوين الروحي والفكري والسياسي. كما ذكر أمير المؤمنين عليه السلام: "هؤلاء

١. سورة الحديد، آية ٢٥.

الناس قد ملوا مني، وأنا أيضًا مللت منهم"[1]، وهو ما يدل على أن الناس في زمن الأنبياء لم يكونوا مستعدين بعد للحكومة العادلة.

في الواقع، لم تكن لدى البشر الظروف المناسبة لتحقيق العدالة الكاملة في العصر النبوي، كما لم يكن البشر قد وصلوا بعد إلى مرحلة نضج فكرية واجتماعية وسياسية كافية لتقبل مثل هذه العدالة الشاملة. ولذا، مثل الطفل الذي يحتاج إلى التدرج في المراحل التعليمية والنمو ليصل إلى النضج الكامل، فإن البشرية كانت بحاجة إلى وقت وتطور لتحقيق هذه القدرة على قبول العدالة.

٤. ظهور الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف والقدرة على تحقيق العدالة:

في عصر ظهور الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، سيتحقق التطور والوعي الكامل لدى البشر، مما سيتيح لهم القدرة على قبول وتطبيق العدالة الشاملة. في هذا الوقت، ستكون الظروف الفكرية والاجتماعية والسياسية ملائمة لتحقيق هذا الهدف السامي.

٥. لا علاقة لعدم تحقق العدالة في زمن النبي بمقامه:

إذا لم يتمكن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من إقامة العدالة الشاملة في زمنه، فلا علاقة لذلك بمقامه أو شخصيته، بل كان ذلك

١. صدر، سيد رضا، راه مهدي، «عج»، ص٥٤، بوستان كتاب، قم.

نتيجة لعدم توفر الظروف المناسبة من حيث النضج الفكري والسياسي والاجتماعي في ذلك الوقت.

وبالنسبة للإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف ، فإن القدرة على تطبيق العدالة الشاملة ترجع إلى الظروف المواتية في عصره وليس إلى تفضيله أو تفوقه على النبي صلى الله عليه وآله. لذا إذا كانت الظروف الزمنية والمكانية متشابهة بين عصر النبي وعصر الإمام المهدي، وكان النبي لم ينجح في إقامة العدالة بينما استطاع الإمام المهدي أن يفعل ذلك، لكان من الممكن طرح تساؤلات حول هذا الفرق. ولكن الواقع هو أن الظروف ليست متشابهة بين العصرين.

الخلاصة:

يمكن القول إن النبي محمد صلى الله عليه وآله لم يتمكن من إقامة العدالة الشاملة في عصره بسبب نقص في النضج الفكري والسياسي والاجتماعي لدى البشر في ذلك الوقت، وليس بسبب أي نقص في شخصيته أو مكانته. أما الإمام المهدي عليه السلام، فسيتمكن من إقامة العدالة الشاملة في العصر الذي سيظهر فيه، وذلك بفضل توافر الظروف المواتية من النضج والتطور الفكري والاجتماعي. لذا، لا يوجد تناقض بين مقام النبي وواقع قدرة الإمام المهدي على تطبيق العدالة.

المصادر للمزيد من الدراسة:

جـوادي آملی، عـبدالله، وحـی و نبوت در قـرآن، نشر مرکز اسراء، قم: ۱۳۸۱ ش.

علامه طباطبائی، المیزان، ج ۴، ص ۱۳۱، ج ۹، ص ۲۴۷.

مصباح، محمد تقی، معارف قرآن، (۴ و ۵)، نشر مؤسسه آموزشی و پژوهشی امام خمینی، چ ۱، سال ۱۳۷۶ ش.

١٢) لماذا أمر الله تعالى النبي محمد ﷺ بإتباع مذهب إبراهيم عليه السلام رغم تأخر زمان موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام مقارنةً برسالة النبي محمد؟

قبل الإجابة على هذا السؤال، من المهم توضيح العلاقة بين الدين والشريعة، وهل الدين هو نفسه الشريعة أم أن هناك فرقًا بينهما؟ الجواب هو أن الدين يختلف عن الشريعة، فالدين يشمل مجموعة من العقائد والأصول الفكرية والأخلاقية مثل الإيمان بالتوحيد والمعاد والنبوة، والطاعة لله عز وجل، بينما الشريعة تشير إلى التفاصيل القانونية والشرعية المتعلقة بالعبادات والمعاملات.[١]

الدين هو الإسلام في جميع العصور:

كما ورد في القرآن الكريم: «إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ»[٢]، وهذا يشير إلى أن الدين الذي قبله الله من جميع الأنبياء هو الإسلام، أي الاستسلام والطاعة لله سبحانه وتعالى. لذلك، كل الأنبياء كانوا يدعون إلى الإسلام[٣] بمعنى الاستسلام لله، رغم اختلاف تفاصيل الشريعة التي كانت تتغير حسب زمان ومكان كل نبي.

١. سند، محمد، الحداثه، العولمه، الارهاب في ميزان النهضه الحسينيه، تقرير شيخ علي اسدي، قم: باقيات، ١، ١٤٢٧ه.ق، ص١٥-١٦.
٢. سورة آل عمران، آية ١٩
٣. سورة البقرة، آية ١٣٢.

الشريعة تتغير حسب الزمان:

أما الشريعة، وهي تفاصيل قانونية ودينية تتعلق بالعبادات والمعاملات، فقد كانت تختلف من نبي إلى آخر وفقًا لمتطلبات عصرهم. وعندما كانت الشريعة السابقة لا تلبي احتياجات البشر في مرحلة معينة، كان الله يرسل شريعة جديدة تكمل وتطور الشريعة السابقة. هذا لا يعني أن الشريعة السابقة كانت غير صحيحة في وقتها، بل كانت هي الصالحة في ذلك العصر.

السبب في اتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله لمذهب إبراهيم عليه السلام:

١. إبراهيم عليه السلام هو أصل الرسالات التوحيدية:

إبراهيم عليه السلام هو "أب الأنبياء" وصاحب رسالة التوحيد، ودينه يعدّ أساسًا لجميع الأديان السماوية. يقال إن كل الأديان التوحيدية، مثل اليهودية والمسيحية والإسلام، تُعتبر امتدادًا لدين إبراهيم عليه السلام. وبالتالي، كان من الطبيعي أن يُوجه النبي محمد صلى الله عليه وآله إلى اتباع دين إبراهيم، كونه الأساس الذي تنطلق منه جميع الرسالات التوحيدية.[١]

العلامة الطباطبائي رحمه الله عليه يشرح أن الدين التوحيدي في جميع أرجاء العالم يعود إلى إبراهيم، حيث كان جميع الأنبياء من نسل إبراهيم عليه السلام سواء من نسل إسماعيل عليه السلام أو من نسل إسحاق عليه السلام. ويؤكد أن الدين التوحيدي الذي جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله هو استمرار وتكملة لدين إبراهيم عليه السلام.[٢]

١. سبحاني، جعفر، مفاهيم القرآن، ج٣، ص٩٣.
٢. طباطبايي، سيد محمد حسين، الميزان، ج٧، ص٢١٧.

٢. أهمية مذهب إبراهيم عليه السلام في نظر العرب:

كانت شخصية إبراهيم عليه السلام تحظى باحترام كبير من قبل جميع الشعوب في الجزيرة العربية، بما في ذلك العرب، الذين كانوا يسمون أنفسهم "حُنَفاء" أي موحدين، وهذا تقدير لموقف إبراهيم في رفضه لعبادة الأوثان وتوحيده لله. كما كانت أهمية الحج الذي أرسى قواعده إبراهيم عليه السلام وما زال قائمًا حتى اليوم في الإسلام، تمثل ارتباطًا وثيقًا بهذا الدين التوحيدي.

٣. الدين الإبراهيمي كدين موحد:

إبراهيم عليه السلام كان معروفًا بمواقفه الصارمة ضد عبادة الأصنام، وكان يُعتبر رمزًا للتوحيد في جميع الأديان السماوية. هذا التوحيد الذي رفعه إبراهيم كان أساسًا لجميع الديانات التي انبثقت من بعده، وقد بيّن القرآن الكريم أن إبراهيم لم يكن يهوديًا أو نصرانيًا، بل كان مسلمًا مُخلصًا لله وحده: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾.[١]

٤. تحريف الشرائع السابقة:

في الوقت الذي كانت فيه الشريعة اليهودية والنصرانية قد تعرضت للتحريف والتغيير من قبل البشر، كانت الشريعة التي بعث بها النبي محمد صلى الله عليه وآله هي الشريعة التي استكملت وحفظت رسالة إبراهيم عليه السلام التوحيدية. وبهذا،

١. سورة آل عمران، آية ٦٧؛ طباطبايي، سيد محمد حسين، الميزان، ج٧، ص ٢١٧.

كان من الضروري للنبي محمد ﷺ أن يتبع مذهب إبراهيم، لأن الشريعة التي أتى بها هي الشريعة الوحيدة الصافية التي تتمم وتكمل ما بدأه إبراهيم عليه السلام.

٥. التشابه بين الشريعة الإسلامية وشريعة إبراهيم عليه السلام:

الدين الإسلامي، بما في ذلك شريعته، يشترك مع شريعة إبراهيم عليه السلام في العديد من التفاصيل، مثل الصلاة، والزكاة، والحج، وبعض الأحكام المتعلقة بالطهارة والطعام (مثل الحلال والحرام). هذه الأمور المشتركة تدل على الاستمرارية في المبادئ والقيم التي كانت موجودة في شريعة إبراهيم عليه السلام، وبالتالي كان من المنطقي أن يُقال للنبي محمد ﷺ أن يتبع مذهب إبراهيم، لأن هناك تشابهًا كبيرًا في مبادئ الدين بين الشريعة الإسلامية وشريعة إبراهيم عليه السلام.

النتيجة:

الله تعالى أمر النبي محمد ﷺ باتباع مذهب إبراهيم عليه السلام لأن دين إبراهيم هو أصل التوحيد الذي يشترك فيه جميع الأنبياء، وكان الإسلام الذي جاء به النبي محمد ﷺ هو أكمل وأتمّ شريعة توحيدية. هذه الشريعة كانت تمثل النضج الكامل لما بدأه إبراهيم عليه السلام، ولذلك كان من الطبيعي أن يُطلب من النبي محمد ﷺ أن يتبع هذا المذهب، وليس مذهب موسى عليه السلام أو عيسى عليه السلام اللذين تأثرت شريعتهما بالتحريفات.

المصادر للمزيد من الدراسة:

مطهری، مرتضی، خاتمیت، ص ۴۹ وما بعدها، صدرا، ۱۳۸۰.

جعفر سبحانی، راز بزرگ رسالت، ص ۲۱۷-۲۲۳ و ۲۳۱-۲۳۳، ۱۳۵۸.

علی شیروانی، معارف اسلامی در آثار شهید مطهری، ۳۵۴-۳۵۸، ۱۳۷۹.

مصطفی نورانی، بررسی عقاید و ادیان، دفتر مکتب اهل بیت، ۱۳۷۵.

النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وخاتمية النبوة

١) ما هي الأدلة على ختم النبوة والرسالة من قِبل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟

بوجه عام، يمكن تصنيف الأدلة على ختم النبوة والرسالة التي أتمها النبي محمد صلى الله عليه وآله إلى قسمين: الأدلة العقلية والأدلة النقلية.

أ) الأدلة النقلية

القرآن الكريم

تتضمن آيات من القرآن الكريم دلالات على ختم الرسالة على يد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومن أبرز هذه الآيات ما يلي:

١. ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.[١] هذه الآية تشير بوضوح إلى أن النبوة والرسالة قد انتهت ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله

١. سورة الأحزاب، آية ٤٠.

وسلم، إذ يُذكر فيها النبي بوصفه "خاتم الأنبياء"، وكلمة "خاتم" تأتي في سياق الإشارة إلى انتهاء شيء ما وإغلاقه.[1]

٢. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[2] هذه الآية تشير إلى شمولية رسالة النبي محمد ﷺ لجميع الناس، وتؤكد على انتشار وتعميم الدعوة في كل مكان وزمان.

٣. ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[3]. هذه الآية تؤكد على أن القرآن قد نزل على النبي ليكون إنذارًا لجميع الناس، مما يعكس طبيعة الرسالة الشاملة والمستمرة.

٤. ﴿وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ﴾.[4] هذه الآية تشير إلى أن الرسالة تمتد إلى كل من يصل إليهم القرآن، مما يعزز فكرة أن شريعة النبي محمد ﷺ هي شريعة خاتمة.

الأحاديث النبوية

عن علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى بن عبيد عن يونس عن حريز عن زرارة قال: سألته عن الحلال والحرام، فقال: «حلال محمد حلال أبداً إلى يوم القيامة وحرامه حرام

١ . مكارم شيرازي، ناصر، تفسير نمونة، طهران: دار الكتب الاسلامية، ١، ١٣٧٤ش، ج١٧، ٣٣٨-٣٣٩.
٢ . سورة سبأ، آية ٢٨.
٣ . سورة الفرقان، آية ١.
٤ . سورة الأنعام، آية ١٩.

أبداً إلى يوم القيامة، لا يكون غيره ولا يأتي غيره».[1] هذا الحديث يثبت أن شريعة النبي محمد صلى الله عليه وآله ستظل سارية إلى يوم القيامة، وأنه لا يأتي نبي بعده.

حديث المنزلة: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».[2] في هذا الحديث، يبين النبي محمد صلى الله عليه وآله أن الإمام علي عليه السلام له منزلة هارون بالنسبة لموسى، مع فارق أن بعده لا يوجد نبي. وهذا الحديث، الذي جاء في مصادر أهل السنة أيضًا، دلالة واضحة على ختم النبوة.

حديث مشهور في كثير من مصادر أهل السنة: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بنيانًا فحسنه وأجمله، فجعل الناس يطوفون به يقولون ما رأينا بنيانًا أحسن من هذا إلا هذه اللبنة، فكنت أنا تلك اللبنة». هذا الحديث يبين أن النبي محمد صلى الله عليه وآله هو آخر الأنبياء، كما جاء في صحيح مسلم.

في خطب نهج البلاغة، خاصة في خطبة ١٧٣، ورد ذكر خاتمية النبي محمد صلى الله عليه وآله بوضوح حيث قال: «أمين وحيه وخاتم رسله وبشير رحمته ونذير نقمته». وفي خطبة ١٣٣ قال: «أرسله على حين فترة من الرسل، وتنازع من الألسن، فقفى به الرسل وختم به الوحي». وفي الخطبة الأولى، بعد

١ . الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، طهران: دار الكتب الاسلامية، ١، ١٣٦٥ش، ج١، ص٥٨.

٢ . الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، طهران: دار الكتب الاسلامية، ١، ١٣٦٥ش، ج١، ص٥٨.

ذكر برامج الأنبياء السابقين، قال: «إلى أن بعث الله سبحانه محمدًا رسول الله ﷺ لإنجاز وعده وإتمام نبوته».

في خطبة حجة الوداع، وهي الخطبة التي ألقاها النبي محمد ﷺ في آخر حج له، حيث قال: «ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب، لا نبي بعدي ولا أمة بعدكم»، ثم رفع يديه إلى السماء وأشار قائلاً: «اللهم اشهد أنني قد بلغت».[1]

حديث آخر في كتاب الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن الله ختم بنبيكم النبيين فلا نبي بعده أبداً، وختم بكتابكم الكتب فلا كتاب بعده أبداً»، وهو ما يوضح بجلاء أن الله تعالى ختم النبوة برسالة النبي محمد ﷺ وسلم.[2]

ب) الدليل العقلي

إن دور العقل في هذا الموضوع محدود، إذ أن برامج الأنبياء تعتمد على الوحي، والعقل ليس لديه الإحاطة الكاملة بكل القضايا لكي يحكم بالضرورة على أن هذه الشريعة كاملة ونهائية وبالتالي هي خاتمة. بل إن العقل يحكم بشكل تعليقي، بحيث أنه عندما تصل الشريعة إلى النقطة النهائية التي تعرض فيها الخطوط الأساسية لبرنامج حياة الإنسان بشكل لا يُغفل فيه أي مبدأ أو قاعدة يحتاجها البشر، عندئذٍ تكون الشريعة قد انتهت. لأن بعثة نبي جديد أو شريعة

١ . المجلسي، محمد باقر، بحار الانوار، بيروت، دار الوفاء، ١، ١٤٠٤ه.ق، ج٢١، ص٣٨١.

٢ . مكارم شيرازي، ناصر، تفسير نمونة، ج١٧، ص٣٤٣-٣٤٥.

جديدة ستكون لغوًا في هذه الحالة. وإذا كان البشر بحاجة إلى تفسير تلك القواعد أو لم يتمكنوا من تطبيق المبادئ على الفروع في الأحداث المستجدة، فيكون الأمر في حاجة إلى أئمة معصومين.

لكن العقل بمفرده لا يتجاوز هذا الحد. أما معرفة أي شريعة هي شريعة خاتمة، فإن ذلك يعود إلى الله تعالى والدين الذي يقدم نفسه على أنه الشريعة الخاتمة، وقد قدم الدين الإسلامي نفسه على أنه الدين الخاتم.

بالطبع، بعد أن أعلن الوحي عن شريعة مكتملة ونبي خاتم، يعود العقل مرة أخرى إلى الساحة، وهذه المرة تكون مهمته كشف الحقائق، بمعنى أنه يحلل ويفحص الشريعة المذكورة. ويقوم العقل بدراسة الثقافة السائدة في المجتمع المستهدف، ويعمل على الحفاظ على القيم الإلهية، كما يدرس المبادئ والأسس العليا والمتجددة للشريعة، ليصل إلى النتيجة بأن هذه الشريعة هي الحل الدائم والشامل للبشر.

وفيما يلي بعض الأدلة العقلية التي تؤكد على خاتمية الإسلام والنبي الأعظم ﷺ وسلم:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.[1] في هذه الآية الكريمة، يتم التأكيد على حفظ

١. سورة الحجر، آية ٩.

القرآن من التحريف والتغيير والضياع، وبحسم لا نظير له. من الأسباب التي دعت إلى تجديد الرسالات وظهور أنبياء جدد كان التحريفات التي حدثت في تعاليم الكتب السماوية السابقة، مما أدى إلى فقدان تلك الرسالات صلاحيتها لهداية الناس. كان البشر في العصور القديمة غير قادرين على الحفاظ على ميراثهم العلمي والديني. لكن عندما وصل البشر إلى مرحلة من التقدم التي مكنتهم من حفظ هذا الميراث، زال السبب الأساسي لتجديد الرسالات.[1] إن الاهتمام الكبير للمسلمين بحفظ القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله يعد شهادة قوية على ذلك؛ فطوال العصور، كان هناك دائمًا عشرات بل مئات من الحُفّاظ والمقرئين والمحدثين في المجتمعات الإسلامية.

الدليل الثاني: الإسلام والقرآن يشكلان خطة شاملة، متوازنة، كاملة، تحتوي على جميع التفاصيل اللازمة والفعّالة في جميع القضايا. القرآن هو الكتاب الذي يحتوي على روح جميع تعاليم الكتب السماوية السابقة، لذلك فهو "مهيمن" وحافظ على باقي الكتب السماوية.

الدليل الثالث: من وجهة نظر القرآن الكريم، فإن جميع الأنبياء كانوا مبلغين لدين واحد، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ

١ . مطهري، مرتضي، مجموعه آثار، طهران: انتشارات صدرا، ط ٥، ١٣٧٥، ج٣، ص ١٥٤.

وَمُوسَى وَعِيسَى﴾.[1] إذًا، الدين الذي وُصف في القرآن هو الإسلام، بمعنى التسليم لأمر الله، رغم أن الأنبياء قد اختلفوا في بعض التفاصيل التشريعية، وهو اختلاف يمكن تشبيهه باختلاف الدروس الجامعية المتقدمة عن الدروس الابتدائية. لذلك، لم يذكر القرآن كلمة "أديان" في صيغة الجمع، بل استخدم كلمة "دين" في المفرد، لأن الدين قائم على الفطرة، والفطرة الإنسانية واحدة.

يرى القرآن الكريم أن مسيرة الإنسان هي مسيرة هداية هادفة على الصراط المستقيم، وليس تحوّلًا وتغيّرًا دائمًا. لذلك، كان الأنبياء يوجهون البشرية على الدوام نحو هذا الهدف النهائي. وعندما وصل البشر إلى مرحلة قادرة على استيعاب الخطة الكلية التي تنتهي إلى الهدف النهائي، لم تعد هناك حاجة إلى نبي جديد. مع ظهور الإسلام والقرآن، تحقق مفهوم "الأمة الوسط" التي تسير على الطريق المستقيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.[2] رسالته ﷺ هي قانون شامل، وليس برنامجًا خاصًا لمجتمع بعينه، بل هو موجه لجميع الناس.

المصادر للمزيد من الدراسة:

مطهري، مرتضى، "خاتمية النبوة"، طهران: منشورات

١. سورة الشوري، آية ١٣.
٢. سورة البقرة، آية ١٤٣.

صدرا.

"خاتمية النبوة والرد على دعاوى البهائية"، علي أميربور، المنظمة الصحفية.

"خاتمية النبوة من وجهة نظر القرآن والحديث والعقل"، الأستاذ جعفر سبحاني.

٢) دلائل تجديد النبوة وما الذي جعلها تؤدي إلى الخاتمية؟

من خلال القرآن الكريم يتبين أن النبوة هي مسار واحد، سواء من حيث أن جميع الأنبياء أُرسلوا من قبل إله واحد، أو من حيث أن أساس دعوة الأنبياء هو أساس واحد، وهو أن الله الواحد يجب أن يُعبد ويتبع.[١] وبناءً على ذلك، يمكننا القول أن جوهر جميع الأديان السماوية واحد، وهو الخضوع لله. بعبارة أخرى، يمكن القول أن جميع الأديان السماوية هي دين واحد، وهو الإسلام. بالطبع، هذا لا يعني أن الوحي الذي نزل على جميع الأنبياء في جميع الأزمنة والأماكن كان خاليًا من أي اختلافات، فبعض التفاصيل الخاصة بالأحكام قد تختلف بحسب الزمان والمكان أو الأقوام، ولكن جوهر كل هذه الأديان هو واحد. لذلك، يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾.[٢]، أي أن الدين عند الله هو الإسلام، وبالتالي فإن روح دعوة جميع الأنبياء هي ذاتها دعوة الإسلام.[٣]

من الممكن أن تكون هناك العديد من الأسرار والخفايا التي تفسر مسألة تجديد النبوة وتعدد الأنبياء، التي قد لا يتمكن أحد سوى المعصومين عليهم السلام من اكتشافها وكشفها. ومع ذلك، يمكن طرح بعض النقاط بناءً على ظاهر بعض الآيات في هذا الشأن:

١ . مصباح يزدي، محمد تقي، راه و راهنماشناسي (معارف قرآن)، قم: نشر مؤسسة آموزشي امام خميني، ط ٢، ١٣٧٩ ش، ج ٥ و ٤، ص ٢١٢.
٢ . سورة آل عمران، آية ١٩.
٣ . مصباح يزدي، محمد تقي، راه و رهنماشناسي، ص ٢١٤.

أ) في سورة المائدة، يقول تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ﴾.[1] في هذه الآية يُشار إلى عنصر الامتحان والاختبار. بعض العلماء قالوا: "لقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون هناك بعض الاختلافات في الأحكام ليتم اختبار الناس بتلك الأحكام المختلفة، حيث كانت أدوات اختبار الأمة واحدة بينما كانت أدوات اختبار الأمم الأخرى مختلفة. " وفي آية أخرى قال: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَاسِكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ﴾.[2]، وهذه الآية تشير إلى أن الله قد قرر لكل أمة طريقة معينة للعبادة يجب أن يتبعوها.[3]

ب) في آية أخرى، يقول تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾.[4] من هذه الآية نستنتج أن أحد أسباب تعدد الأنبياء هو أن البشر المتمردين كانوا يرفضون الاستجابة للأنبياء ويكذبونهم، وكان الله يُرسل النبي التالي ليؤكد رسالة النبي الأول ويُجبر البشر على قبول الحق.

ج) أحد الأسباب الأخرى لتعدد الأنبياء كان أن بعض الأنبياء قد قُتلوا على يد أعداء التوحيد، فكان الله يرسل نبيًا آخر ليكمل مسيرة الهداية. كما جاء في الآية: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ

١ . سورة المائدة، آية ٤٨.
٢ . سورة حج، آية ٦٧.
٣ . مصباح يزدي، محمد تقي، راه و رهنماشناسي، ص ٢٣٤.
٤ . سورة يس، آية ١٤.

بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[1] و ﴿فَمَا قَتَلْتُمْ عَبْدِي أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾[2]، مما يعكس استمرار النبوة بعد كل محاولة لقتل الأنبياء.

د) في بعض الروايات، قيل: "نحن نتحدث مع الناس وفقًا لعقولهم وفهمهم." من خلال هذه الروايات، يمكن أن نفهم أن البشر كانوا في تطور تدريجي في فهمهم العقلي والمعرفي، ومع تقدم الزمن وازدياد المعرفة، كان الله يرسل الأنبياء وفقًا للظروف الزمنية والمكانية ليرشدهم.

هـ) أحد الأسباب المهمة لتعدد الأنبياء هو أن الله لم يترك الأرض خالية من الحجة على الناس. كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: "وَلَمْ يَخْلُهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَوْ كِتَابٍ مُنَزَّلٍ أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ أَوْ مَحْجَّةٍ قَائِمَةٍ"[3]، وهذا يعني أن الله لم يترك الناس بدون نبي أو كتاب أو حجة. ومع ذلك، بعد النبي الأخير، أصبحت هذه الحقيقة (وجود الحجة في الأرض) متحققة بوجود الأئمة عليهم السلام، الذي يقوده اليوم الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه.

أما لماذا انتهت النبوة إلى الخاتمية، فقد قدم الشهيد مطهري شرحًا جيدًا لهذه القضية، ويستطيع أن يكون بيانًا عميقًا لسر الخاتمية. يقول مطهري: بالرغم من أن النبوة هي مسار مستمر وأن الدين الإلهي هو حقيقة واحدة، فإن

١. سورة آل عمران، آية ١١٢.
٢. سورة البقرة، آية ٦١.
٣. نهج البلاغة، خطبة ١.

أسباب تجديد النبوات التشريعية والإعلامية وظهور الأنبياء المتتابعين، ثم توقف كل ذلك بعد ظهور خاتم الأنبياء، هي:

أولًا، كان البشر في العصور القديمة غير قادرين على حفظ كتبهم السماوية، حيث كانت تتعرض للتغيير والتحريف أو تُفقد تمامًا، لذا كان من الضروري أن يتم تجديد الوحي. ومع نـزول الـقرآن في مرحلة نضوج البشرية، أصبحت البشرية قادرة على حفظ ميراثها العلمي والديني، ومنذ ذلك الحين لم يحدث تحريف في القرآن.

ثانيًا، في العصور السابقة، لم يكن البشر قـادريـن على تلقي الخطة الكلية لحياتهم ومتابعتها. كـانـوا يحتاجون إلـى مرشدين فـي كـل مرحلة مـن مـراحـل حياتهم، لكن مع ظهور الإسـلام أصبح البشر قادرين على تلقي الخطة الكلية لحياتهم، ووقفوا عند نقطة من النضج بحيث لم يعد هناك حاجة للأنبياء.

ثالثًا، إلى جانب مسألة التحريف في الكتب السماوية السابقة، فإن البشر في العصور الماضية لم يكونوا قادرين على استيعاب الخطة الكلية لحياتهم، ولـكـن مـع ظهور الإسـلام أصبح لديهم القدرة على تلقي هذه الخطة الكلية، مما جعل تجديد الشرائع لا ضرورة له.

رابعًا، معظم الأنبياء كانوا فقط مُبلِّغين لشريعتهم، وليس مُشرِّعين. أما الأنبياء الذين كانوا مشرّعين، فكانوا قلة،

وكانوا يقيمون شريعة خاصة بزمنهم. اليوم، في عصر الخاتم، أصبح العلماء قادرين على استخدام مبادئ الإسلام العامة وتطبيقها على الظروف الزمانية والمكانية.[1]

المصادر للمزيد من الدراسة:

"دانش‌نامه امام علی"، ج ۳، ص ۱۱، مركز بزوهش‌های فرهنگ و اندیشه اسلامی، الطبعة الأولى ۱۳۸۰ هـ ش.

مطهری، مرتضی، "مجموعه آثار"، ج ۳، ص ۱۵۳، وج ۴، ص ۳۴۸، منشورات صدرا، الطبعة الخامسة، ۱۳۷۸ هـ ش.

١ . مطهري، مرتضي، مجموعه آثار، نشر صدرا، ط ٨، ١٣٧٨ ش، ج٢، ص ١٨٤.

٣) هل يمكن للإسلام الذي ظهر قبل أربعة عشر قرنًا أن يحل جميع مسائل البشر الحالية؟

بناءً على فلسفة النبوة والإمامة، يجب على البشر في كل زمان أن يُدعوا إلى الله تعالى عبر الوحي، سواء كان النبي موجودًا بين الناس شخصيًا أو عبر خلفائه وآثار هدايته. وإذا كان فرضًا قد كانت ظروف الحياة البشرية بحيث يمكن لنبي واحد أن يبيّن جميع احتياجات البشر حتى نهاية العالم، بحيث يستطيع كل فرد أو مجموعة عبر التاريخ أن يعرف واجبهم من خلال رسائل ذلك النبي، فلا يعتبر هذا مخالفًا لمقتضيات برهان النبوة والإمامة.

لكننا نعلم أن:

أولًا، عمر كل إنسان، بما في ذلك الأنبياء، محدود، ومن الحكمة الإلهية أن الأول من الأنبياء لم يكن ليعيش إلى نهاية العالم ليقوم شخصيًا بإرشاد جميع البشر.

ثانيًا، ليست ظروف الحياة البشرية في الأزمنة والأمكنة المختلفة متشابهة، وهذا الاختلاف والتغير في الظروف، خاصة في تعقيد العلاقات الاجتماعية تدريجيًا، قد يؤثر على نوعية وكمية الأحكام والقوانين الاجتماعية، مما قد يتطلب تشريع قوانين جديدة. وإذا تم عرض هذه القوانين على نبي أُرسل منذ آلاف السنين، فإن ذلك كان سيكون عبثًا وبدون فائدة، كما أن تطبيق هذه الأحكام على حالات معينة سيكون أمرًا بالغ الصعوبة.

ثالثًا، في كثير من الأزمنة الماضية، لم تكن وسائل الدعوة ونشر رسالة الأنبياء متوفرة بالشكل الذي يتيح للنبي أن ينقل رسالته إلى جميع الناس في العالم.

رابعًا، كانت تعاليم النبي تُعرض على نفس الأشخاص الذين يتلقونها، ومع مرور الوقت وتحت تأثير عوامل مختلفة، كانت هذه التعاليم تتعرض للتحريف والتفسير الخاطئ، وأحيانًا تتحول إلى دين منحرف.

من خلال هذه النقاط، يتضح الحكمة من تعدد الأنبياء والاختلاف في الشرائع السماوية في بعض الأحكام العبادية والقوانين الاجتماعية. ومع ذلك، إذا كانت ظروف الحياة البشرية قد تغيرت بحيث تصل دعوة النبي إلى جميع الناس، وتبقى رسائله محفوظة وآمنة للأجيال القادمة، ولم تعد التغيرات في الظروف الاجتماعية تتطلب تشريعات جديدة وأساسية أو تعديلًا في الأحكام والقوانين، فلا حاجة لإرسال نبي جديد.[1] وبالتالي، إذا كان دين قادرًا على تلبية احتياجات البشر إلى الأبد، فلن يكون مرور الزمن قادرًا على إلغاءه، وسيظل البشر دائمًا في حاجة إليه. وبما أن الدين الإسلامي يتمتع بهذه الميزة، فإنه مهما مر الوقت، فلن يفقد الإسلام رونقه وحداثته، وسيظل الإنسان بحاجة إليه على مر العصور.

كما قال سماعة: "سألت الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: هل

١ . الكليني، محمد بن يعقوب، اصول كافي، ج١، ص ٥٧.

أتى النبي بكل ما يحتاجه الناس في زمانه؟ فقال: نعم، وما يحتاجونه حتى يوم القيامة. قلت: هل هناك شيء قد ضاع؟ فقال: لا، هو محفوظ عند أهله."[1]

إذاً، كل ما يحتاجه البشر حتى قيام القيامة قد بيّنه الدين الإسلامي، سواء من لسان النبي الأعظم صلى الله عليه وآله أو الأئمة عليهم السلام، أو في كتاب الله السماوي.

هذا الدين المقدس الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾.[2] في تفسير هذه الآية، قال بعض أصحاب الإمام الصادق عليه السلام: "سمعنا منه أنه قال: إني لأعلم ما في السموات وما في الأرض، وأعلم ما في الجنة وما في النار، وأعلم ما سيكون إلى قيام الساعة." ثم سكت قليلاً، وأحسّ بأن السامعين تعجبوا، فقال: "كل هذا من كتاب الله عز وجل، لأنه تعالى قال عن كتابه: ﴿فِيهِ تِبْيَانُ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[3]". وبالتالي، في القرآن الكريم كل شيء موجود، وهذا الكتاب دائمًا مشرق، كما ورد في الحديث: «القرآن يجري كما تجري الشمس والقمر».[4]

بعض المفسرين يشرحون هذا الحديث قائلين: "القرآن في جريانه مثل الشمس والقمر، ومعارفه دائمًا متألقة عبر الزمان، وما يتغير هو أحداث الزمن، فالمفاهيم والمعاني الدينية ثابتة، فقط ما يتغير هو مصاديقها."[5]

١. الكليني، محمد بن يعقوب، اصول كافي، ج١، ص ٥٧.
٢. سورة النحل، آية ٨٩.
٣. الكليني، محمد بن يعقوب، اصول كافي، ج١، ص ٢٠١، ح ٢.
٤. الكليني، محمد بن يعقوب، اصول كافي، ج٢، كتاب فضل القرآن، ص ١٢٦.
٥. جوادي الآملي، عبدالله، شريعت در آينه معرفت، ط پژمان، ط ٢، ١٣٧٣.

قد تطرأ بعض الشبهات في هذا السياق، ومنها:

إذا كان كل شيء موجودًا في الإسلام، هل يعني ذلك أن الإسلام يشمل تفاصيل مثل كيفية صناعة الطائرات وما إلى ذلك؟

بعض المسائل مثل استهلاك التبغ، التي لم تكن موجودة في زمن النبي الأعظم ﷺ أو الأئمة أو في القرآن الكريم، ما هو حكم الإسلام فيها؟

الإجابة على هذه الشبهات تكمن في النقاط التالية:

الدين "الإسلام" هو دين شامل وأبدي، لأنه وُجد للبشرية جمعاء، وهذه الإنسانية لا تتغير؛ لا الزمن ولا المكان يغيران الإنسانية. الدين يتعامل مع إنسانية البشر، وليس مع تفاصيل الحياة المحيطة بهذه الإنسانية. ما يتغير مع تقدم العلوم والصناعات هو حواشي الحياة الإنسانية. إذا تغيرت طريقة بناء المنازل، أو إنشاء الطرق، أو أسلوب حياة البشر، أو طرق ملابسهم وطعامهم، فإن هذه الحواشي تتعلق بتنظيمات الحياة التي لا يتعامل معها الإسلام، بل يتعامل مع ما لا يتغير، وهو فطرة الإنسان، وتلك هي التي تناولها الوحي الإلهي.

الأحكام الإسلامية تنقسم إلى قسمين:

أ. القوانين الثابتة وغير القابلة للتغيير (الأحكام الأولية): وهي المسائل التي لا تقبل التغيير أو الزوال، وتظل صالحة

عبر الزمن وفي المجتمعات المختلفة. مرور ١٤٠٠ سنة لن يجعلها قديمة أو غير صالحة، بل مع مرور الوقت تزداد أهميتها واكتشاف قيمتها.

ب. القوانين غير الثابتة والقابلة للتغيير (الأحكام الثانوية): وهي المسائل التي تنشأ بناءً على مقتضيات الزمان والمكان، ويحدد الفقهاء حكمها استنادًا إلى القوانين الثابتة.

من خلال هذه الشروحات، يتبين بوضوح أن الإسلام قادر على تلبية جميع احتياجات البشر حتى قيام الساعة.

٤) كيف يلبي الإسلام احتياجات البشر المتغيرة رغم محدودية قوانينه الثابتة؟

إحدى الأسئلة المهمة التي تطرح في سياق النبوة، وبخاصة في قضية الخاتمية، وتُثار أحيانًا كإشكال جديد، هي: إذا كان قد انتهت النبوة مع وفاة النبي الكريم ﷺ وقطعت البشرية علاقتها بالوحي، فكيف يُمكن للإسلام، الذي يزعم أنه يحتوي على قوانين وتنظيمات لكل جوانب الحياة الفردية والاجتماعية، أن يواكب احتياجات البشر التي تتغير وتتكامل مع مرور الزمن؟ كيف يُمكن لقوانين الإسلام المحدودة أن تعالج جميع الأحداث المتغيرة والنابضة بالتحولات المستمرة؟

في البداية، يجب أن نكون على وعي بأن الخاتمية والكمال أمران مترابطان، بمعنى أنه إذا ادعى دين ما الخاتمية، فإنه من الضروري أن يكون هذا الدين كاملًا أيضًا. ولذلك، في القرآن الكريم، نجد تكرارًا لهذا التلازم بين الكمال والخاتمية، كما في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1]، وفي قوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[2]، أي أن الدين الإسلام ليس فقط دينًا كاملًا بل هو خاتم الأديان.

من يستطيع الادعاء بالكمال والخاتمية؟ المكاسب الدنيوية والمذاهب التي تعتمد على الحواس والتجربة لا

١. سورة المائدة، آية ٣.
٢. سورة الأحزاب، آية ٤٠.

تستطيع أن تدعي الكمال أو الخاتمية، لأن الدين الذي يدعي الكمال والخاتمية يجب أن يتجاوز مرحلة الطبيعة ليصل إلى مقام القرب من الله. النبي محمد ﷺ هو الأسوة الكاملة التي اجتازت جميع المراحل، وبالتالي يقدم لنا أكمل وأشمل القوانين للسلوك البشري. لذلك، الإسلام هو الدين الذي يختزن كل مراحل الإنسانية ويقدمها كطريق للبشرية.[1]

إجابة على التساؤل حول كيفية توافق الإسلام مع احتياجات البشر المتغيرة:

احتياجات البشر يمكن تصنيفها إلى نوعين:

الاحتياجات الأولية: وهي احتياجات فطرية وجزء من طبيعة الإنسان الفردية والاجتماعية. هذه الاحتياجات تشمل: الاحتياجات الجسدية (مثل الطعام والملبس والمأوى والزوجة)، والاحتياجات الروحية (مثل السعي وراء العلم، والجمال، والعبادة)، والاحتياجات الاجتماعية (مثل التفاعل، التعاون، العدالة، والحرية).

الاحتياجات الثانوية: وهي الاحتياجات التي تنشأ نتيجة للظروف المحيطية، وهي متغيرة مع مرور الزمن. هذه تشمل احتياجات الحياة اليومية المتعلقة بالوسائل التقنية وأدوات الحياة، والتي تتغير من عصر لآخر، كالأدوات التكنولوجية والنظم السياسية والاقتصادية.[2]

١ . جوادي الآملي، عبدالله، شريعت در آينه معرفت، ص ٢١٤-٢١٧.
٢ . مطهري، مرتضي، مجموعه آثار، ج٣، ص ١٨٣-١٨٤.

الجواب على كيفية تعامل الإسلام مع هذه الاحتياجات المتغيرة:

الإسلام يقدم نوعين من القوانين:

القوانين الثابتة: هذه القوانين مرتبطة بالاحتياجات الأولية التي هي جزء من طبيعة الإنسان مثل حاجة الإنسان إلى العائلة والمجتمع. هذه القوانين لا تتغير مع مرور الزمن. مثال على ذلك: العلاقة بين الأب والأم مع الطفل هي علاقة فطرية وغاياتها ثابتة مثل أحكام الميراث أو التربية. كما أن الحاجة إلى العائلة والاجتماع ووجود القوانين التي تحكم العلاقات الاجتماعية والعدالة هي أيضًا ثابتة.[1]

القوانين المتغيرة: تتعلق هذه القوانين بالظروف الزمنية والمكانية الخاصة التي تتغير بتغير العصر. على سبيل المثال، في مسائل الدفاع، لا يقدم الإسلام أحكامًا محددة حول نوع الأسلحة أو طرق الدفاع، بل يضع مبدأ عامًا يتمثل في ضرورة تقوية القدرة الدفاعية وفقًا للظروف المتغيرة عبر الزمن. القرآن يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾.[2]، أي أن المسلمين يجب أن يكونوا مستعدين وفقًا للظروف المحيطة بكل زمن.[3]

١ . جعفر سبحاني، خاتميت از نظر قرآن و حديث و عقل، ص ١٥٢ و ١٥٤؛ مرتضي مطهري ، خاتميت، ، صص ١٢٤ ـ ١٢٥؛ و جوادي الآملي، عبدالله، شريعت در آينه معرفت، ص ١١٥ ـ ١١٧؛ و معنويت تشيع، ص ١٠٩ ـ ١١١.

٢ . سورة انفال، آية ٦٠.

٣ . خاتميت از نظر قرآن، و حديث و عقل، ص ١٥٢ ـ ١٥٦.

كيف يتعامل الإسلام مع الأحداث المتغيرة والأمور العصرية؟

لكي يواكب دين ما تطور المجتمع البشري ويستطيع الاستجابة لاحتياجاته في كل مرحلة من الزمن، يجب أن يتمتع الدين بخصائص معينة:

مصادر غنية للتشريع: يجب أن يكون هناك مصادر تشريعية واسعة يمكن من خلالها استخراج الأحكام للظروف المتغيرة.

مرونة في القوانين: يجب أن تكون القوانين مرنة بحيث يمكن تطبيقها في كافة الحالات المتغيرة.

الإسلام يتمتع بهذه الخصائص. فهو يعتمد على مصادر غنية تشمل القرآن الكريم، الأحاديث النبوية، وأقوال الأئمة المعصومين، بالإضافة إلى العقل والاجتهاد. كما أن الإسلام يتبنى مبدأ أن الأحكام الإلهية قائمة على مصلحة الإنسان وضروراته.

المصادر التشريعية في الإسلام:

حكم العقل: الإسلام يُقر حكم العقل ويعتبره مرشدًا باطنيًا يساعد على حل بعض المشاكل، لكنه لا يستهلك كل الأحكام الشرعية.[1]

الأحكام الإلهية مبنية على المصالح والمفاسد: كل حكم

١ . خاتميت از نظر قرآن و حديث و عقل، ص ١٥٨؛ مجموعه آثار، ج٣، ص ١٩٠؛ و جوادي الآملي، عبدالله، عقايد استدلالي، ج٢، ص ٨٠.٨١.

إلهي ينطوي على مصلحة، وكل ما هو حرام ينطوي على مفسدة. وهذا يضمن أن الأحكام تتماشى مع ما هو مفيد للبشرية.

الاجتهاد: الاجتهاد هو الجهد العقلي لاستنباط الأحكام الشرعية من القرآن والسنة. وبفضل هذا الاجتهاد، يُمكن استخراج حكم قضايا جديدة لم تكن موجودة في زمن النبي.

اختيارات الحاكم الإسلامي: الحكومة الإسلامية تمتلك سلطات تشريعية تُساعد في مواجهة التحديات الجديدة.

مرونة القوانين الإسلامية:

الاهتمام بالجوهر لا الشكل: الإسلام لا يهتم بالشكل الظاهري للحياة بقدر ما يهتم بجوهر الأمور. لذلك، التغيرات في الأدوات والوسائل لا تؤثر على القوانين الإسلامية.

القواعد الحاكمة: يوجد في الإسلام قواعد حاكمة مثل: ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾[1]، و«لا ضرر ولا ضرار» التي تسمح بتغيير الأحكام إذا كانت تسبب ضررًا أو مشقة.

النتيجة:

الإسلام قادر على تلبية احتياجات البشرية المتزايدة والمتغيرة، بفضل مصادره الغنية والمرنة التي تستند إلى المبادئ الثابتة وتتكيف مع التحديات المتجددة. وبذلك،

١. سورة الحج، آية ٧٨.

يمكن للإسلام أن يكون دينًا خالدًا يجيب على جميع التحديات عبر العصور.